2020
6.1.2020

ترجمة زوينة آل توبه

مائدة القطّ

مايكل أونداتجي

رواية

مايكل أونداتجي

مائدةُ القِطّ

ترجمة زوينة آل تويّه

مائدة القِطّ

هذا الكتاب بدعم من:



مائدةُ القِطّ

تأليف: مايكل أونداتجي
ترجمة: زوينة آل تويّه
تحرير: أحمد العلي

الترقيم الدولي (ISBN): 978-9948-37-969-0



إصدارات روايات (إحدى شركات مجموعة كلمات)
الطبعة الأولى 2020

القصباء - مبنى D
هاتف: 5566696 6 971+ فاكس: 5566691 6 971+
ص. ب. 21969 الشارقة، الإمارات العربية المتحدة
info@rewayat.ae
www.rewayat.ae

تمت الموافقة على المحتوى من قبل المجلس الوطني
للإعلام / المرجع: MC-02-01-3937003



إلى كُونْتِن، غريفِن، كرِستِن، وإستَا
إلى أنْثوني، وإلى كونْستانْس

وهكذا أرى الشرق... أراه دائمًا من سفينة صغيرة، ما مِن ضوءٍ، ما مِن نَأْمَةٍ، ما مِن صوت. نتحدَّث بِهمْسٍ خفيضٍ وكأنَّنا نخشى إيقاظَ الجزيرة... كلُّ شيءٍ كان في تلك اللحظة حينما فتحتُ عينيَّ الفتيَّتيْن عليه. لقد اكتَشَفْتُه بعد صراع مع البحر.

«الشَّبَاب»، جوزيف كونراد

لم يكن يتحدَّث. طَوَالَ الطريق كان ينظر من نافذة السيارة. شخصان راشدان جلسا في المقعد الأمامي يتبادلان الحديث بِهَمْس. كان بمستطاعه سماعهما لو أراد، ولكنَّه لم يفعل. في ذلك الجزء من الشارع حيث يفيض النهر أحيانًا استطاع أن يسمع، بعضَ الوقت، رشَّ الماء تحت العجلات. دخلوا حيَّ (فورت) وانسابت السيارة بهدوء بمحاذاة مكتب البريد وبرج الساعة. في هذه الساعة من الليل بالكاد يمكن أن تكون ثمَّة حركة مرور في كولومبو. قادوا السيارة طوال شارع (رِكْلَمَيْشن)، ومرُّوا بكنيسة القدِّيس (أنتوني)، وبعد ذلك رأى آخر أكشاك بيع الطعام، وقد أُضيء كلٌّ منها بمصباح وحيد. ثم دخلوا فضاءً فسيحًا مفتوحًا، وكان ذلك هو الميناء، ينيره فقط خيط من المصابيح على بُعْدٍ طوالَ الرصيف البحري. ترجَّل ووقف متدفِّئًا بالسيارة.

استطاع أن يسمع نباح الكلاب الضَّالَّة التي تعيش على أرصفة الميناء خارجًا من الظلام. كان كلُّ شيء حوله لامرئيًّا تقريبًا إلا ما أمكن رؤيته تحت أشعةِ بضعة مصابيح كبريتية: العُمَّالُ المشتغلون في جانب الماء وهم يسحبون موكبًا من العربات المحمَّلة

بالحقائب، وبعضُ العائلات المتجمهرة. كانوا قد شرعوا جميعًا يسيرون نحو الباخرة.

في تلك الليلة، كان في الحادية عشرة من عمره عندما، وهو غضُّ التجربة في العالم، صعد إلى متن الباخرة الأولى والوحيدة في حياته. بدا وكأنَّ مدينةً أُضيفت إلى الساحل، مضاءةً أفضل من أيَّة بلدة أو قرية. صعد إلى المِعْبَر وهو يرقب مسار قدميه وحسب – ما مِن شيء أمامه – واستمر إلى أن واجه المرفأ والبحر المُظلميْن. تبدَّت من البعيد تُخُوم بواخر أخرى بدأت مصابيحها تضيء. وقف وحيدًا يشتَمُّ رائحة كلِّ شيء، ثم قفل عائدًا وسط الضجيج والحشد إلى الجانب المطلّ على اليابسة. وهج أصفر فوق المدينة. بدا وكأنَّ جدارًا قام بينه وبين ما يحدث هناك. أخذ المضيفون يوزِّعون الطعام والشراب. تناول شطائر عدَّة، ثمَّ شقَّ طريقه إلى مقصورته في الأسفل، خلع ملابسه، وانزلق إلى السرير الضَّيِّق المُتراكب. لم ينم تحت دثار من قبل قطُّ، إلا مرَّةً في (نُوارا إليَا). كان يقِظًا تمامًا. كانت المقصورة تحت مستوى الأمواج، ولذا لم تكن هناك كُوَّة. وجد مفتاحًا كهربائيًّا إلى جانب السرير، ولمَّا ضغطه أضاء رأسَه ومخدَّتَه بغتةً مخروطٌ من الضوء.

لم يعُد إلى ظهر الباخرة لإلقاء نظرة أخيرة أو ليلوِّح لأقاربه الذين أتوا به إلى الميناء. استطاع أن يسمع الغناء، وتخيَّل فراق العائلات البطيء، ثمَّ المتلهِّف في هواء الليل المنعش. لا أدري، حتى الآن، لِمَ اصطفى هذه العزلة. هل كان من أحضره للصعود إلى ظهر (الأُورُونسَي) قد غادر؟ في الأفلام ينتزع الناسُ بعضَهم عن بعضٍ انتزاعًا وينتحبون، وتبتعد الباخرة عن اليابسة إذ يتشبَّث الراحلون

بتلك الوجوه الآخذة في التلاشي إلى أن يتلاشى كلُّ فرْق.

أحاول أن أتخيَّل مَنْ كان ذاك الفتى على متن الباخرة. لعلَّه لم يساوره حتى أيُّ إحساس بذاته في غمرة سكونه المرتبك على سريره الضَّيِّق، على هذا السرير الأشبه بالجُنْدُب الأخضر أو الجُدْجُد الصغير، وكأنَّما هُرِّب مصادفةً، دونما معرفة بالفعل، إلى المستقبل.

أفاق حينما سمع المسافرين يغْدُون في الرُّواق. عاد إلى ارتداء ملابسه وغادر المقصورة. كان ثمَّة شيء ما يحدث. صياحُ مخمورٍ ملأ الليل، وراح المسؤولون يُسكتونه بالصراخ. في منتصف السطح (ب) كان البحَّارة يحاولون الإمساك بقبطان المرفأ. بعد أن قاد الباخرة بإتقان إلى خارج المرفأ (كانت هناك مسارات عدَّة ينبغي تجنُّبُها بسبب حطامٍ مغمور وحاجزِ أمواج قديم) راح يعاقر الخمر احتفالًا بإنجازه. والآن، في ما يبدو، فإنَّه لا يودُّ المغادرة وحسب. ليس بعد وحسب. لعلَّه يقضي ساعة أو ساعتين مع الباخرة. بَيْد أنَّ الأُورُونسَي كانت توَّاقة إلى المغادرة حينما تدقُّ ساعة منتصف الليل، وكان زورق القبطان ينتظره عند خط الماء. أخذ أفراد الطاقم يجاهدون لدفعه إلى النزول بسُلَّم الحبال، ولكنْ، لمَّا كان ثمَّة خطر أن يسقط ويلقى حتفه راحوا يقبضونه كسمكة في شبكة، وبهذه الطريقة أنزلوه بسلام. لم يسبِّب الموقف حرجًا للرجل بتاتًا، بيْد أنَّه كان باعثًا على الحرج على نحو جليٍّ للمسؤولين في شركة خطوط الشرق الذين كانوا على البُرْج يتميَّزون غيظًا في زِيِّهم الأبيض. هتَف المسافرون حين أخذ الزورق يبتعد. ثم سُمِع صوت المجذافيْن وغناء القبطان المُضجِر إذ أخذ الزورق يتلاشى في الليل.

المغادرة

أيُّ شيء كان هناك في حياتي قبل باخرة كهذه؟ قارب (كانو) في رحلة نهرية؟ أم زورق (لَنْش) في ميناء (ترينكومالي)؟ كانت هناك دومًا قوارب صيد في أُفُقنا. بيْد أنني ما تخيَّلت قطُّ عَظَمَة هذه القلعة التي ستعبر البحر. كانت أطول رحلات قمت بها إمَّا بالسيارة إلى نُوارا إليا وسهول (هورتون)، وإمَّا بالقطار إلى (جَفْنَا) الذي كان يُقلُّنا في السابعة صباحًا ونترجَّل منه في وقت متأخِّر من الأصيل. كنَّا نقطع تلك الرحلة حاملين معنا فطائر بيض، حلوى (تالاغولي)، رُزمة ورق اللعب، ونسخة صغيرة من سلسلة مغامرات "بويْز أُون".

بيْد أنَّه بات مُزمَعًا الآن أن أسافر إلى إنكلترا بالباخرة، وأن أمضي في الرحلة بمفردي. لم يُذكَر أنَّ هذه الرحلة ستكون تجربة غير عاديَّة أو مثيرةً أو خطِرة، ولذا لم أُقبِل عليها بفرح أو خوف. لم أُخطَر بأنَّ للباخرة سبعة طوابق تحمل أكثر من ستمائة شخص منهم قبطان، وتسعة طُهاة، ومهندسون، وبيطري، وأنها تضم سجنًا صغيرًا وأحواض سباحة معالَجة بالكلور ستبحر معنا في الواقع قاطعةً محيطيْن. على نحوٍ عرضي وضعت عمَّتي علامةً على تاريخ المغادرة في الرُّوزنامة، وأبلغت المدرسة بأنني سأغادر في نهاية الفصل

الدراسي. لقد جرى الحديث عن حقيقة وجودي في البحر أحد وعشرين يومًا بأنها أمر غير ذي أهمية كبيرة، ولذلك أثار استغرابي أن يزعج أقاربي أنفسهم حتى بمرافقتي إلى الميناء. وقد خِلْتُ أنني سأركب حافلة بنفسي، ثم أبدِّل بها أخرى في تقاطع (بوريلا).

كانت هناك محاولة واحدة فقط لتعريفي بوضع الرحلة. تبيَّن أنَّ سيدةً تُدعى (فلافيا برِنْز) كان زوجها يعرف خالي، تقوم بالرحلة نفسها، وقد دُعِيتُ إلى تناول الشاي ذات أصيل لمقابلتي. ستسافر في الدرجة الأولى، ولكنها قطعت وعدًا بأن تبقي عينها عليَّ. صافحتُ يدها بحذر؛ لأنها كانت مُغطَّاة بالخواتم والأساور، ثم استدارت لتواصل الحديث الذي قطعتُه. قضيتُ معظم الساعة أستمع إلى بعض الأعمام وأَعُدُّ الفطائر المقطوعة الحافَّات التي أكلوها.

في يومي الأخير وجدت دفترَ امتحان مدرسي فارغًا، قلمَ رصاص، مبراةَ أقلام، خارطةً للعالم مرسومة، ووضعتها في حقيبة السفر الصغيرة. خرجت وقلت وداعًا لمُولِّد الكهرباء، ونبشت عن قطع المذياع التي فكَّكتُها مرَّةً ولعدم استطاعتي إعادة تركيبها دفنتُها تحت المرْج. قلت وداعًا لـ(نارايان)، ووداعًا لـ(غُونبِالا).

عندما ركبت السيارة شُرِح لي أنني بعد أن أقطع المحيطَ الهندي، وبحرَ العرب، والبحرَ الأحمر، وأعبر قناةَ السويس إلى البحر الأبيض المتوسط، سأبلغ ذات صباح رصيفًا بحريًّا صغيرًا في إنكلترا، وستستقبلني أمي هناك. لم يكن سحرُ الرحلة أو مداها ما بعث فيَّ القلق، وإنَّما كان سؤال كيف ستعرف أمي موعد وصولي تحديدًا إلى تلك البلاد الأخرى.

وما إذا كانت ستكون هناك.

سمعتُ صوت ورقة تُدَسُّ تحت بابي. إنها تحدِّد لي المائدة (76) لتناول جميع وجباتي. لم ينم أحد على السرير الآخر. ارتديت ملابس وخرجت. لم أكن معتادًا السلالم، فصعدتها باحتراس.

في صالة الطعام كان هناك تسعة أشخاص يجلسون إلى المائدة (76)، وكان بينهم أيضًا صبيَّان آخران في سنِّي تقريبًا.

قالت المرأة المدعوَّة (لاسْكِتِي): "يبدو أننا نجلس إلى مائدة القط، إننا في المكان الأقل منزلة."

بدا جليًّا أننا وُضِعنا بعيدًا عن مائدة القبطان التي كانت في الطرف المقابل من صالة الطعام. كان أحد الصَّبيَّين الجالسيْن إلى مائدتنا يُدعى رام الدِّين، والآخر (كاسْيَس). كان الأوَّل هادئًا، وبدا الازدراء على الآخر، وقد تجاهل كلٌّ منَّا الآخر، مع أنني عرفت كاسْيَس. لقد التحقت بالمدرسة نفسها، حيث كنت أعرف عنه الكثير مع أنَّه كان يكبرني سنةً. كان سيِّئ السمعة حتى إنه طُرِد مدَّةَ فصل دراسي. لقد كنت على يقين بأنَّ وقتًا طويلًا سيمضي قبل أن نتبادل الحديث. بيْد أنَّ ما كان جيِّدًا في مائدتنا أنَّ حولها عددًا من الكبار المثيرين للاهتمام. كان هناك نباتيٌّ وخيَّاطٌ يملك متجرًا في (كاندي). كان الأكثر

إثارة بينهم عازف بيانو قال مفاخِرًا وبمرح إنه "سقط سقوطًا مدوِّيًا."

كان ذلك السيد (مازابا). في المساء يعزف مع أوركسترا الباخرة، وفي الأصيل يقدِّم دروسًا في عزف البيانو. ونتيجةً لذلك كان يعرض خَصْمًا على مقطوعاته. بعد تلك الوجبة الأولى أخذ يسلِّيني ورام الدِّين وكاشْيَس بسرد قصص عن حياته. بفضل وجودنا برفقة السيد مازابا وهو يبهجنا بكلمات مربكة وغالبًا داعرة من أغانٍ يعرفها، انتهينا نحن الثلاثة إلى أن نقبل بعضنا بعضًا.. ذلك أننا كنَّا خجِلين ومُحرَجين. لم تبدُر من أيٍّ منَّا حتى إشارة تحيَّة إلى الآخر إلى أن أخذنا مازابا تحت جناحه ونصحنا بأن نبقي عيوننا وآذاننا مفتوحة؛ لأنَّ هذه الرحلة ستكون معلِّمًا عظيمًا. ولذا مع نهاية يومنا الأول اكتشفنا أنَّنا معًا نستطيع أن نصبح فُضوليين.

كان الشخص المهم الآخر الجالس إلى مائدة القط هو السيد (نِفل)، مُفَكِّكُ سُفن متقاعد كان في طريق عودته إلى إنكلترا بعد إقامته ردْحًا من الزمن في الشرق. طالما نَشَدْنا هذا الرجل الضخم الطيب، ذلك أنه كان يتمتَّع بمعرفة مفصَّلة ببناء السفن. لقد فكَّك سُفُنًا عديدة ذائعة الصيت. وبخلاف السيد مازابا، كان السيد نِفل متواضعًا ولا يتحدَّث عن هذه المواقف في ماضيه إلا إن عرفتَ كيف تسترعي انتباهه لتخرج منه بحدث ما. لو لم يكن كثير التواضع في طريقة استجابته لوابل أسئلتنا لَمَا صدَّقناه ولَمَا افتُتِنَّا به.

كما إنَّ له معرفة كاملة بالباخرة؛ لأنه كان يُجري بحثًا في السلامة لصالح شركة خطوط الشرق. عرَّفنا إلى جماعته في غرف المحرِّك والفُرْن، وشاهدنا الأنشطة التي تجري هناك في الأسفل. مقارنةً بالدرجة الأولى عجَّت غرفة المحرِّك – عند مستوى الميل– بضجة

وحرارة لا تُطاقان. لقد وضَّحت ساعتان من التَّنزُّه في أرجاء الأُورُونسَي مع السيد نِفل كلَّ الإمكانات الخطِرة وغير الخطِرة. أخبرنا بأنَّ قوارب النجاة المترجِّحة في الهواء تبدو خطِرة ظاهريًّا وحسب، ولذا كثيرًا ما رحتُ وكاسْيَس ورام الدِّين نصعد فوقها لنتخذ موقعًا ممتازًا للتَّجسُّس على المسافرين. لقد كانت ملاحظة الآنسة لاسْكِتِي بأننا "في المكان الأقل منزلة"، بلا أهمية اجتماعية، هي ما دفعنا إلى التصديق التَّام بأننا غير مرئيين للمسؤولين مثل ضابط المحاسبة ورئيس المضيفين والقبطان.

لقد اكتشفت على نحو غير متوقَّع أنَّ قريبةً لي من نسب بعيد تُدعى (إمِلِي دو سارام)، كانت على متن الباخرة. من المؤسف أنَّه لم يُعيَّن لها الجلوس إلى مائدة القط. أعوامًا كانت إمِلِي هي طريقي إلى اكتشاف ما يعتقده الكبار عني. كنت أخبرها بمغامراتي وأصغي إلى ما تقول. كانت صادقة في ما تُحبُّ وما لا تُحبّ، ولأنها كانت أكبر مني سنًّا، فقد صُغْتُ نفسي وفق أحكامها.

لأنه لم يكن لي إخوة أو أخوات، كان أقرب الأقارب إليَّ وأنا أكبر هم الكبار. لقد كان هناك جمعٌ متنوِّع من الأعمام والأخوال العُزَّاب والعمَّات والخالات البطيئات الحركة اللاتي كانت تجمعهن النميمة والمنزلة الرفيعة. كان ثمَّة قريب ثريٌّ واحد حرص حرصًا شديدًا على البقاء بعيدًا. لم يكن يحبُّه أحد، ولكنهم كانوا جميعًا يَكُنُّون له الاحترام ويتحدَّثون عنه باستمرار. كان أفراد العائلة يحلِّلون بطاقات عيد الميلاد التي كان يرسلها كلَّ عام مدفوعًا بحسِّ الواجب، ويفحصون في الصورة وجوهَ أطفاله وهم يكبرون وحجمَ منزله في خلفيَّتها الذي بدا وكأنه تباهٍ صامت. لقد ترعرعتُ على أحكام عائلية كهذه، ولذا، أخذوا يوجِّهون احتراسي إلى أن وجدت

نفسي بعيدًا عن أنظارهم.

ولكن، دائمًا كانت هناك إمِلِي، الـ"ماتشانغ"[1] الخاصة بي التي أقامت في البيت المجاور تقريبًا مدةً من الأعوام. لقد تشابهت طفولة كلينا في أنَّ آباءنا كانوا إمَّا منفصلِين وإمَّا غير جديرين بالثقة. بيْد أنَّ حياتها المنزليَّة، كما أظن، كانت أسوأ من حياتي؛ فلم تكن معاملات أبيها التجارية مُطَمئِنةً قطُّ، وعاشت عائلتها باستمرار تحت تهديد مزاجه. كانت زوجته تركع تحت إمرته. عرفتُ من الأنباء القليلة التي روتها لي إمِلِي أنه كان قاسيًا. حتى الزائرون الكبار لم يشعروا بالأمان قطُّ عند وجوده. الأطفال الذين يزورون المنزل وقتًا قصيرًا لحضور حفلة عيد ميلاد كانوا الوحيدين الذين يجدون متعة في تقلُّب سلوكه. كان يأتي ويروي لنا شيئًا مضحكًا ثم يدفعنا إلى حوض السباحة. كانت إمِلِي ترتبك عند وجوده، حتى عندما يمسك بها من كتفيها في عناقٍ مُحبّ ثم يجعلها ترقص معه وقدماها الحافيتان تتمايلان فوق حذائه.

معظم الوقت كان أبوها بعيدًا في عمله، أو أنه كان يختفي وحسب. لم تكن ثمَّة خارطة آمِنة تعوّل إمِلِي عليها، ولذا أحسب أنها اخترعت لها واحدة بنفسها. كانت لها روح حُرَّة، وجموح أحبيتُه، مع أنَّها جازفت بنفسها في مغامرات عدَّة. لحسن الحظ، في نهاية المطاف، دفعت جدتُّها المال لكي تلتحق بمدرسة داخلية في جنوب الهند، وهكذا كانت بعيدة عن حضور والدها. لقد افتقدتُها. وعندما كانت تعود في العُطَل الصيفية لم أكن أراها كثيرًا لأنها حصلت على عمل صيفي مؤقَّت في شركة (سيلان تلفون). كانت سيارة الشركة تقلُّها كلَّ صباح،

1 machang في اللغة السِّنهالية الدارجة تُطلق تحبُّبًا على الصديق المقرَّب أو الأليف أو المعاون.

وكان رئيسها السيد (وِجباهو) يوصلها في نهاية اليوم. وقد أسرَّت إليَّ بأنَّه معروف عن السيد وِجباهو أنَّ له ثلاثَ خُصًى.

كان ما يجمعنا نحن الاثنين أكثر من أي شيء آخر، هو أسطوانات التسجيل الخاصة بإمِلِي، وتلك الحيوات والرغبات المنظومة والمركَّزة كلُّها في دقيقتين أو ثلاث دقائق من أغنية ما. أبطال المناجم، الفتيات المسلولات اللاتي يُقمن في مكاتب المُرتَهِنين، المنقِّبون عن الذهب، لاعبو الكريكت ذائعو الصِّيت، وحتى حقيقة أنه لم يعُد لديهم مزيد من أشجار الموز. كانت ترى أنني حالم بعض الشيء، وعلَّمتني الرَّقص، وإمساكَ خصرها وذراعاها المرفوعتان تتمايلان، والقفزَ على الأريكة وفوقها حتى تميل وتسقط للوراء من ثقلنا. ثم تذهب بغتةً إلى المدرسة، بعيدًا إلى الهند مجدَّدًا، لا يصل منها شيء إلا بضع رسائل إلى أمِّها متوسِّلةً فيها أن يُرسَل إليها مزيد من الكعك عبر القنصلية البلجيكية، رسائل يصرُّ والدها على قراءتها بصوتٍ عالٍ وبفخر أمام سائر جيرانه.

في الوقت الذي وصلت فيه إمِلِي إلى متن الأُورُونسَي لم أكن قد رأيتها في الواقع منذ عامين. كانت صدمةً أن أراها الآن أكثر اختلافًا، بوجه أكثر نحولًا، وأن أرى جمالًا لم أدركه من قبل. إنها الآن في السابعة عشرة، وأخالُ أنَّ المدرسة قد أخمدت شيئًا من جموحها بالرَّغم من بروز شِدْقٍ طفيف كلَّما تحدَّثتْ كنت أحبُّه. لقد كانت حقيقة أن تمسك كتفي وأنا أعدو مارًّا بها على سطح التَّنزُّه وتجعلني أتحدَّث إليها، تمنحني بعض الشأن بين صديقيَّ الجديدين في الباخرة. بيْد أنها كانت في معظم الوقت تجعل الأمر واضحًا بأنها لا تودُّ أن أتبعها هنا وهناك. لقد كانت لديها خططها الخاصة للرحلة...

بضعة أسابيع أخيرة من الحرِّيَّة قبل أن تبلغ إنكلترا لتكمل آخر سنتين في المدرسة.

سريعًا نَمَت الصداقة بيني وبين رام الدِّين الهادئ وكاسْيَس المفعم بالحيوية، مع أننا حرصنا على أن نتجنَّب بعضنا بعضًا. على الأقل كان هذا صحيحًا من جانبي. ما كانت تحمله يُمناي لم تعرفه يُسراي قطُّ. لقد كنت مُدرَّبًا على الاحتراس. في المدارس الداخلية التي التحقنا بها، خلق الخوفُ من العقاب مهارةً في الكذب، وتعلَّمت أن أكتم حقائق صغيرة ذات صلة. لقد تبيَّن أنَّ العقاب لم يدرِّب بعضنا على الصدق التام قطُّ أو يُكرِهنا عليه. لقد كنَّا نُضرَب باستمرار بسبب تقارير مدرسية بائسة أولِما نأتيه من أفعال سيئة (كالاسترخاء في المصحة ثلاثة أيام مدَّعين الإصابة بالنُّكاف، أو تلطيخ أحد أحواض السباحة في المدرسة تلطيخًا دائمًا بإذابة حُبيبات الحبر في الماء لصنع حبر للمدرسة العليا). كان جلَّادَنا الأسوأ مديرُ المدرسة الدنيا الأب (بارنابُس) الذي ما زال يتعقَّب ذاكرتي بسلاحه الذي اختاره، وكان عصا خيزران طويلة تتكسَّر. لم يكن يستخدم الكلمات أو العقل قطُّ. كان يتحرَّك على نحوٍ خطِر بيننا وحسب.

ولكن، على متن الأُورُونسَي كانت هناك فرصة التَّهرُّب من الأوامر كلِّها. وقد أعدت اختراع نفسي في هذا العالم الذي بدا خياليًّا بمن فيه من مفكِّكي سفن وخياطين ومسافرين كبار يترنَّحون في الحفلات المسائية برؤوس حيوانات ضخمة، وبعض نساء يرقصن وبالكاد تغطي أجسادهن ثياب، في حين يعزف أفراد أوركسترا الباخرة ومعهم السيد مازابا وهم يقفون على المنصَّة وجميعهم يرتدي ثيابًا من اللون الخوخي نفسه.

في وقت متأخِّر من الليل، بعد أن غادر مائدةَ القبطان مسافرو الدرجة الأولى المدعوون على نحوٍ خاص، وبعد أن انتهى الرقص عند الأزواج وأُزيلت أقنعتهم وكان بعضهم بالكاد يتحرَّك بين أذرع بعضهم الآخر. وبعد أن أخذ المضيفون الأقداح ومنافض السجائر المتروكة وراحوا يتكئون على المكانس العريضة ذات الأقدام الأربع لكنس دُوَّامِ الورق الملوَّن، أُخرِج السجين.

عادةً، كان ذلك يحدث قبل منتصف الليل. لمع سطح الباخرة بسبب القمر الصافي. لقد ظهر مع الحارسيْن، أحدهما مقيَّدٌ إليه، والآخر يسير خلفه حاملًا هِراوة. لم نكن نعلم ما كانت جنايته. افترضنا أنها لن تكون إلا جناية قتل. أمَّا فكرةُ أيِّ شيءٍ آخر أكثر تعقيدًا، كجريمة ناشئة عن عاطفة أو خيانة سياسية، فلم تكن لِتَرِد في أذهاننا حينها. بدا قويًا رابط الجأش، وكان حافي القدمين.

اكتشف كاسْيَس جدول الوقت المتأخِّر من الليل هذا لتمشية السجين، وهكذا، غالبًا ما كان ثلاثتنا هناك في تلك الساعة. يستطيع، فكَّرنا بيننا وبين أنفسنا، أن يقفز فوق الدَّرابزين مع الحارس المقيَّد

إليه نحو البحر المظلم. تخيَّلناه يجري ويقفز بهذه الطريقة صوب حتفه. أحسب أننا فكَّرنا في ذلك لأننا كنَّا صغارًا، ذلك أنَّ مجرَّد فكرة القيد، وكون المرء مكبوحًا، كانت أشبه بالاختناق. في عمرنا ذاك لم نكن لِنطيق فكرة ذلك. لقد كنَّا بالكاد نحتمل وضع أخفافنا عندما نذهب لتناول الوجبات، وكلَّ ليلة ونحن نتناول الطعام على مائدتنا في صالة الطعام كنَّا نتخيَّل السجين يأكل فتاتًا في طبق معدني، حافيًا في زنزانته.

طُلِب إليَّ أن أرتدي ثيابًا ملائمة قبل الدخول إلى ردهة الدرجة الأولى المفروشة بالسَّجَّاد لأزور فلافيا برِنْز. مع أنها قطعت وعدًا بالاعتناء بي في أثناء الرحلة، لم يرَ أحدُنا الآخرَ في الواقع إلا مرَّات قليلة. والآن دعتني إلى مشاركتها في تناول شاي الأصيل، وقد اقترحت في ملحوظتها أن أرتدي قميصًا نظيفًا ومكويًّا، وكذلك جوربين مع حذائي. اتجهت إلى حانة الشُّرفة في تمام الرابعة مساءً.

أخذت تُنعِم النظر إليَّ وكأنني في الطرف القصيِّ من تِلِسْكوب، غير مُدركة أبدًا أنني أستطيع قراءة تعبيرات وجهها. كانت تجلس إلى مائدة صغيرة. وتبع ذلك محاولةُ حوارٍ شاقَّةٌ من جانبها، ولم تسعفها مقاطعي الأحادية المتوتِّرة. هل أجد متعةً في الرحلة؟ هل اتَّخذت صديقًا؟

اتَّخذت اثنين، قلتُ. صبي اسمه كاسْيَس والآخر رام الدِّين.

"رام الدِّين... هل ذاك هو الصبي المسلم من عائلة لاعبي الكريكت؟"

قلت إنني لا أعلم ولكنني سأسأله. رام الدِّين الذي أعرف لا يتمتَّع بأيَّة براعة بدنيَّة أيًّا كانت. كان مشغوفًا بالحلوى والحليب

المركَّز. وأنَّا أفكِّر في ذلك دسستُ في جيبي بضع قطع بسكويت عندما كانت السيدة برِنْز تحاول لفت نظر النادل.

قالت: "التقيتُ أباك عندما كان شابًّا صغيرًا..."، ثم أمسكت عن الكلام. أومأتُ، ولكنَّها لم تقُل المزيد عنه.

"يا خالة..." بدأتُ وقد شعرت بالاطمئنان الآن إلى كيفية مخاطبتها. "أتعلمين عن السجين؟"

لقد تبيَّن أنها كانت على قدر حماستي في الابتعاد عن الأحاديث التافهة، فاستكانت إلى حديث أطول بعض الشي مما توقَّعَت. تمتمتْ: "خذ مزيدًا من الشاي"، وأخذتُ المزيد، مع أنني لم أستسِغ مذاقه. لقد أسرَّت إليَّ بأنها سمعت عن السجين، مع أنَّ ذلك كان يجب أن يبقى سرًّا. "إنه تحت حراسة مشدَّدة. ولكن يجب أن لا تقلق. هناك أيضًا ضابط بريطاني كبير في الجيش على متن الباخرة."

لم يسعني الانتظار فمِلت إلى الأمام. قلتُ بلهجة المنتصر: "لقد رأيته يسير في وقت متأخِّر من الليل. تحت حراسة مشدَّدة."

قالت متشدِّقةً وقد أربكتها النقطة التي أحرزتُها بضربة واحدة بكلِّ سرعة ويسر: "حقًّا..."

قلت: "يقولون أنَّه فعل شيئًا فظيعًا."

"أجل. يُقال أنَّه قتل قاضيًا."

كانت تلك أكثر من ضربة. لقد جلست هناك فاغر الفم.

أضافت قائلة: "قاض إنكليزي. لعلَّه ينبغي أن لا أقول أكثر من ذلك."

خالي الذي كان وصيًّا عليَّ في كولومبو كان قاضيًا، مع أنه كان سيلانيًّا وليس إنكليزيًّا. لا يُسمَح للقاضي الإنكليزي بأن يرأس جلسة

في الجزيرة، لذلك لا بدَّ أنه كان زائرًا أو لعلَّه أُحضِر بصفته مستشارًا أو ناصحًا... أخبرتني فلافيا برِنْز بعضًا من هذا، وبعضه جمعتُه في ما بعد بمساعدة رام الدِّين الذي كان يتمتَّع بعقل هادئ ومنطقي.

قتل السجينُ القاضي ليمنعه من المساعدة على مقاضاته، ربَّما. وددتُّ لو أتحدَّث إلى خالي في كولومبو في تلك الدقيقة تحديدًا. لقد أحسست في الواقع بالقلق من أنَّ حياته قد تكون في خطر. "يُقال أنه قتل قاضيًا!" لقد اصطخبت العبارة في عقلي.

كان خالي رجلًا ضخمًا ودودًا. أقمتُ معه وزوجته في (بُورالِزْغامُوا) منذ أن غادرت أمي إلى إنكلترا منذ بضع سنين، ومع أننا لم نكن نتبادل قطُّ حديثًا طويلاً أو حتى حميمًا قصيرًا، ومع أنَّه كان مشغولًا دومًا بدوره كشخصية عامة، كان رجلًا مُحبًّا وكنت أشعر معه بالأمان. عندما كان يأتي إلى البيت ويسكب لنفسه شراب الجِنّ يجعلني أمزج البيرة في كأسه. وقعت في ورطة معه مرَّةً واحدة فقط. كان يرأس محاكمة جريمة قتل حسَّاسة تورَّط فيها لاعب كريكت، وأعلنتُ أمام أصدقائي أنَّ الرجل المشتبه به الذي كان في قفص الاتهام بريء، وحين سُئِلت كيف عرفت قلتُ أنَّ خالي قال ذلك. لم يكن ما قلتُ كذِبًا بقدر ما كان دعمًا لإيماني ببطل الكريكت ذاك. عندما سمع خالي ذلك ضحك عفوًا وحسب، ولكنَّه أشار بصرامة إلى أن لا أفعل ذلك مرَّةً أخرى.

بعد عشر دقائق من عودتي إلى صديقيَّ في السطح (د)، أخذت أُبهج كاسْيَس ورام الدِّين بقصة جريمة السجين. تحدَّثت عنها في حوض سباحة (لِيدو)، وتحدَّثت عنها عند لعبة كرة الطاولة. ولكن لاحقًا في ذلك الأصيل، حينما سمعت الآنسةُ لاسْكِتي لغطَ حكايتي

حاصرتني وجعلتني أقل تيقُّنًا من نسخة فلافيا برِنْز عن جريمة السجين. قالت: "لعلَّه فعل ولعلَّه لم يفعل شيئًا كهذا، لا تصدِّق أبدًا ما قد يكون إشاعة وحسب." هكذا جعلتني أعتقد أنَّ فلافيا برِنْز قد هوَّلت جريمته ورفعت سقف توقُّعي لأنني رأيت السجين في الواقع، ولذا اختارت جريمة تطابق ذلك؛ قتلَ قاضٍ. كان يمكن أن يكون صيدليًّا لو كان خالي صيدليًّا.

ذلك المساء كتبتُ أوَّل تدوين في دفتر الامتحان المدرسي خاصتي. اندلعت بعض الفوضى في صالة دليلة حينما هاجم مسافرٌ زوجتَه في أثناء لعب الورق. ذهب التَّهكُّم مذهبًا بعيدًا في اللعب بالأوراق التي عليها صورة القلب. كانت هناك محاولة خنق ثم خُرِقت أذنها بشوكة طعام. لقد تمكَّنتُ من تعقُّب ضابط المحاسبة وهو يقود الزوجة في الرُّواق الضَّيِّق صوب المشفى، ولإيقاف النَّزف كان قد وُضِع على أذنها منديل طعام، في حين اندفع الزوج إلى مقصورته.

بالرَّغم من حظر التجوال الناتج عن ذلك، تسلَّلت ورام الدِّين وكاسْيَس من مقصوراتنا تلك الليلة ومشينا على السُّلَّم المتزعزع نصف المُضاء وانتظرنا ظهور السجين. كان الوقت منتصف الليل تقريبًا وكان ثلاثتنا يدخِّن غُصينات كسرناها من كرسي خيزران وأشعلناها ورحنا نتنشَّقها. بسبب الرَّبو لم يكن رام الدِّين متحمِّسًا لذلك، بيْد أنَّ كاسْيَس كان يتوق إلى أن نجرِّب تدخين الكرسي كلِّه قبل نهاية الرحلة. بعد ساعة بات جليًّا أنَّ نزهة السجين الليلية قد أُلغِيت. كان الظلام يلفُّنا من كل صوب، ولكننا كنَّا نعرف كيف نجد طريقنا فيه. انزلقنا بهدوء إلى حوض

السباحة، أعدنا إشعال غُصيناتنا، وطفونا على ظهورنا. صامتين كجثث كنَّا ننظر إلى النجوم. شعرنا بأننا نسبح في البحر وليس في حوض ضخم وسط المحيط.

أخبرني المضيف بأنَّ لي رفيقًا في المقصورة، ولكن لم يصل أحد حتى الآن ليَشْغَلَ السرير الآخر. ثمَّ في الليلة الثالثة عندما كنَّا ما نزال في المحيط الهندي توهَّجت أضواء المقصورة بغتةً، وإذ برجل يقدِّم نفسه بوصفه السيد (هَيْستِي) يدخل وتحت ذراعه منضدة لعب ورق مطويَّة. أيقظني ورفعني إلى السرير العلوي. قال: "بضعة أصدقاء سيأتون للعب، اخلد إلى النوم وحسب." انتظرت لأرى من القادم. في غضون نصف ساعة كان هناك أربعة رجال يلعبون لعبة "البْريدْج" بهدوء وجِدّ. كان هناك بالكاد مكان يسعهم للجلوس حول المنضدة. كانوا يخفضون أصواتهم بسببي، وسرعان ما نمتُ على همْس مُزايدتهم.

في صباح اليوم التالي وجدت نفسي وحيدًا مرَّةً أخرى. كانت منضدة لعب الورق مطويَّةً ومُسنَدةً إلى الحائط. هل نام هَيْستِي؟ هل كان مسافرًا الرحلة كلَّها أم أنَّه أحد أفراد الطاقم؟ لقد تبيَّن أنه كان مسؤولًا عن أَوْجِرة الكلاب على ظهر الأُورُونسَي، ولا بدَّ أنَّه لم يكن بالعمل الشَّاقِّ، فقد كان يقضي جُلَّ وقته في القراءة أو في تدريب الكلاب بلا حماسة في قسم صغير من سطح الباخرة. ولذلك كانت

لديه طاقة يحرقها في نهاية اليوم. ولهذا ينضم إليه أصدقاؤه بعد منتصف الليل بوقت قصير. أحدهم، كان السيد (إنفيرنْيو)، مساعده في أَوْجِرة الكلاب. أمَّا الآخران فكانا يعملان في الباخرة مُشغِّلَيْن لاسلكيَّيْن. كانوا يلعبون بضع ساعات كلَّ ليلة ثم يغادرون بهدوء.

قلَّما كنت وحدي مع السيد هَيْستِي. عندما يعود في منتصف الليل لا بدَّ أنه كان يشعر بأنني آخذ قسطًا من الراحة، ولذا نادرًا ما كان يحاول التَّحدُّث إليَّ، وتبقى دقائق معدودة وحسب قبل أن يصل الآخرون. في مرحلة ما من أسفاره في الشرق، اكتسب عادة ارتداء "السَّارُنْغ[2]"، وكان في معظم الأوقات يرتدي ذلك وحسب حول خصره، حتى عندما يأتي أصدقاؤه. كان يُخرِج أربعة أقداح خمر، وبعض العَرَق. كانت القنِّينة والأقداح تُوضع على الأرض، وتُصفَّى المنضدة من كل شيء عدا ورق اللعب. كنت أنظر إلى الأسفل من ارتفاعي المتواضع فوق السرير العلوي وأرى أوراق لعبة البْريدْج المبسوطة. كنت أراقب المعاملات وأصغي إلى خلط الورق والمزايدة. مرِّر... واحد بستوني... مرِّر... اثنان سباتي... مرِّر... ورقتان غير رابحتين... مرِّر... ثلاثة دنانير... مرِّر... ثلاثة بستوني... مرِّر... أربعة دنانير... مرِّر... خمسة دنانير... مرِّر... الضِّعف... ضِعف الضِّعف... مرِّر... مرِّر... مرِّر... قلَّما كانوا يتبادلون الحديث. أتذكَّر أنهم اعتادوا أن ينادوا بعضهم بعضًا. بألقابهم – (السيد تولْرُوي)، (السيد إنفيرنيو)، (السيد هَيْستِي)، (السيد بابْستوك) – وكأنهم ضبَّاط بحريُّون في أكاديميةٍ بحريَّة من القرن التاسع عشر.

في ما بعد في أثناء الرحلة عندما أكون مع أصدقائي وأصادف

(2) رداء لكلا الجنسين في أرخبيل الملايو وبعض جزر المحيط الهادي.

السيد هَيْستِي، كان يسلك مسلكًا مختلفًا تمامًا. خارج مقصورتنا كان عنيدًا ومتحدِّثًا دائمًا. روى لنا تقلُّبَ حياته في التجارة البحرية، ومغامراته مع زوجة سابقة كانت فارسة خيل عظيمة، وتعلُّقَه القوي بكلاب الصيد أكثر من أيَّة سلالة كلاب أخرى. بيْد أنَّ السيد هَيْستِي في مقصورتنا نصف المضاءة كان شخصًا هامسًا؛ وقد قام بكِياسة، بعد الليلة الثالثة للعب الورق، بتبديل مصباح المقصورة الأصفر الساطع إلى آخر أزرق خافت. وإذن وأنا ألِج مملكة النوم نصف نائم، يُصَبُّ الشراب، وتُكسَب الجولات، ويُبدِّل المالُ اللاعبين، فيجعل الضوءُ الأزرق الرجالَ يبدون وكأنهم داخل حوض سمك. عندما ينتهون من لعبتهم، يخرج أربعتهم إلى ظهر الباخرة للتدخين، ويعود السيد هَيْستِي إلى المقصورة بصمت بعد نصف ساعة ليقرأ حينًا من الوقت قبل أن يطفئ مصباح سريره.

النَّومُ سجنٌ لفتى له أصدقاءٌ يودُّ لقاءهم. لقد كنَّا نافدي الصبر مع الليل، نصحو قبل أن يحيط شروق الشمس بالباخرة. لم يكن يسعنا الانتظار حتى نواصل اكتشاف الكون. كنت أستلقي على سريري وأسمع طرق رام الدِّين برفق على الباب مستخدمًا شفرة. شفرة بلا معنى، حقًّا، فَمَن غيرُه يأتي في تلك الساعة؟ نقرتان، توقُّف طويل، نقرة أخرى. إن لم أهبط وأفتح الباب سأسمع سعالَه المصطنع. وإن لم أُجِب سأسمعه يهمس: (مائِنا) الذي أصبح لقبي.

كنَّا نلتقي كاشيَس عند السلَّم وسرعان ما نمضي للتَّجوال حُفاةً على سطح الدرجة الأولى. كانت الدرجة الأولى قصرًا بلا حراسة في السادسة صباحًا، وكنَّا نصل حتى قبل أن يظهر فتيل النور في الأفق، حتى قبل أن تومض مصابيح الليل الأساسية على ظهر الباخرة لتنطفئ تلقائيًّا مع بزوغ الفجر. كنَّا نخلع قمصاننا ونغطس مثل إبَرٍ في حوض سباحة الدرجة الأولى الملوَّن بالذهبي ولا نكاد نثير رشًّا. كان الصمت ضروريًا ونحن نسبح في نصف الضوء المتشكِّل حديثًا.

إن تمكَّنا من البقاء ساعة دون أن يكتشفنا أحد سنحت لنا فرصةُ نَهب الإفطار الموضوع على السَّطح المُشمِس، نُكَوِّم الطعام على

صحون، ثمَّ نفرُّ ومعنا الوعاء الفضي المملوء بالحليب المركَّز، وقد انتصبت ملعقته في وسط كثافته. ثمَّ نصعد إلى أحد قوارب النجاة المرفوعة في جوٍّ يشبه جوَّ خيمة ونلتهم الوجبة التي جلبناها بطريقة غير مشروعة. ذات صباح جلب كاسْيَس سيجارة من ورق الذهب وجدها في إحدى القاعات وعلَّمَنا كيف ندخِّن بطريقة صحيحة.

رفض رام الدِّين بتهذيب، بسبب الرَّبو الذي يعانيه والذي كان جليًّا لنا ولمتناولي الطعام الآخرين في مائدة القط. (كما سيستمر في التَّجلِّي عندما سأراه في ما بعد، بعد سنوات في لندن. كنَّا في الثالثة عشرة أو الرابعة عشرة إذ ذاك، عندما التقينا بعد غياب بعضنا عن بعض. في انشغالنا بالتَّكيُّف مع البلاد الأجنبية. حتى عندما كنت أراه مع والديْه وشقيقته معصومة، كان يلتقط باستمرار كلَّ سعال أو رشْح في الجوار. بدأنا صداقةً ثانية في إنكلترا، بيْد أننا كنَّا مختلفيْن حينها، حيث لم نعُد متحرِّريْن من حقائق الحياة. وبطريقة ما في ذلك الحين كنت قريبًا من أخته، ذلك أنَّ (ماسي) دائمًا ما كانت ترافقنا في رحلاتنا عبر جنوب لندن؛ في طريق الدراجات في (هِرْن هِل)، وفي (بريكستن ريتزي)، ثم في (بون مارشيه) ونحن نعدو في أروقة بيع الأطعمة والملابس، حيث نكون منفعلين بشدَّة لسبب أو لآخر. كنت في بعض الأصائل أجلس وماسي على الأريكة الصغيرة في منزل والديهما في (مِل هِل)، فتنسلّ يدا أحدنا إلى الآخر. تحت الدِّثار متظاهريْن بمشاهدة تغطية لعبة الغولف اللانهائية على التلفاز. في وقت مبكِّر ذات صباح جاءت إلى الغرفة في الطابق العلوي حيث كنت ورام الدِّين نائميْن وجلست قربي وأصبعها على شفتيها لإسكاتي. كان رام الدِّين نائمًا على سريره الذي يبعد أقدامًا قليلة. هممتُ بالجلوس، ولكنها

دفعتني إلى الخلف بكفٍّ مفتوحة، ثم فكَّت أزرار منامتها حتى أرى نهديها الحديثيْن، اللذين بدوا بلون أخضر شاحب تقريبًا في انعكاس ظلال الأشجار خارج النافذة. في الوقت الذي تلا سمعتُ سعالَ رام الدِّين، والصرير المنبعث وهو يتنحنح في نومه، في حين وقفت ماسي نصفَ عارية، خائفةً، جسورةً، أيًّما كانت المشاعر التي توحي بها إشارة كهذه حينما يكون المرء في الثالثة عشرة.)

في قارب النجاة تركنا الآنية الفَخَّاريَّة والسكاكين والملاعق التي أتت مع الوجبة التي سرقناها وتسلَّلنا عائدين إلى الأسفل إلى الدرجة السياحية. سيكتشف أحد المضيفين في نهاية المطاف آثار وجبات إفطارنا الوافرة في أثناء تدريب السلامة في ما بعد حينما تُدار قوارب النجاة وتُرجَّح فوق الماء، فيبحث القبطان حينًا من الوقت عن مسافر متخفٍّ على متن الباخرة.

لم تكن الساعة قد بلغت حتَّى الثامنة عندما عبرنا الحدود من الدرجة الأولى عائدين إلى الدرجة السياحية. تظاهرنا بالتَّرنُّح من تمايل الباخرة. وقد غدوتُ إذ ذاك أحبُّ رقصة الفالْس البطيئة التي تأتيها باخرتنا من جانب إلى آخر. وكانت حقيقة أنني وحدي، إلَّا من القريبتين البعيدتين فلافيا برِنْز وإمِلِي، بنفسها مغامرة. لم تكن لديَّ مسؤوليات عائلية. كان يمكنني الذهاب إلى أيِّ مكان وفعل أيِّ شيء. وقد وضعتُ ورام الدِّين وكاسْيَس قاعدة واحدة. كلَّ يوم كان علينا أن نفعل شيئًا واحدًا على الأقل ممنوعًا. كان اليوم بالكاد قد بدأ، وكانت لا تزال أمامنا ساعات لأداء هذا العمل.

عندما هجر والداي زواجَهما لم يعلنا ذلك أو يشرحاه قطُّ، بيْد أنه لم يكن مَخفيًّا أيضًا. إن كان ثمَّة من شيء قد فعلاه فهو أنهما عرضاه بصفته خطوةً خاطئة وليس حادث سيارة. ولذا لستُ على يقين إلى أي حدٍّ أصابتني لعنة طلاق والديَّ. لا أتذكَّر ثقلَه. فتى يخرج من الباب في الصباح ويواصل انشغاله بخارطة عالمه المتطوِّرة. بيْد أنها كانت مرحلة صِبا متزعزعة.

عندما كنت تلميذًا داخليًّا في مدرسة القدِّيس تومَس في (ماونت لافينيا) أحببتُ السباحة. أحببتُ كلَّ شيء له علاقة بالماء. كان هناك في ساحة المدرسة قناة أسمنتية تتجمَّع فيها مياه الفيضان خلال الأمطار الموسمية. وقد أصبحت موقعًا للعب شارك فيه بعض التلاميذ الداخليين. كنَّا نقفز في القناة فيدفعنا التَّيَّار إلى الأمام، نتقلَّب ونندفع من جانب إلى آخر. على بعد خمسين ياردة كان هناك حبل رمادي نمسك به لنسحب أجسادنا خارجًا. وبعد عشرين ياردة من هناك تغدو القناة المصطخبة بالمياه مجرى يختفي تحت الأرض ويذهب في الظلام. أين يذهب؟ لم نعرف قطُّ.

قد يكون هناك أربعة منَّا يقفزون مرارًا وتكرارًا في مياه القناة، واحدٌ كلَّ مرة، رؤوسنا بالكاد تظهر على السطح. كانت لعبة مثيرة للتَّوتُّر، نمسك الحبل، نصعد خارجًا، ثم نعدو عائدين تحت المطر الغزير لنعيد الكَرَّة. في أثناء إحدى المحاولات غطس رأسي وأنا أدنو من الحبل ولم أصل في الوقت المناسب لأمسك به. كانت يدي في الهواء، وكان ذلك كلُّ شيء وأنا أسرع صوب المجرى النهائي المدفون. كان ذلك حتفي المُقرَّر، في ذلك الأصيل في ماونت لافينيا، خلال الأمطار الموسومية في آذار كما تنبَّأ عرَّافٌ ذات مرَّة. كنت في التاسعة وبدا الأمر مثل رحلة خفيَّة في الظلام تحت الأرض. يدُ تلميذ أكبر سنًّا أمسكت بذراعي التي كانت ما تزال مرفوعة وسحبتني خارجًا. قال لأربعتنا بلامبالاة أن ننصرف ثم أسرع مبتعدًا تحت المطر، غير آبِهٍ بمعرفة إن كنَّا سنطيعه. من كان؟ شكرًا لك، كان ينبغي أن أقول. بيْد أنني استلقيتُ هناك لاهثًا ومُبْتلًّا فوق العشب.

ماذا كنتُ في تلك الأيام؟ لا أتذكَّر أيَّة بصمة خارجية، ومن ثمَّ لا أتذكَّر أيَّ إدراك بذاتي. لو قُدِّر لي أن أخترع صورة من الطفولة لنفسي ستكون عن فتًى حافي القدمين يرتدي سروالًا قصيرًا وقميصًا قطنيًّا، مع حفنة من الأصدقاء في القرية، يعدون بمحاذاة الجدار المليء بالعَفَن الفطري الذي كان يفصل البيت والحديقة في بُورالِزْغامُوا عن حركة المرور على الطريق السريع. أو ستكون صورة لي وحدي وأنا أنتظرهم وأشيح بنظري بعيدًا عن البيت إلى الشارع المُغبَرّ.

من يدرك كم هم الأطفال الضَّالُّون قانعون؟ كانت قبضة العائلة تتراخى ما إن أكون خارج المنزل. مع أنَّه لا بدَّ أننا حاولنا بيننا وبين أنفسنا أن نفهم عالم الكبار ونجمع أجزاءه، متعجِّبين مما كان

يحدث هناك ولماذا يحدث. بيْد أننا فور صعودنا المِعْبَر إلى الأُورُونسَي كنَّا أوَّل مرَّة بحكم الضرورة على مقربة من الكبار.

مازابا

ينسلّ السيد مازابا إلى جانبي وأنا أشرح لمسافر عجوز فنَّ فتح مقعد مطويٍّ من مقاعد الباخرة بحركتين اثنتين فقط، ويشبِّك ذراعه بذراعي ويجعلني أمشي معه. ينبّهني قائلًا: "من ناتشِز إلى مُوبِيل، من مَمفِس إلى سينت جو..."[3] ويتوقَّف أمام ارتباكي.

دائمًا ما كان ظهور السيد مازابا المباغت يأخذني على حين غِرَّة. وأنا أنتهي من جولة سباحة يمسك بذراعي الزَّلِقة ويثبِّتني جانبًا وهو جاثم هناك: "اسمع، يا بُنيَّ الغريب الأطوار، "النساء يلهجن بمعسول الكلام ويمنحنك تلك النظرة النافذة..."[4] إنني أحميك بما أعرف." بيْد أنني كفتى في الحادية عشرة لا أشعر بالحماية، أشعر أنني مجروح سلفًا بالممكن. الأسوأ، بل والمُروِّع، حين يحدِّثنا نحن الثلاثة. "عندما عدتُّ من رحلتي الأخيرة وجدت بغلًا جديدًا يرفس في إسطبلي... أتعلمون ما أقصد؟" لا نعلم. إلى أن شُرِح لنا الأمر. ولكنَّه كان معظم الوقت يتحدَّث إليَّ فقط وكأنني أنا الغريب الأطوار الذي يمكن أن يُربَط بتصوُّر ما. في هذا الشأن، قد يكون محقًّا.

---

(3) من أغاني البوب الأمريكية في حقبة الخمسينيات.

(4) من الأغنية السابقة.

كان ماكس مازابا يصحو ظهرًا ويتناول إفطارًا متأخِّرًا في حانة دليلة. "أعطِني كؤوسًا من نبيذ الفراعنة، وصودا (ناش). هلَّا فعلت؟" يقول وهو يمضغ بضع كرزات منتظرًا أن يقوم أحدهم على خدمته. بعد الوجبة يحمل فنجان قهوة (جاڤا) إلى صالة البيانو ويضعه على ورقة النوتة الموسيقية.

وهناك يجلس لامسًا أوتار البيانو برفق ويُشرع بتعريف أيِّ كان الشخص الذي معه بتفاصيل العالم المهمَّة والمعقَّدة وتثقيفه بشأنها. قد يحدِّثه يومًا عن متى تُرتدى قبعة، وفي يومٍ آخر عن تهجئة. "إنها لغة مستحيلة، الإنكليزية. مستحيلة! (Egypt) مثلًا. تلك مشكلة. سأريك كيف تتهجَّاها تهجئة صحيحة كلَّ مرَّة. فقط كرِّر لنفسك عبارة (Ever Grasping Your Precious Tits)"، وفعلًا، لم أنسَ العبارة قطُّ. حتى وأنا أكتب هذا الآن، ثمَّة تردُّد لا أكاد أحسُّ به وأنا أتهجَّى الحروف الكبيرة في عقلي.

بيْد أنه في معظم الوقت كان يُخرِج معارفه الموسيقية، شارحًا التعقيد في بُعْد الثلاثة أرباع[5]، أو مستعيدًا أغنيةً تعلَّمها من فتاةٍ سوبرانو فاتنة وراء السِّتار. وهكذا كنَّا نطالع ضربًا من سيرة محمومة. "ركبتُ قطارًا وفكَّرتُ فيك[6]،" قال بنبرة شاكية، واعتقدنا أننا نستمع إلى قلبه الضائع الحزين. مع أنني بتُّ أدرك اليوم أنَّ ماكس مازابا كان يحبُّ دقائق البِنية واللَّحن، ذلك أنَّه لم تكن جميع مراحل صَلْبِه[7] ذات علاقة بإخفاقه في الحُبّ.

---

(5) البُعد الفاصل بين نغمة وأخرى في السُّلَّم الموسيقي.

(6) مقطع من أغنية.

(7) مراحل الصَّلب: سلسلة من 14 صورة تُعلَّق على جدار الكنيسة وتمثِّل مراحل صَلْب المسيح.

كان نصفه صِقِلّيًا ونصفه الآخر شيئًا آخر، كما أخبرنا بلكنته التي يتعذَّر اقتفاء أثرها. عمل في أوروبا، سافر في رحلة قصيرة إلى الأمريكتين وما وراءهما إلى أن ألفى نفسه في المناطق الاستوائية، مقيمًا في الطابق العلوي من حانة على ميناء. علَّمنا لازمة أغنية "هونغ كونغ بلُوز." كان يعرف من الأغاني الكثير وخلُص في تجاربه إلى أنَّ الواقع والخيال يمتزجان كثيرًا إلى حدٍّ أننا لا نستطيع تمييز أحدهما عن الآخر. كان من اليسير خداع ثلاثتنا، نحن الذين كنَّا أشبه بالعُراة من فرط البراءة. فضلًا عن ذلك، كانت هناك كلمات أغان مجهولة لنا أخذ السيد مازابا يدندنها على أنغام مفاتيح البيانو ذات أصيل، وأشعة شمس المحيط تفيض على أرض صالة الرَّقص.

"عاهرة. رحم."

كان يتحدَّث إلى ثلاثة فتية على حافَّة البلوغ، ولعلَّه كان يدرك ما يحدثه من أثر. بيْد أنه نقل أيضًا إلى هذا الجمهور الصغير قصصًا عن إجلال الموسيقى، وكان أكثر شخص احتفى به هو (سِدني بيشَيْه)[8] الذي اتُّهِم بعزف لحنٍ خاطئ عندما كان يقدِّم مجموعة من العروض الموسيقية في باريس، وردًّا على ذلك تحدَّى بيشَيْه المتَّهِمَ بمبارزة، وفي المشاجرة التي أعقبت ذلك أطلق النار على عابرة سبيل، فأُلقي به في السجن ثم رُحِّل. قال مازابا: "بيشَيْه العظيم[9] – باش – يُسمُّونه. أنتم أيُّها الفتية ستعيشون حياة مديدة، مديدة، قبل أن تشهدوا دفاعًا كهذا عن مبدأ."

لقد أدهشتنا بقدر ما صدمتنا قصصُ الحُبِّ الدراميةُ الكثيرةُ

---

(8) عازف موسيقى جاز أمريكي، اشتهر في الخمسينيات.

(9) في الأصل بالفرنسية: Le Grand

اللانهائيةُ التي تصوِّرُها أغاني مازابا وآهاتُه وأحاديثُه. خِلْنَا أنَّ ما أدَّى إلى سقوط مهنته المروِّع كان ضربًا من خداع أو بسبب حُبِّه العظيم لامرأة.

كلَّ شهر كلَّما تغيَّر القمر
أقول، كلَّ شهر كلَّما تغيَّر القمر
اندفع الدَّم من رحم العاهرة.

كان ثمَّة شيء لاأرضيٌّ ومُتَعذَّرٌ محوه في المقطع الذي غنَّاه مازابا ذلك الأصيل، أيًّا كان ما عَنَتْه الكلمات. سمعناه مرَّةً واحدة فقط، ولكنه بقي مختبئًا فينا كحقيقة قاسية سنستمر في الازورار عن فظاظتها، تمامًا كما فعلنا حينها. كان المقطع -بتأليف (جيْلِي رول مورتون)[10]، كما سأكتشف لاحقًا- مضادًّا للرصاص وسادًّا للماء. بيْد أننا لم ندركه حينها، فقد أربكتنا صراحته أيَّما إرباك، بكلماته في ذلك السطر الأخير، وإيقاعه المباغت والحاسم الذي خرج مقتصِدًا جدًّا بعد المُفتتح المتكرِّر. انصرفنا مبتعدين عنه في صالة الرقص تلك، وقد أدركنا بغتةً وجود المضيفين على السلالم وهم يُعِدُّون العُدَّة لرقص المساء، ويوجِّهون المصابيح الملوَّنة، ويعلِّقون أقواسًا من ورق الكريب المتقاطعة في الصالة. كانوا يبسطون أغطية الطاولات الضخمة لكي يفرشوها فوق الموائد الخشبية. وضعوا في وسط كل مائدة إناءً من الزهور، مُضيفين مظهرًا متحضِّرًا ورومانسيًّا إلى الصالة العارية. لم ينصرف السيد مازابا معنا. بقي إلى جانب البيانو ينظر إلى مفاتيحها، غير واعٍ بعملية التمويه القائمة حوله. كنَّا نعلم أنَّ أيًّا ما كان سيغنِّيه

(10) عازف جاز أمريكي.

مع الأوركسترا تلك الليلة لن تكون له علاقة بما غنَّاه لنا الآن.

كان اسم فرقة ماكس مازابا – أو "اسمه الحربي" كما كان يدعوه – هو المروج المشمسة. شرع في استخدامه إثر خطأ مطبعي على ملصق إعلاني لحفل له في فرنسا. لعلَّ المروِّجين أرادوا تجنُّب السِّمَة المشرقية لاسمِه. على الأُورُونسَي حيث كانت تُعلَن في نشرة الباخرة دروسُ البيانو التي يقدِّمها، كان أيضًا يُشار إليه باسم "المروج المشمسة، سيِّد البيانو." بيْد أنه كان مازابا في نظرنا حول مائدة القط، ذلك أنَّ "مروج" و"مشمسة" كانتا كلمتين لا تكادان تحضران جنبًا إلى جنب مع طبيعته. لم يكن ثمَّة ما هو متفائل أو مشذَّب في شخصه. ومع ذلك، فقد كان ولعه بالموسيقى ينعش مائدتنا. لقد قضى فترة غداء بأكملها وهو يبهجنا بقصة مبارزة "بيشَيْه العظيم،" تلك التي انتهت بمعركة مسدسات في الساعات الأولى من صباحٍ باريسي في عام 1928، بيشَيْه وهو يطلق نار مسدسه في اتجاه خصمِه (مِكِنْدريك) فتخدش الرصاصة قبعته البورسالينو، ثم تستمر حتى تستقر في فخذ امرأة فرنسية في طريقها إلى العمل. لقد مثَّل السيد مازابا المشهد كلَّه مستخدمًا قارورتي ملح وفلفل وقطعة جبن ليصف مسار الرصاصة.

دعاني ذات أصيل إلى مقصورته لأستمع إلى بعض الأغاني. أخبرني مازابا أنَّ بيشَيْه كان يستخدم الكلارينت بنظام ألبرت الذي له لحن رسمي وفخم. راح يردِّد: "رسمي وفخم." شغَّل لحنًا بنظام 78 وراح يدندن هامسًا جنبًا إلى جنب مع الموسيقى مُشيرًا إلى اللَّحن والأناقة المُعْجِزيْن فيها. "أترى! إنه يزلزل الصوت." لم أفهم، ولكنني كنت مشدوهًا. كان مازابا يومئ إليَّ كلَّما أعاد بيشَيْه اللَّحن، أتذكَّره

يقول: "مثل شروق الشمس على أرض غابة." أخذ يبحث في حقيبة شمعيَّة الشكل وأخرج مُفكِّرة وقرأ ما قاله بيشَيْه لأحد التلاميذ. قال بيشَيْه: "سوف أعطيك لحنًا واحدًا اليوم، انظر بكم طريقة يمكنك عزف اللحن؛ دَمْدِمْهُ، شَوِّهْهُ، ابْسُطْه، اشْحَذْهُ، افعلْ به ما تشاء. إنه مثل الكلام."

ثم أخبرني مازابا عن الكلب. "اعتاد أن يأتي إلى المسرح مع باش ويدمدم أثناء عزف سيده... ولهذا السبب قطع بيشَيْه علاقته بالدُّوق (إلينغتُن). لم يسمح الدُّوق بصعود (غُولا) إلى المسرح، فترك بيشَيْه فرقة إلينغتن وفتح متجر (ساوذرن تيْلر)، وهو متجر عمليات إصلاح وتنظيف إلى جانب كونه مرتعًا للموسيقيين. "هنا أنجز أفضل تسجيلاته مثل "العصا السوداء"، و"حبيبتي العزيزة." يومًا ما ستبتاع جميع هذه الأغاني."

ثم تحدَّث عن الحياة الجنسية. "أوه، كان باش شخصًا يحبُّ التَّكرار، وغالبًا ما ينتهي به المطاف عند المرأة نفسها... حاولت نساءٌ من كل الأصناف ضبطَ مسلكه. ولكن أتدري، لقد كان يعزف في الشارع منذ أن كان في السادسة عشرة، كان قد قابل فتيات من كلِّ صنف ولون." من كلِّ صنف ولون! "من ناتشز إلى مُوبِيل..."

أصغيت وأنا أومئ دونما فهم، في حين تشبَّث السيد مازابا في قلبه بهذا المثال على طريقة الحياة والمهارة الموسيقية وكأنه محفوظ في لوحة بيضيَّة الشكل لقدِّيس.

السَّطح (ج)

جلست على السرير أنظر إلى الباب والحائط المعدني. كان الجوُّ حارًّا في المقصورة في آخر الأصيل. لا يمكنني أن أكون وحدي إلا حينما آتي إلى هنا في هذا الوقت. معظم اليوم أكون مشغولًا مع رام الدِّين وكاشيَس، وأحيانًا مع مازابا أو آخرين من مجموعة مائدة القط. في الليل أكون غالبًا مُحاطًا بهمْس لاعبي الورق. كنت بحاجة إلى التفكير بالرجوع إلى الخلف بعض الوقت. حين أفكِّر بالرجوع إلى الخلف أستطيع تذكُّر راحةِ أن يكون المرء فضوليًّا ووحيدًا. وبعد حينٍ من الوقت أستلقي وأنظر إلى السقف المرتفع فوقي قَدَمًا واحدةً أو قدمين اثنتين. كنت أحسُّ بالأمان، حتى وأنا في عُرْض البحر.

بين حينٍ وحين، قبل حلول الظلام بقليل، أجد نفسي على السطح (ج) عندما لا يكون أحد هناك. أسير صوب الدَّرابزين الذي كان ارتفاعه يصل إلى صدري، وأرقب البحر وهو يصطخب على جوانب الباخرة. في بعض الأحيان كان يبدو وكأنه يرتفع إلى مستوى جسدي تقريبًا، وكأنَّما سينتزعني. لم أكن لأتحرَّك بالرَّغم من إحساسي الشديد بالخوف والوحدة. كان الشعور ذاته الذي كنت أُحسُّه عندما أتيه في طرقات سوق (بتاه)، أو عندما ينبغي لي التَّكيُّف

مع قواعد جديدة وغير مكتشفة في المدرسة. عندما لا أستطيع رؤية المحيط لا يحضر الخوف، بيْد أنَّ البحر الآن يرتفع في شبه الظلمة محيطًا بالباخرة وملتفًّا عليّ. مهما أكون مذعورًا، فإنني أمكث هناك مجاورًا الظلام العابر، جزءٌ منّي يودُّ سحبي إلى الوراء، وجزءٌ آخر يريدني أن أقفز في الظلام.

مرَّةً قبل أن أغادر سيلان، رأيت باخرة محيط تحترق في الطرف القصي من ميناء كولومبو. أخذت طوال الأصيل أرقب غاز (الأسيتيلين) الأزرق وهو يقطع خاصرة السفينة. أدركت أنَّ الباخرة التي أركبها الآن قد تُفكَّك إلى قطع أيضًا. ذات يوم، حين رأيت السيد نِفل الذي كان يفهم هذه الأشياء سحبتُ كمَّ قميصه وسألتُه إن كنَّا بأمان. أخبرني أنَّ الأُورُونسَي كانت بصحة جيدة، كانت ما تزال في منتصف مهنتها. وقد عملت كسفينة عسكرية في الحرب العالمية الثانية، وفي مكان ما طوال جدار العَنْبَر هناك جداريَّة كبيرة باللونين الوردي والأبيض لنساء عاريات إلى جوانبهن أكوام بنادق ودبابات، رسمها جندي. لقد بقيت هناك سرًّا، ذلك أنَّ المسؤولين في الباخرة لم يذهبوا إلى العنبر قطُّ.

"ولكن هل نحن بخير؟"

أجلسني، وعلى ظهر أحد المخططات الزرقاء التي كان يحملها دائمًا رسم لي ما قال أنه سفينة حربية إغريقية، ثلاثية المجاذيف. "هذه كانت أعظم السفن في البحار. حتى وإن لم تعد موجودة. لقد حاربت أعداء أثينا وجلبت في طريق عودتها فواكه ومحاصيل مجهولة، علومًا جيدة، معمارًا، وحتى الديمقراطية. كلُّ ذلك بسبب هذه السفينة. لم تكن فيها زخرفة. كانت ثلاثية المجاذيف ما كانت

عليه، سلاحًا. كان عليها مجذِّفون ورماة سهام فقط. بيْد أنه لم يتبقَّ منها اليوم حتى شظيَّة. ما زال الناس يبحثون عن بقاياها في طمي سواحل النهر، ولكنهم لم يقعوا على شيء. كانت مبنية من الرَّماد وخشب الدَّردار الصلب؛ السنديان للعارضة، والصنوبر الأخضر حُنِيَ ليأخذ شكل الهيكل. الألواح خِيطت معًا بحبال الكَتَّان. لم يكن هناك معدن في الهيكل. لذلك يمكن حرق السفينة على الشاطئ أو إن غرقت تذوب في البحر. سفينتنا أكثر أمانًا."

لسبب ما منحني وصف السيد نِفل لسفينة حربية قديمة إحساسًا بالرَّاحة. ما عدتُّ أتخيَّل نفسي على متن الأُورُونسَي المزخرفة، وإنَّما على شيء أكثر اكتفاء بذاته، أكثر تجرُّدًا. رأيتُني راميَ سهام أو مجذِّفًا على ظهر ثلاثية المجاذيف. سندخل بحرَ العرب والأبيضَ المتوسط بتلك الطريقة مع السيد نِفل بصفته قائدنا البحري.

تلك الليلة صحوت بغتةً بإحساسٍ بأننا نعبر جُزرًا، وأنها كانت قريبة في الظلام. كان هناك صوت مختلف للأمواج بجانب الباخرة، ضربٌ من صدى، وكأنَّما الأمواج تستجيب للجزيرة. أشعلتُ المصباح الأصفر قرب سريري ونظرت إلى خارطة العالم التي رسمتُها نقلًا عن كتاب. لقد نسيت أن أضع أسماء عليها. كلُّ ما أعرفه هو أننا كنا نتجه غربًا وشمالًا، بعيدًا عن كولومبو.

أُستراليَّة

في الساعة التي تسبق بزوغ النهار عندما نصحو للتَّجوال في أرجاء ما يشبه سفينة مهجورة، تفوح من القاعات الشبيهة بالكهوف رائحةُ سجائر الليلة الفائتة، وأكون أنا ورام الدِّين وكاشيَس قد حوَّلنا المكتبة الصامتة إلى فوضى من العربات المتدحرجة. وجدنا أنفسنا ذات صباح مُطوَّقين بفتاة تنطلق بسرعة على لوح تزحلق على المحيط الخشبي للسطح العلوي. بدا أنها كانت تصحو في وقت أبكر مما نفعل. من جانبها لم يكن ثمَّة أي اعتراف بوجودنا وهي تنطلق على نحوٍ أسرع وأسرع، وخطواتها الرَّشيقة تختبر اتِّزانَها. في إحدى انعطافاتها أخطأت توقيت قفزة فوق الأسلاك، فاصطدمت بالدَّرابزين الصَّلب. نهضت، نظرت إلى شقِّ الدَّم في ركبتها، وواصلت، وهي تلقي نظرة إلى ساعتها. كانت أسترالية، وكنَّا مفتونين. لم نشهد إصرارًا كهذا من قبل قطُّ. ما مِن امرأة من نساء عائلاتنا سلكت هذا المسلك. رأيناها في ما بعد في حوض السباحة، كانت تثير وابلًا من الماء بسرعتها. ما كنَّا لنتَعجَّب إن قفزت من على ظهر الأُورُونسَي إلى البحر وحافظت على سرعتها عشرين دقيقة جنبًا إلى جنب مع الباخرة.

ولذلك رحنا نستيقظ في وقت أبكر لمشاهدتها تتزحلق

خمسينَ أو ستين لفَّة. عندما تنتهي كانت تفكُّ رباط ألواح التزحلق وتمضي منهكةً وعرقانةً ومرتديةً كامل ملابسها، صوب دُشِّ الاستحمام الخارجي. كانت تقف تحت رشِّ الماء الدافق، راميةً شعرها هنا وهناك، مثل حيوان عليه ثياب. كان هذا ضربًا جديدًا من الجمال. عندما تغادر كنَّا نتبع آثار قدميها التي، إذ نقترب منها، ما تفتأ تجفُّ في ضوء الشمس الجديد.

كاسْيَس

من يسمِّي طفلًا كاسْيَس؟ أفكِّر الآن. يتجنَّب معظمُ الآباء منحَ الابن البكر اسمًا كهذا. مع أنَّ سريلانكا طالما أبهجها دمجُ الاسم الأوَّل الكلاسيكي في الاسم الأخير السِّنهالي؛ (سولومون وسيناكا) ليسا اسمين شائعين ولكنهما موجودان. كان اسم طبيب أطفال عائلتنا (سقراط غُونوِاردنا). بالرَّغم من الكتابة الرُّومانيَّة السيئة للاسم، يبدو كاسْيَس اسمًا لطيفًا وهامسًا، مع أنَّ كاسْيَس الفتيَّ الذي عرفتُه في الرحلة كان محطِّم تماثيل على نحو كبير. لم أره قطُّ يناصر أحدًا في موقع نفوذ. إنه يسحبك إلى وجهة نظره في الأمور فترى من خلال عينيه طبقات السُّلطة على الباخرة. كان يتلذَّذ مثلًا بكونه أحد الأشخاص غير المُهمِّين الجالسين إلى مائدة القطّ.

حينما يتحدَّث كاسْيَس عن مدرسة القدِّيس تومَس في ماونت لافينيا فإنه يتحدَّث بطاقة شخص يتذكَّر حركةَ مقاومة. ولمَّا كان يسبقني عامًا في المدرسة، فقد بدا وكأنَّ عوالم تفصلنا، ولكنَّه كان منارةً للتلاميذ الأصغر سنًّا، لأنه قلَّما كان يُقبَض عليه متلبِّسًا بجرائمه. وعندما يُقبَض عليه لا يبدو على وجهه أيُّ أثر لحرج أو مهانة. لقد ذاع صيته خصوصًا عندما تمكَّن من قفل باب الحمَّام

على "عصا الخيزران" (بارنابُس)، مدير مدرستنا الداخلية في المدرسة الدُّنيا، ساعاتٍ عديدةً احتجاجًا على المراحيض المقزِّزة في المدرسة. (إنك تربض على فُوَّهة الجحيم وتغسل جسدك في ما بعد بماءٍ من علبة صفيح صدِئة كانت تحتوي يومًا عصيرَ "تيْت آند لِيْل" الذهبي. "من القوَّة تخرج الحلاوة،" طالما تذكَّرتُ هذا.)

انتظر كاسْيَس إلى أن دخل بارنابُس حمَّام التلاميذ في الطابق السفلي في السادسة صباحًا حيث اعتاد أن يبقى هناك طويلًا، وبعد أن ثبَّت كاسْيَس قضيبًا معدنيًّا على الباب شرع يكسو القفل بأسمنت سريع الجفاف. سمعنا مديرنا يلقي بجسده على الباب. ثم نادى أسماءنا بادئًا بالتلاميذ الذين يثق بهم. واحدًا تلو الآخر تقدَّمنا للمساعدة، ثم اندفعنا إلى ملعب المدرسة حيث أرحنا أنفسنا خلف الشجيرات، وبعدها مضينا إلى السباحة أو حضرنا طائعين في السابعة صباحًا حصة الواجب المدرسي التي كان الأب بارنابُس في الواقع قد أعدَّها سلفًا في الفصل الدراسي. كان على أحد القائمين على صيانة أرض الملعب أن يهشِّم الأسمنت بمضرب الكريكت، بيْد أنَّ ذلك لم يحدث إلَّا في وقت متأخِّر من الأصيل. وإذ ذاك تمنَّينا أن تنهك الأبخرةُ مديرنا، ولعلَّه يفقد وعيه فيصعب الوصول إليه. لكنَّ انتقامه أتى سريعًا. بعد أن جُلِد كاسْيَس وطُرِد أسبوعًا أصبح رمزًا أكبر في المدرسة الدُّنيا، ولا سيَّما بعد كلمة مثيرة قدَّمها القيِّم في الكنيسة في الصباح أخذ يلعنه فيها دقيقتين كاملتين وكأنَّه كان أحد الملائكة الساقطين. بطبيعة الحال، ما من أحد تعلَّم درسًا من هذه الحادثة. لاحقًا بعد سنوات عندما تبرَّع فتى أكبر سنًّا ببعض المال لمدرسة القدِّيس تومَس لإنشاء مبنى كريكت جديد، قال صديقي (سِناكا): "ينبغي أوَّلًا أن يبنوا

مراحيض لائقة."

شأنُه شأني، فلكي يُقبَل كاسْيَس في مدرسة إنكليزية خضع لامتحان أشرف عليه القيِّم. كان علينا الإجابة عن أسئلة عديدة في الحساب تستند إلى الجنيه والشِّلِن، في حين إنَّ كلَّ ما كنَّا نعرفه هو الرُّوبِيَّة والسَّنْت. كانت هناك أيضًا أسئلة معرفية عامة، مثل: كم رجلًا كان في فريق أكسفورد للتجذيف؟ ومن الذي عاش في مكان يُطلَق عليه كوخ (دوف)؟ لقد سُئِلنا حتَّى أن نسمِّي ثلاثة من أعضاء مجلس الأعيان. كنت وكاسْيَس التلميذيْن الوحيديْن في صالة معيشة القيِّم أصيلَ ذلك السبت، وقد أملاني إجابة خاطئة عن السؤال: "ماذا يُطلَق على أنثى الكلب؟" وقال: "قطَّة"، وكتبتُ ذلك. كانت في الواقع المرَّة الأولى التي تحدَّث فيها إليَّ، وكانت كَذِبًا. كنت أعرفه حتى ذلك الحين عبر سُمْعَته وحسب. جميعنا في المدرسة الدُّنيا رأينا فيه تلميذ مدرسة القدِّيس تومَس الذي لا سبيل إلى تقويمه. لا شكَّ في أن يتميَّز موظفو المدرسة غيظًا حينما يعرفون أنَّه الآن سيمثِّل اسمها في الخارج.

كان ثمَّة مزيج من العناد واللُّطف في كاسْيَس. لم أعرف قطُّ من أين أتت هاتان الخَصْلتان. لم يكن يذكر أبويه قطُّ، وإن فعل فإنه يؤلِّف سيناريو ليجعل نفسه بعيدًا عنهما. في الواقع، لم يكن لدى ثلاثتنا في أثناء الرحلة أيُّ اهتمام حقيقي بخلفيَّة حياة الآخر. كان رام الدِّين يتحدَّث بين حين وآخر عن النصيحة الحذِرة التي نصحه إيَّاها والداه بشأن صحته. وأمَّا أنا، فكلُّ ما عرفه الاثنان عني أنَّ لي "خالة" في الدرجة الأولى. لقد كان كاسْيَس مَن اقترح أن نحتفظ بخلفيَّة حياتنا لأنفسنا. أحسبُ أنَّه أحبَّ فكرة الاكتفاء الذاتي. هكذا

كان يرى عصابتّنا الصغيرة القائمة في الباخرة. لقد تحمَّل روايات رام الدِّين عن أهله بسبب وَهَنه الجسدي. كانت ثمَّة ديمقراطية لطيفة في كاشْيَس. وعلى نحو استذكاري، كان فقط ضد سلطة قيصر.

أخَالُ أنه غيَّرني خلال تلك الأيام الأحد والعشرين، وهو يقنعني بأن أفسّر كلَّ شيء كان يقع حولنا من وجهة نظره التَّهكُّميَّة أو الفوضويَّة. واحد وعشرون يومًا فترة قصيرة جدًّا في حياة المرء، بيْد أنني لن أنسى أبدًا همْس كاشْيَس. ومع مرور السنين كنت أسمع عنه أو أقرأ عن مهنته، ولكنني ما لقيته قطّ. كان رام الدِّين مَن بقيتُ على اتصال به، أزوره في مِلْ هِلْ حيث تقيم عائلته، وأذهب إلى مشاهدة الأفلام النَّهاريَّة معه وأخته، أو إلى عرض القوارب في حيٍّ (إيرلز كورت) حيث نحاول تخيُّل الأفعال التي سيأتيها كاشْيَس لو كان برفقتنا.

دفتر الامتحان: أحاديث سُمِعت خِلسةً

من اليوم الأول إلى الحادي عشر

"لا تنظري إليه، أتسمعينني؟ سِيليا؟ لا تنظري مطلقًا إلى الحقير مرَّةً أخرى!"

"لأختي اسم غريب. معصومة. ويعني النَّقيَّة، المحميَّة من الخطايا. ولكنه يمكن أن يعني أيضًا المسالِمة."

"يؤسفني أن أقول أنني أكنُّ كرهًا خاصًّا لكلب (تزَير سيلاهام.)"

"في البداية، حسبتُها من السيدات المُتثاقِفات."

"نستخدم الفاكهة كسُمٍّ للسمك أحيانًا."

"دائمًا ما يظهر النَّشَّالون في أثناء العاصفة."

"يقول هذا الرجل أنَّ بمستطاعه قطع الصحراء آكِلًا تمرة وبصلة في اليوم وحسب."

"أظنُّ، بسبب مهاراتها اللغوية، أنَّ الحكومة البريطانية قد رَقَّتها."

"لقد دمَّرتني تلك الورقة الواحدة."

"قلتُ لزوجك عندما قدَّم إليَّ مَحَارة عمرها ثلاثة أيام أنها أكثرة خطورة عليَّ من القيام بعلاقة جنسية حين كنت في السابعة عشرة."

العَنْبَر

كان (لاري دانيَلْز) أحد أولئك الذين كانوا يتناولون الطعام معنا على مائدة القط. كان رجلًا مكتنزًا مفتولَ العضلات، دائمًا ما يضع ربطة عنق، دائمًا ما يرفع أكمامه. وُلِد لعائلة من الطبقة الوسطى في كاندي، وقد أصبح عالِمًا نباتيًّا وقضى شطرًا كبيرًا من حياته يدرس ثقافة الغابات والنبات في سومطرة وبورنيو. هذه كانت رحلته الأولى إلى أوروبا. الشيء الوحيد الذي عرفناه عنه في البداية أنه كان يُكِنُّ إعجابًا غامرًا لقريبتي إِمِلِي التي كانت بالكاد تمنحه وقتًا من اليوم. بسبب عدم اهتمامها هذا حادَ عن طريقه ليتخذني صديقًا. أظنُّ أنه رآني أُبادلها وأصدقاءها الضحك عند حوض السباحة حيث يمكن إيجاد إِمِلِي عادةً. سألني السيد دانيَلْز إن كنت أودُّ أن أرى "حديقته" في الباخرة. اقترحتُ أن أُحضر معي رفيقيَّ ووافق مع أنه كان جليًّا أنه يريد أن ينفرد بي ليتمكَّن من سؤالي عمَّا تحبُّ قريبتي وتكره.

كلَّما كنتُ وكاسَيَس ورام الدِّين مع السيد دانيَلْز قضينا الوقت طالبين إليه أن يبتاع لنا عصائر غريبة من حانة حوض السباحة. أو أنَّنا نقنعه بتكوين فريق رباعي لإحدى الألعاب هناك.

كان رجلًا فضوليًّا ذكيًّا، ولكنَّنا كنَّا أكثر اهتمامًا باختبار قوتنا بمصارعته، فيهاجمه ثلاثتنا جميعًا في آن واحد، ثم نتركه لاهثًا على حصير القُنَّب ونعدو للغطس في الحوض.

في وقت العشاء فقط لم أكن بمنجاة من أسئلة السيد دانيَلْز عن إمِلِي، ذلك أنَّ المقعد المخصص لي كان إلى جانب مقعده ويكون عليَّ أن أتحدَّث عنها ولا عن أيِّ شيء آخر. كانت المعلومة الوحيدة التي أمنحه إيَّاها بصدق هي أنها تحبُّ سجائر (بلَيْرَز نَيْفي كَت)[11]. لقد كانت تدخِّن تلك العلامة التجارية منذ ثلاث سنوات على الأقل. وأمَّا ما تبقَّى مما تحبُّ وتكره فقد كان من تأليفي.

قلتُ: "تحبُّ الآيسكريم في متجر (إلِفَنْت هاوس)، تتمنَّى الذهاب إلى المسرح. لتصبح ممثِّلة." تعلَّق دانيَلْز بتلك القشَّة الوهمية.

"هنالك فرقة مسرحية في الباخرة. لعلَّني أستطيع تقديمها..."

أومأت كأنَّما أوصي بذلك، ورأيته في اليوم التالي يتحدَّث إلى ثلاثة أعضاء من فرقة (جانكُلا)، وهم موسيقيون في طريقهم إلى أوروبا لأداء عروض مسرح الشارع والألعاب البهلوانية، بيْد أنهم في أثناء الرحلة كانوا أيضًا بين الحين والآخر يؤدُّون عروضًا تمثيليَّة للمسافرين. كانوا أحيانًا على نحوٍ مرتجل في نهاية وقت شاي الأصيل يتلاعبون بصحونهم وأكوابهم، ولكنهم يظهرون رسميًّا في معظم الوقت بزيٍّ كامل ومساحيق تجميل مفرطة. الأهمُّ من ذلك كلِّه أنهم كانوا يدعون المسافرين إلى المسرح الارتجالي لكي يكشفوا أشياء تخصهم، وتكون أحيانًا محرجة. ويتضمَّن الكشف غالبًا مكان محفظة مفقودة أو خاتمًا ضائعًا، أو حقيقة أنَّ المسافر ذاهب إلى

---

(11) Player's Navy Cut

أوروبا ليكون مع قريب له مريض. وكان مَن يعلن هذه الأشياء هو "صاحب العقل الحيْدر آبادي" ذو الوجه المخطَّط باللون الأرجواني والعينين اللتين يحفُّهما اللون الأبيض، فتبدوان وكأنهما تنتميان إلى مارد. حقًّا، لقد كان يمكنه إفزاعنا، ذلك أنَّه كان يُجوِّل بعيدًا بين الجمهور معلنًا عدد أطفال شخص ما أو مكان ميلاد زوجتِه.

في وقت متأخر من أصيل أحد الأيام بينما كنت أتجوَّل على السطح (ج) رأيت صاحب العقل الحيْدر آبادي رابضًا تحت أحد قوارب النَّجاة، يضع مساحيق التجميل قبل العرض. كان يمسك مرآة صغيرة بإحدى يديه وبالأخرى يرسم الخطوط الأرجوانية بسرعة. لصاحب العقل الحيْدر آبادي جسد هزيل، فيبدو الرأس الملوَّن كبيرًا جدًّا نسبةً إلى هيكله الضعيف. كان يحدِّق إلى المرآة غير مدرك وجودي بعيدًا عنه ببضعة أقدام وهو يرتِّب هندامه في قارب النَّجاة نصف المضاء المتدلِّي من الذراع الحديدية. ثم وقف، وحين خطا تحت ضوء الشمس توهَّجت الألوان، وقد أصبحت عينا الغول الآن مليئتيْن بالكبريت والإدراك. ألقى عليَّ نظرة ومرَّ قريبًا منِّي وكأنِّي لا شيء. لقد شهدت أوَّل مرَّة ما يمكن أن يحدث خلف ستارة الفنِّ الرقيقة ومنحني هذا بعض الحماية من رؤيته على المسرح في المرَّة القادمة، متأنِّقًا في زيِّه الكامل. شعرت أنَّ بإمكاني أن أرى، أو أن أدرك الآن الهيكل العظمي بداخل الزِّيّ.

كان كاسْيَس أكثر من أحبَّ فرقة جانكْلا. كان يتوق إلى الانضمام إليها كعضو، ولا سيَّما بعد أن دعانا رام الدِّين بحماسة ذات يوم قائلًا أنه رأى أحد أعضاء الفرقة وهو ينزع ساعة من رسغ رجل كان يُوجِّهه. لقد كان الفعل حاذقًا جدًّا حتى إنَّ المسافر لم

يدرك مطلقًا فقدانه الساعة. بعد أصيلَيْن في ما بعد، أخذ صاحب العقل الحيدر آبادي يُجوِّل بين الجمهور وأخبر الرجل عن المكان الذي "يمكن" أن تكون فيه ساعته إن كان قد فقدها. كان ذلك عملًا ذكيًّا. لقد سُرِقَ قُرْط، وحقيبة، وآلة كاتبة من قاعة فاخرة وحُمِلت إلى صاحب العقل الحيْدر آبادي، وفي نهاية المطاف كُشِفت أماكنُها لمالكيها. حين أخبرنا السيد دانيَلْز باكتشافنا ضحك وحسب وقال أنَّ ذلك أشبه بفنِّ السمكة الطائرة.

بيْد أنَّ السيد دانيَلْز قبل أن يعرف جانبَ الفرقة هذا، قدَّم نفسه إلى أعضائها وحسب وقال أنَّ له صديقة جيدة، الآنسة إمِلِي دو سارام، شابَّة موهوبة جدًّا وتحبُّ المسرح، ولعلَّها تستطيع مشاهدتهم يتدرَّبون لو أحضرها إلى هنا؟ الأمر الذي فعله في نهاية المطاف حسبما أذكر بعد يوم أو يومين على ذلك، أمَّا مدى اهتمام إمِلِي بالمسرح، فلا علم لي به. على أيَّة حال، هكذا التقتْ صاحبَ العقل الحيدر آبادي وهكذا مضتْ تحيا حياة مختلفة عن تلك التي كانت متوقَّعة.

عدا ما رأيناه بوضوح من لطف أبداه السيد دانيَلْز نحو إمِلِي، لم نكن فضوليين بشأنه. مع أنني قد أستمتع برفقة الرجل هذه الأيام، وأرغب في الجَوَلان في أرجاء حديقته النباتية، والاستماع إليه يتحدَّث عن السِّمات غير العادية لنبتة نمرُّ بها، في حين تُمشِّط أوراقُ النبات والنخيل والأسوجة أذرعنا.

ذات أصيل جَمَعَنا نحن الثلاثة وأَخَذَنا إلى حيث وَعَدَ أن يأخذنا؛ إلى أحشاء الباخرة. دخلنا إلى ردهة تدفَّق إليها الهواء المنبعث من مروحتي مُولِّدٍ متصل بغرفة المحرِّك. كان لدى السيد دانيَلْز

مفتاح، ودخلنا بواسطته إلى العنبر؛ كهف مظلم يختفي أسفل طوابق عديدة في الباخرة. في المسافة الممتدة تحتنا استطعنا تبيُّن بعض الإضاءة. هبطنا بسلَّم معدني متصل بالجدار ومررنا بطوابق مليئة بصناديق وأكياس وألواح ضخمة من المطاط الخام برائحته المُسْكِرة. لقد سمعنا القوقأة العالية لدجاجة تجري وضحكنا من صمت الطيور المفاجئ لمَّا أدركت وجودنا. سمعنا مياهًا تتدفَّق في الجدران، وشرح لنا السيد دانيَلْز أنَّ الماء يُحلَّى بعد سحبه من البحر.

حين بلغنا الطابق السفلي للعنبر شرع السيد دانيَلْز ينطلق في الظلام. تتبَّعنا مسار مصابيح معتمة كانت معلَّقةً تمامًا فوق رؤوسنا. انعطف يمينًا بعد حوالي خمسين ياردة وهناك صادفنا الجداريَّة التي أخبرني عنها السيد نِفل، لنساء إلى جوانبهن بنادق. لقد أذهلني حجمها. كانت النساء تكبر حجمنا مرتين وكنَّ يبتسمن ويلوِّحن بالرَّغم من تجرُّدهن من الثياب، وكان المنظر وراءهن صحراء. راح كاسْيَس يسأل: "عمَّاه... ما هذا؟" بيْد أنَّ السيد دانيَلْز لم يتركنا نتوقَّف ومضى بنا قُدُمًا.

ثم رأينا ضوءًا ذهبيًّا. كان أكثر من ذلك. وحين دنونا بدا حقلًا من الألوان. تلك كانت "الحديقة" التي ينقلها السيد دانيَلْز إلى أوروبا. وقفنا أمامها، ثم بدأتُ وكاسْيَس وحتى رام الدِّين نعدو بين المسالك الضَّيِّقة تاركين السيد دانيَلْز في الخلف منحنيًا يفحص نبتة. ما حجم هذه الحديقة؟ لم نكن على يقين قطُّ، لأنها لم تكن كلُّها مضاءةً في الوقت نفسه، فالمصابيح الاصطناعية كانت تضيء وتنطفئ من تلقاء نفسها. ولا بدَّ أنَّ هناك أقسامًا أخرى لم نرها قطُّ في أثناء تلك الرحلة. لا أتذكَّر حتى شكلها. يبدو الأمر الآن وكأننا حلُمناه، وكأنَّه

لم يوجد ربَّما بعد نهاية نزهة العشر دقائق تلك في ظلام العنبر. بين الحين والآخر، أخذ رذاذ يملأ الهواء فرفعنا وجوهنا ترحيبًا بالمطر الناعم. كان بعض النبات أطول منا. وبعضه صغير جدًّا لا يجاوز طوله كواحلَنا. مددنا أذرعنا ورِّبتنا على السَّرخس ونحن نعبره.

"لا تلمسها!" قال السيد دانيَلْز ساحبًا يدي الممدودة. "تلك نبتة (الإسْتْرِكْنين)[12]، كُن حذِرًا، لها رائحة جذَّابة، ولا سيَّما في الليل. تكاد تغريك لتكسر القشرة الخضراء، أليس كذلك؟ إنَّها تبدو مثل قِثَّاء كولومبو ولكنَّها ليست كذلك. إنَّها إسْترِكْنين. تلك التي تتجه زهورها للأسفل هي زهور بوق الملاك. أمَّا تلك التي تتجه للأعلى والجميلة على نحو خبيث فهي زهور بوق الشيطان. وهنا (اسكروفولاريا)[13]، نبتة أنف العِجْل، وهي أيضًا جذَّابة على نحو خادع. حتى إن شممتها وحسب ستشعر بالدُّوار."

استنشق كاسْيَس بعمق وراح على نحوٍ دراميٍّ يترنَّح إلى الخلف و"وقع مغشيًّا عليه" ساحقًا بضع أعشاب هشَّة بمرفقه. سارع السيد دانيَلْز إلى تحريك ذراعه بعيدًا عن السَّرْخس البريء المنظر.

"للنبات طاقة رائعة يا كاسْيَس. عصير هذه يجعل شعرك أسود وأصابعك تنمو بصحَّة. هناك، ذلك النبات الأزرق-"

"حديقة في باخرة!" حتى كاسْيَس أثاره سرُّ السيد دانيَلْز.

"نوح..." قال رام الدِّين بهدوء.

"أجل. وتذكَّروا، البحر أيضًا حديقة، كما يخبرنا شاعر. والآن، تعالوا هنا. أظن أنني رأيت ثلاثتكم تدخِّنون قِطَعًا من مقعد

---

(12) في الأصل: Strychnos nux vomica وهو نوع من النبات سامٌّ جدًّا.

(13) في الأصل: Scrophulariaceae

الخيزران ذاك في ذلك اليوم... هذا سيكون أفضل لكم."

انحنى فانحنينا معه وهو يقطف أوراقًا لها شكل قلب. قال واضعًا إيَّاها على راحة يدي المفتوحة: "هذه أوراق التَّنْبُول." تقدَّم وأخذ بعض الجير من مخبأ ومزجه بذرَّات صغيرة من جوز الأَرِيْقة[14] كان يحملها في كيس خَيْش، وناول كاشْيَس المزيج.

وفي غضون دقائق كنَّا نتقدَّم في ذلك المسار المُضاء بتواضع ونحن نمضغ التَّنْبُول. لقد اعتدنا شراب الشارع المُسكِر المعتدل. وكما أشار السيد دانيَلْز فقد كان أكثر أمانًا لرام الدِّين من تدخين مقعد من الخيزران. "عندما تحضرون عُرسًا، فإنهم يضيفون في بعض الأحيان ذرَّات من الذهب إلى معجون الهال والأَرِيْقة." أعطانا ذخيرة صغيرة من هذه المكوِّنات مع بعض أوراق التبغ المجفَّفة التي عقدنا العزم على ادِّخارها لجولات ما قبل الفجر عندما يكون بإمكاننا بَصْق السائل الأحمر فوق الدَّرابزين إلى البحر الهائج أو في الأسفل في ظلمة أبواق الضباب. مشى ثلاثتنا مع السيد دانيَلْز في المعابر المختلفة. لقد مضينا في البحر أيَّامًا، واقتصر نطاق الألوان على الأبيض والرَّمادي والأزرق، عدا بضع مرَّات أشرقت فيها الشمس. ولكن الآن، في هذه الحديقة المضاءة اصطناعيًّا أسرفت النباتات في اخضرارها وازرِقاقها وفي اصفرارها المفرط، كلُّها أبهرنا. سأل كاشْيَس السيد دانيَلْز عن المزيد من التفاصيل المتعلقة بالسُّموم. كنَّا نأمل أن يخبرنا عن عشبة أو بذرة يمكنها أن تقهر شخصًا من الكبار غير محبوب، بيْد أنَّ السيد دانيَلْز لم يقل شيئًا عن هذا.

غادرنا الحديقة وعدنا عبر ظلام العنبر. حين مررنا بجدارية

---

(14) شجرة آسيوية استوائية.

النساء العاريات سأل كاسْيَس مجدَّدًا: "ما ذاك يا عمّ؟" ثم صعدنا السُّلَّم المعدني الأسود قافلين إلى سطح السفينة. لقد كان الأمر أكثر صعوبة في الصعود. كان السيد دانيَلْز يكاد يطير فوقنا، وحينما بلغنا السطح كان في الخارج يدخِّن سيجارة (بِيدِي)[15] لُفَّت بورق أبيض عوضًا عن ورق النبات البُنِّيّ. وقف ممسكًا السيجارة بيده اليسرى وبدا وقد تحمَّس بغتةً ليلقي علينا محاضرة عن أشجار نخيل من أرجاء العالم. أخذ يحاكي كيفية وقوف النخيل وكيف يتمايل بحسب تراثه أو سلالته، كيف ينحني مع الريح خاضعًا. راح يرينا أوضاع النخيل المختلفة إلى أن أضحَكَنا. ثم عرض علينا السيجارة وشرح كيف نستنشقها. كان كاسْيَس يُدقِّق فيها، بيد أنَّ السيد دانيَلْز أعطانيها أوَّلا، وأخذت سيجارة البِيدِي تروح وتجيء بيننا.

قال كاسْيَس ببطء: "إنَّه بِيدِي غير معتاد."

أخذ رام الدِّين نفثة وقال: "حاكِ أشجار النخيل مرَّةً أخرى يا عمّ!" واستأنف السيد دانيَلْز يستعرض مزيدًا من الأوضاع المختلفة. قال: "هذه قطعًا نخلة طاليب الهند[16]، النخلة المِظلَّة، تحصل منها على (التُّودِي)[17]، و(الَجكَر)[18]. تتحرَّك بهذه الطريقة." ثم أخذ يحاكي نخلة مَلَكيَّة من الكاميرون تنمو في مستنقعات المياه العذبة. ثمَّ أخرى من جُزُر آزور، تبعتها أخرى رهيفةَ الجِذع من غينيا الجديدة، جاعلًا ذراعيه تبدوان مثل سَعَف ممدود. قارَن بينها كيف تتحرَّك في الرياح، بعضها يتحرَّك باهتياج، وبعضها فقط بليٍّ جانبيٍّ

(15) نوع من السجائر الرخيصة مصنوع من تبغ غير معالَج.
(16) شجر هندي من الفصيلة النخلية ذو أوراق كبيرة تُتَّخذ منها المراوح والمظلات.
(17) شراب حارّ مُحلًّى مُسكِر.
(18) سُكَّر أسمر غير مكرَّر مصنوع من نُسْغ النخل.

للجذع حتى يمكنها مواجهة أعتى الرياح بأضيق حافَّاتها.

"الدِّيناميكا الهوائيَّة.... مهمة جدًّا. الأشجار أذكى من البشر. حتى الزَّنبقة أفضل من الإنسان. الأشجار مثل كلاب (الوِيبْت)[19]...."

كنَّا نضحك ونضحك من الأوضاع كلِّها التي كان يأتيها. ولكنْ، جرى ثلاثتنا بغتةً مبتعدِين عنه. رحنا نصرخ ونحن نعدو خلال نصف النهائي من مسابقة تنس الريشة النسائية، وننطلق مثل قذيفة قافزين في حوض السباحة بثيابنا كاملةً. حتى إننا خرجنا وسحبنا بضعة مقاعد من سطح الباخرة عائدين إلى الحوض. كانت تلك الساعة الشهيرة، وكانت الأمهات مع أطفالهن يحاولن التَّفادي منَّا. أطلقنا كلَّ نَفَس في أجسادنا وغطسنا إلى العمق ثم وقفنا هناك نلوِّح بأذرعنا بلطف مثل نخيل السيد دانيَلْز آمِلين أن يتمكَّن من رؤيتنا.

(19) الوِيبْت: كلب صغير نحيل سريع العَدْو.

غرفة المُولِّد

كنَّا بحاجة إلى البقاء مستيقظين لنشهد ما يحدث في الباخرة في وقت متأخر من الليل، بيْد أنَّنا كنَّا مُنْهَكين من صحونا قبل طلوع الشمس. اقترح رام الدِّين أن ننام في الأصائل كما كنَّا نفعل ونحن صغار. في المدرسة الداخلية كنَّا نسخر من غفوة الأصائل هذه، ولكنَّنا نرى الآن أنها قد تكون مفيدة. ومع ذلك، كانت ثمَّة مشكلات. كان رام الدِّين يقيم قرب مقصورة زعم أنَّ فيها زوجين كانا يضحكان ويتأوَّهان ويصيحان في أثناء الأصائل، في حين كانت تشغل المقصورة التي إلى جوار مقصورتي امرأة كانت تتدرَّب على عزف الكمان، وكان الصوت يشقُّ طريقه عبر الحائط المعدني إلى مقصورتي. قلتُ أنَّ الصوت كان صريرًا وحسب، لا أمزح. حتى إنني استطعت سماعها وهي تجادل نفسها وسط زعيق الآلة ونقر أوتارها المحال تجاهلهما. فضلًا عن ذلك، كانت الحرارة فظيعةً في هذه المقصورات السُّفليَّة التي لا كُوًى فيها. كلُّ غضب كنت أحسُّه نحو عازفة الكمان يخفُّ حين أدرك أنَّها هي الأخرى كانت تَعْرَق، وعلى الأرجح أنها كانت تضع على جسدها الحدَّ الأدنى من الثياب الذي يجعلها تبدو محترمة في نظر نفسها. لم أرَها قطُّ، ولم أعرف كيف بدت أو ما الذي كانت تحاول إتقانه بتلك

الآلة. هذه الألحان لا تبدو مثل ألحان السيد سِدْني بيشَيْه "الرَّسميَّة والفخمة." لقد كانت تردِّد الألحان وحسب وتعزف بلا نهاية، ثم تتردَّد، وتبدأ مجدَّدًا وعلى كتفيها وذراعيها تلك الطبقة الرقيقة من العرق وهي تقضي هذه الأصائل وحيدة، مشغولة جدًّا في المقصورة المجاورة لمقصورتي.

كنا نحن الثلاثة يفتقد بعضنا رفقة بعضنا الآخر. على أيَّة حال، رأى كاسْيَس أننا بحاجة إلى مقرٍّ دائم، ولذلك اخترنا غرفة المُولِّد الصغيرة التي دخلناها قبل نزولنا إلى العنبر بمعية السيد دانيَلْز. وهنا، في شبه الظلمة والبرودة مع قليل من الدُّثُر وبعض سُتَر النجاة المستعارة، أقمنا وكرًا خاصًّا بنا في أثناء بعض الأصائل. كنَّا نثرثر قليلًا ثم نغطُّ في النوم وسط هدير تلك المراوح العالي، متأهِّبين لأَمسِية طويلة.

بيْد أنَّ تحرِّينا الليلي لم يكن ناجحًا. لم نكن على يقين قطُّ مما نرى، فقد كانت عقولنا تلتقط جزئيًّا ما كان من أمر الكبار الممكن. ذات مرَّة من مرَّات "الحراسة الليلية" اختبأنا في ظلام سطح التَّنزُّه وأخذنا على نحو عشوائي نتبع رجلًا، فقط لنعرف إلى أين يذهب. أدركتُ أنَّه الممثِّل الذي كان يتنكَّر في ثياب صاحب العقل الحيدر آبادي والذي أُخبرنا أنَّ اسمه (سَنِل). على نحو مفاجئ بعض الشيء قادنا إلى إمِلي التي كانت تتَّكئ على الدَّرابزين مرتديةً ثوبًا أبيض أخذ يلمع كلَّما اقترب الرجل. غطَّاها صاحب العقل الحيدر آبادي جزئيًّا فأخذت أصابعه وضمَّتها بين يديها. لم يكن باستطاعتنا القول إن كانا يتبادلان الحديث.

تراجعنا إلى الوراء بعيدًا في الظلمة وانتظرنا. رأيت الرجل يزيح رباط ثوبها ويضع وجهه على كتفها. كان رأسها مائلًا إلى الخلف وتنظر عاليًا إلى النجوم، إن كان ثمَّة نجوم.

لقد كانت الثلاثة أسابيع التي قضيناها في الرحلة البحريَّة، كما أتذكَّرها في الأصل، هادئة. الآن فقط، بعد سنوات، لمَّا حثَّني أبنائي على وصف الرحلة، أصبحت مغامرةً وأنا أراها بعيونهم، بل أصبحت شيئًا مهمًّا في الحياة، طقسَ عبور. بيْد أنَّ الحقيقة هي أنَّ العظمة لم تُضَف إلى حياتي، وإنَّما أُخِذت منها. كلَّما دنا الليل، افتقدتُ جوقةَ الحشرات، وصخبَ طيور الحديقة، ونقيضَ الوَزَغ. وفي الفجر أفتقد المطرَ في الشجر، والقَطِرانَ الرَّطبَ في شارع (بَلَرْز)، وحرقَ الحبال في الطريق الذي طالما كان أوَّل روائح اليوم البارزة.

اعتدتُّ في بعض أصباح بورالِزغامُوا الصَّحوَ باكرًا وشقَّ طريقي في البَنْغَل[20] الفسيح المظلم حتى أبلغ باب نارايان. لم تحِن السادسة تمامًا بعد. كنت أنتظر إلى أن يخرج وهو يُحكِم ربط السَّارُنْغ. كان يومئ إليَّ وفي غضون دقائق نمشي على عجلٍ وبصمت على العشب الرطب. لقد كان رجلًا فارع الطُّول، وكنت صبيًّا في الثامنة أو التاسعة. كلانا كان حافي القدمين. نقترب من الكوخ الخشبي في أسفل الحديقة. وحين ندخل يشعل نارايان فتيل شمعة

(20) بيت خفيض السقف مؤلف من طابق واحد.

متبقِّية، وينحني ومعه الضوء الأصفر، ويسحب الحبل فتتفجَّر الحياة في المولِّد الكهربائي.

هكذا كانت أيامي تبدأ بالاهتزاز المكظوم والهائل لهذا المخلوق الذي يُطلِق رائحة البترول والدُّخان اللَّذيذة. لم يكن يفهم عادات المولِّد ونقاط ضعفه، حوالي عام 1944، إلا نارايان. يهدِّئه شيئًا فشيئًا ثم نخرج إلى الهواء الطَّلق وأرى من خلل ما تبقَّى من ظلمةٍ المصابيحَ وهي تضيء بتردُّد في منزل خالي.

كنَّا نخرج نحن الاثنان عبر البوَّابة إلى الشارع العام. بضعة متاجر تكون مفتوحة، كلٌّ منها يضيئه مصباح واحد. كنَّا نبتاع وجبة بيض (هوبر) من متجر (جينا داسا) ونأكلها وسط الشارع المهجور تقريبًا، وأكواب الشاي عند أقدامنا. تُجَرُّ عربات العجول وهي تَصِرُّ، وما زال سائقوها وحتى العجول نصف نيام. طالما رافقت نارايان لأجل وجبة الفجر هذه بعد تشغيله المولِّد الكهربائي. لم أكن لأُفوِّت تناول الإفطار معه في الشارع العام، حتى إن كنت سألتَهِم إفطارًا آخر أكثر رسميَّة مع العائلة بعد ساعة أو ساعتين. بيْد أنَّ الأمر كان بطوليًّا أن أسير بمعية نارايان في الظلام المتبدِّد مُحيِّيًا التُّجَّار المستيقظين توًّا، وأرقبه وهو ينحني لإشعال غليونه فوق قطعة من حبل قُنَّبِيٍّ لدى كُشْك السجائر.

حين كنت طفلًا كان نارايان والطَّبَّاخ غونِبالا رفيقيَّ الدائمين، ولعلَّني كنت أقضي وقتًا معهما أكثر مما أفعل مع عائلتي وتعلَّمت منهما الكثير. كنت أرقب نارايان وهو يفكُّ شِفار جزَّازة العشب كي يشحذها، أو يزيِّت سلسلة دراجته بلطف براحة يده. كنَّا كلَّما ذهبنا إلى (غالي)[21]،

(21) مدينة في جنوب سريلانكا.

أنزل ونارايان وغونِبالا عبر السَّدِّ إلى البحر ونسبح كي يتمكّنا من الصيد عند الشِّعاب المرجانية للعشاء. كانوا يجدونني في وقت متأخِّر من المساء نائمًا عند أقدام سرير الآية[22] فيحملني خالي إلى حجرتي. غونِبالا، الذي يمكن أن يكون قاسيًا وسريع الغضب، كان موسوِسًا بالكمال. كنت أراه يلتقط أيَّ طعام مشكوك فيه من وعاء يغلي بأصابعه الثَّفِنة ويلقي به عشرة أقدام بعيدًا في حوض الزَّرع، سواء كان عظم دجاجة أو (تاكالي)[23] ناضجة، فتأكله فورًا كلاب الصيد التي تحوم في الأنحاء وهي تعرف عادته هذه. كان غونِبالا يجادل الجميع – أصحاب المتاجر، بائعي تذاكر اليانصيب، رجال الشرطة المحقِّقين – بيْد أنه كان يدرك عالمًا لا مرئيًّا لنا نحن البقية. حين يطبخ يصفر محاكيًا أصواتًا متنوعة من صياح الطيور التي كانت لا تُسمَع في المدينة إلا لِمامًا، ولكنها مألوفة له منذ طفولته. لا أحد سواه له ذاك التركيز الخاص على ما يكون أو يمكن أن يكون مسموعًا لنا. أيقظني ذات أصيل من نوم عميق، أخذ بيدي، وجعلني أستلقي على المدخل قُرب سماد العجول الذي كان هناك منذ ساعات عديدة. سحبني قريبًا منه تمامًا وجعلني أصغي إلى الحشرات داخل الخِراء وهي تلتهم هذه الوليمة وتشقُّ نفقًا من أحد أطرافه إلى الطرف الآخر. كان يعلِّمني في وقت فراغه مقاطع بديلة لأغاني (البَيْلا)[24] الشعبية المليئة بالبذاءة، ويجلعني أقسم بأن لا أردِّدها لأنها تعود إلى طبقة عليا ذائعة الصِّيت.

كان نارايان وغونِبالا دليليَّ الأساسيَّين والعطوفين خلال

---

(22) الآية: ممرِّضة أو خادمة.

(23) طماطم ناضجة تُطهَى بالزيت والبهار.

(24) baila ضرب من الأغاني الفلكلورية في سريلانكا.

مرحلة غير ناضجة في حياتي، وقد جعلاني بطريقة ما أسائل العالم الذي كنت أخالني أنتمي إليه. لقد فتحا الأبواب لي إلى عالم آخر. حين غادرت البلاد في عمر الحادية عشرة كان أكثر ما أحزنني هو فراقهما. بعد سنوات طوال، وقعتُ على روايات الكاتب الهندي (آر كيْ نارايان) في مكتبة في لندن. ابتعتُها كلَّها وتخيَّلت أنَّ من كتبها صديقي نارايان الذي لن أنساه أبدًا. رأيت وجهه خلف العِبارات، وتخيَّلت جسده الفارع الطول جالسًا إلى طاولة متواضعة قرب نافذة غرفته الصغيرة ينجز فصلًا عن (مَلْغُودي)[25] قبل أن تناديه عمَّتي ليقوم بشيء أو آخر. "ستكون الطرقات مظلمة تمامًا عندما أنطلق إلى النهر للوضوء، عدا مصابيح البلدية التي تومض (إن لم تفرغ من الزيت) هنا وهناك في شارعنا.... طوال الطريق أصادف أشخاصًا واضحي المعالم. بائع الحليب وقد بدأ جولاته سائقًا أمامه بقرة بيضاء عجفاء، فيحييني باحترام ويسأل: كم الساعة يا سيدي؟ سؤال أتركه يموت دونما إجابة لأنني لا أحمل ساعة... الحارس في مكتب (تالوك) من تحت دثاره: أهذا أنت؟ السؤال الوحيد الذي يستحق ردًّا. أجل، إنه أنا، أقول دائمًا وأمضي."

أعرف أنَّ صديقي كان يدرك تفاصيل كهذه في نُزَهِنا الصباحية على طول الشارع العام. أعرف سائق عربة العُجول، أعرف المُصاب بالرَّبو الذي يعمل في كشك السجائر.

***

(25) بلدة خيالية في جنوب الهند ترد في روايات الكاتب الهندي آر كي نارايان.

وبعد ذلك، شمَمت في أحد الأيام قُنَّبًا محروقًا في الباخرة. لحظةً وقفت ساكنًا، ثم تحرَّكت تجاه سلَّم حيث كانت الرائحة أكثر قوة، تردَّدت أأنزل أم أصعد، ثم ارتقيت السُّلَّم. أتت الرائحة من رواق في السطح (د). وقفت حيث بدت أقوى، جثوتُ على ركبتي، وتشمَّمت الشِّقَّ البالغ إنشًا تحت الباب المعدني. طرقت الباب بهدوء.

"نعم؟"

دخلت.

كان يجلس إلى المائدة رجل لطيف المظهر. وكان للحجرة كُوَّة. كانت مفتوحة وبدا الدُّخان المتصاعد من حبل كان طرفه يحترق وكأنه يتبع مسارًا فوق كتف الرجل ثم يخرج من الكُوَّة. "نعم؟" سأل مرة أخرى.

"أحببت الرائحة. أفتقدها."

ابتسم لي وأشار إلى فراغ على سريره كي أجلس. فتح دُرجًا وأخرج لفَّة حبل طولها ياردة. كان من نوع الحبل القُنَّبي ذاته المعلَّق ليحترق ببطء خارج أكشاك السجائر في (بامبالابيتيا) أو في سوق بتاه، وفي أيِّ مكان في المدينة، حقًّا، حيث تشعل السيجارة الوحيدة التي ابتعتَها توًّا هناك، أو إن كنت تجري وتودُّ أن تسبِّب إزعاجًا فإنك تستخدم طرف اللِّفافة المحترق لتشعل فتيل مفرقِعة نارية.

قال: "أعلم أنني سأفتقدها كذلك، وأشياء أخرى. (كوثامالي)[26]. بلسم. لديَّ مثل هذه الأشياء في حقيبتي. لأنني مغادر إلى الأبد." أشاح بوجهه لحظة. بدا الأمر وكأنَّما يقوله بصوت عال لنفسه أوَّل مرَّة.

(26) كُزْبَرَة.

"ما اسمك؟"

قلت: "مايكل."

"كلَّما شعرتَ بالوحدة يا مايكل يمكنك دومًا المجيء إلى هنا."

أومأت، ثم خرجت وأغلقت الباب ورائي.

كان اسمه السيد (فونْسِكا) وكان مسافرًا إلى إنكلترا ليصبح معلِّمًا. كنت أزوره كلَّ بضعة أيام. يعرف فقرات من كل صنوف الكتب يستطيع إلقاءها عن ظهر قلب، وكان يجلس إلى طاولته طوال اليوم مسائلًا الكتب ومفكِّرًا في ما عساه يقول عنها. كنت أعرف القليل عن عالم الأدب، بيْد أنَّه رحَّب بي راويًا قصصًا غير عادية ومهمَّة، متوقِّفًا بغتةً في منتصف قصة ليقول لي أنني سأعرف يومًا مَا ما الذي حدث بعد ذلك. "أعتقد أنك ستحبُّها. لعلَّه سيجد النَّسر." أو، "سينجون من المتاهة بمساعدة شخص هُم على وشك لقائه..." غالبًا، في أثناء الليل، عندما أطارد عالم الكبار مع رام الدِّين وكاسْيَس، أحاول أن أضيف إلى العظام العارية لمغامرةٍ تركها السيد فونْسِكا غير مكتملة.

لقد كان كيِّسًا في هدوئه. عندما يتحدَّث يكون متردِّدًا وبطيئًا. حتى في ذلك الحين كنت أفهم حديثه القليل عبر سرعة إيماءاته. كان لا يقف إلَّا عندما يكون الأمر ضروريًّا، وكأنَّه قطَّة عليلة. لم يكن معتادًا النشاط العامّ، مع أنَّه سيصبح جزءًا من عالم عامّ بصفته معلِّم أدب وتاريخ في إنكلترا.

حاولت تملُّقَه للخروج إلى سطح الباخرة مرَّاتٍ عديدة، بيْد أنَّ كُوَّتَه وما استطاع أن يراه عبرها بدت مشاهد طبيعيَّة كافية له. بصحبة كتبه، وحبله المحترق، وبضع قناني ماء نهر (كيلاني)، إلى جانب

بضع صور فوتوغرافية عائليَّة، لم يكن بحاجة إلى ترك كبسولته الزَّمنيَّة. كنت أزور تلك الغرفة الدُّخانيَّة حينما يكون النهار مضجرًا، ويبدأ هو عند نقطة ما بالقراءة لي. لقد كان ما في القصص والقصائد من غموض هو الشيء الذي تغلغل عميقًا داخلي. وكان تموُّج قصيدة مقفَّاة شيئًا جديدًا. لم أفكِّر أنَّه كان في الحقيقة يقتبس شيئًا مكتوبًا برويَّة، في بلاد ما بعيدة، منذ قرون خلت. لقد عاش في كولومبو حياتَه كلَّها، وكان مسلكُهُ ولُكنتُهُ نتاجَ هذه الجزيرة، بيْد أنَّه في الوقت ذاته كان يملك هذه المعرفة الواسعة النطاق من الكتب. كان يُغنِّي أغنية من الآزور أو يتلو سطورًا من مسرحيَّة إيرلنديَّة.

أحضرت كاسْيَس ورام الدِّين للقائه. أصبح فضوليًّا بشأنهما، وجعلني أخبره بمغامراتنا في الباخرة. لقد فَتَنَهما أيضًا، ولا سيَّما رام الدِّين. بدا أنَّ السيد فونْسِكا ينشدُ طمأنينةً أو مزاجًا هادئًا من الكتب التي كان يقرأها. كان يحدِّق إلى زمنٍ لا يمكن تخيُّله (تقريبًا يستطيع المرء أن يرى الأيام وهي تطير في الرُّوزنامة) ويقتبس سطورًا مكتوبة في حجر أو ورق بَرْدي. أحسب أنه يتذكَّر هذه الأشياء ليوضِّح رأيه، مثل رجل يُزرِّر سُتْرتَه لكي يمنح نفسه الدفء وحسب. لن يصبح السيد فونْسِكا ثريًّا. وسيكون على يقينٍ بأن يحيا حياةً مقتصِدة كمعلِّم مدرسة في مدينة ما. ولكنَّه يتمتَّع بصفاء نفس أتى من اختياره الحياةَ التي يودُّ أن يحياها. وهذا الصفاء واليقين لا أراهما إلا في أولئك الذين يجعلون وِقاء الكُتب على مقربة منهم.

إنني أدرك الأسى والسخرية القدريَّة المرافقيْن لوصف كهذا. كلُّ إصدارات دار (بنغوين) المُلطَّخة تلك من كتب (أورويل) و(غِسِنغ) وتراجم كتب (لوكريتيوس) بحافَّاتها الأرجوانيَّة، التي جلبها معه. لا بدَّ

أنه اعتقد أنها ستكون حياة متواضعة ولكنها جيدة لآسيوي يعيش في إنكلترا، حيث سيكون ما يتقنه من قواعد لاتينية سلاحًا بارزًا.

إنني أتعجَّب ممَّا يكون قد حلَّ به. كنت كلَّما تذكَّرت كلَّ بضع سنين، أبحث عن أيَّة إشارة إلى فونْسِكا في المكتبات. أعلم أنَّ رام الدِّين ظلَّ على اتصال به في أثناء سنواته الأولى في إنكلترا. بيْد أنني لم أفعل. ومع ذلك، فإنني أدرك أنَّ أشخاصًا كالسيد فونْسِكا أتوا قبلنا كفرسان أبرياء في وقت أشد خطرًا، واتَّخذوا المسار ذاته الذي نتَّخذه نحن أنفسنا الآن، وفي كل خطوة كانت هناك الدُّروس نفسها دون شك، وليست الأشعار التي نحفظها عن ظهر قلب على نحو صارم، تمامًا مثلما كان هناك اكتشاف المطعم الهندي الرَّخيص في (لِويشَم)، والفتح والإغلاق ذاتهما للرَّسائل الزرقاء المُرسلة إلى سيلان ثمَّ بعد ذلك إلى سريلانكا، والتفاهات والإهانات والمحرِجات نفسها عند نطق الحرف (v) وطريقتنا السريعة في الحديث، والأكثر من ذلك كلِّه صعوبة الاندماج، ثم ربَّما القبول والارتياح الخجولان في شقَّة شبيهة بمقصورة في سفينة.

أفكِّر في السيد فونْسِكا وهو في تلك المدارس الإنكليزية مرتديًا سترته المزرَّرة حمايةً لنفسه من الطقس الإنكليزي، وأتعجَّب كم من الوقت مكث هناك، وإن كان قد مكث حقًّا "إلى الأبد." أم أنه في نهاية المطاف لم يسعه البقاء، حتى وإن كان المكان في نظره "مركز الثقافة"، وبدلًا من ذلك عاد إلى الوطن على متن رحلة طيران (آير لانكا) التي تستغرق ثلثي اليوم وحسب، ليبدأ مجدَّدًا ويدرِّس في مكان مثل (نيوجِيغودا). اللَّندني العائد. هل كانت تلك الفِقْرات والمقاطع المحفوظة من الآثار الأوروبيَّة التي جلبها في عودته تعادل لفَّة حبل

أو قنينة من ماء النهر؟ هل لاءمها أو ترجمها، وهو يصرُّ على تدريسها في مدرسة قرويَّة على لوح أسود تحت ضوء الشمس، وصياح طيور الغابة الحادُّ ينطلق في الجوار؟ هل خامرته فكرة ما لنظام في نيوجِيغودا؟

لقد أصبحنا حتى الآن على معرفة تامَّة بمعظم المواقع في الباخرة، من قنوات مجرى الهواء التي تشقُّ رحلتها بعيدًا عن مراوح المولِّد، إلى الطريقة التي أنزلق بها إلى غرفة إعداد السمك (بالزَّحف عبر مدخل العربات) لأنني كنت أحبُّ مشاهدة جزَّاري السمك يعملون. مرَّةً، وقفتُ وكاسْيَس على الدَّعائم الضَّيِّقة فوق سقف صالة الرَّقص المؤقَّت لكي ننظر إلى الأسفل إلى الرَّاقصين. كان الوقت منتصف الليل. في غضون ست ساعات، حسب جدولنا، ستُحمَل الدَّواجن من "الغرفة الباردة" إلى المطابخ.

اكتشفنا أنَّ للباب المفضي إلى المستودع مزلاجًا ضعيفًا، وحين تكون الغرفة فارغة نَجُوْلُ فيها متحسِّسين المسدَّسات والأصفاد. وعرفنا أنَّ كل قارب نجاة كان يحوي بوصلة، وشراعًا، وعوَّامة مطَّاطيَّة، إضافة إلى ألواح حلوى للطوارئ سبق أن أكلناها. أخبرنا السيد دانيَلْز أخيرًا بأنَّ النبات السام يوجد في الجزء المسوَّج. من حديقته. استرعى انتباهنا إلى أنَّ عشبة (بايبر مِفِسْتِكُم)[27] "تشحذ العقل." قال أنَّ المُسنِّين في جزر المحيط الهادئ دائمًا ما

(27) في الأصل: Piper mephisticum

يتناولونها قبل مناقشة أيَّة معاهدة سلام حاسمة. وكانت هناك نبتة الكُورار التي تنمو تقريبًا سرًّا بنفسها تحت ضوء أصفر ساطع، والتي أخبرنا بأنَّها حين تُغرز في تيَّار الدَّم يمكنها أن تُدخِل متلقِّيها في نشوة منسيَّة طويلة.

كما إننا كنَّا على معرفة بجداول مواعيد غير رسميَّة، راوحت بين وقت بدء الأسترالية تزلُّجها قبل طلوع النهار والساعة المتأخرة حين ننتظر عند قارب النجاة ظهورَ السجين. تأمَّلناه مليًّا. استطعنا أن نرى أنَّ ثمَّة قيدًا معدنيًّا حول كلا رسغيْه. وقد رُبِط بينهما بسلسلة طولها ثمانية عشر إنشًا، ما أتاح ليديه بعض الحركة، وكان هناك قفل.

راقبناه بصمت. لم يكن ثمَّة اتصال بينه وبيننا نحن الثلاثة. إلا ذات ليلة، حين توقَّف في نزهته على حين غِرَّة وحملق في الظلام صوبنا. لم يكن بمستطاعه رؤيتنا. بيْد أنَّ الأمر بدا وكأنَّه شعر بنا هناك، والتقط رائحتنا. لم ينتبه إلينا الحرَّاس، هو فقط من انتبه. جَأَر بصوت عالٍ وولَّى عنَّا. لا بدَّ أننا كنَّا بعيدين عنه بقدر خمس عشرة ياردة، وكان مصفَّدًا، ولكنَّه أفزعنا.

سِحْر

إن كانت رحلتنا إلى إنكلترا قد سُجِّلت لأيِّ سبب من الأسباب في الصُّحف في ذلك الحين، فذلك لأنه كان على متن الأُورُونسَي المُحْسِن (السّير هكتور دو سِلڤا). ركب الباخرة وكان مسافرًا مع حاشيته التي كان فيها طبيبان وأيروفيديّ ومحام وزوجته وابنته. أقام معظمهم في الطوابق العليا من عابرة المحيط ولم نكن نراهم إلا لِمامًا. لم يقبل أحد من مجموعته الدَّعوة لتناول الطعام على مائدة القبطان. لقد افتُرِض أنهم كانوا في منزلة أعلى حتى من ذلك. مع أنَّ السبب الحقيقي هو أن السّير هكتور، رجل الأعمال القادم من (مُوراتُوا) الذي قامت ثروته على الجواهر والمطَّاط وقطع الأراضي، كان يعاني مرضًا فتَّاكًا على الأرجح وهو في طريقه إلى أوروبا ليجد طبيبًا ينقذه.

ما من اختصاصي إنكليزي رغب في القدوم إلى كولومبو لمعالجة مشكلة السّير هكتور الصِّحيَّة، بالرَّغم مما عُرِض عليهم من مكافآت سخيَّة. فشارع (هارلي) يبقى في شارع هارلي، بالرَّغم من توصية المحافظ البريطاني الذي تناول العشاء مع السّير هكتور في قصره الكولومبي، وبالرَّغم من حقيقة أنَّ السّير هكتور مُنِح لقب فارس في إنكلترا لِمَا قدَّمه من تبرُّعات لمؤسسات خيريَّة عديدة. ولذلك

هو الآن يحظى بالعناية في جناح مزدوج فخم في الأُورُونسَي، يعاني داء الكلب. في البداية لم نشغل أنفسنا بمرض السّير هكتور. نادرًا ما كان أولئك المجتمعون إلى مائدة القط يأتون على ذكر وجوده على متن الباخرة. كان ذائع الصيت بسبب ثروته الواسعة، وذلك لم يمثِّل أيَّ اهتمام لنا. بيْد أنَّ ما أثار فضولنا كان اكتشاف القصَّة وراء رحلته المميتة.

لقد حدث ذلك على النحو الآتي. ذات صباح كان هكتور دو سِلفا يتناول إفطاره في شرفته مع أصدقائه. كانوا يتبادلون المزاح فيما بينهم بالطريقة التي يُسلِّي بها بعضهم بعضًا أولئك الذين يحيون حياة آمنة ومريحة. في تلك اللحظة، مرَّ راهبٌ جليل[28] قريبًا من المنزل. وحين رأى السّير هكتور الرَّاهبَ أخذ يتلاعب بلقبه قائلًا: "آه، ها قد أقبل (مُوتارابالا)[29]." (مُوتارا) تعني "بَائِل"، و(بالا) تعني "كلب." وهكذا، "ها قد أقبل كلبٌ بَائِل."

كان تعليقًا ذكيًّا ولكنَّه غير ملائم. وصادف أن سمع الرَّاهب الإهانة فتوقَّف وأشار إلى السّير هكتور وقال: "سأرسل إليك مُوتارابالا..." وبعدها مضى الجليل المعروف عنه مزاولته الشعوذة مباشرة إلى المعبد حيث تلا بعض التعويذات، خاتمًا مصير السّير هكتور دو سِلفا وغالقًا الباب على عيشه الرَّغيد.

ليس بإمكاني تذكُّر مَن أخبرنا بالجزء الأوَّل من تلك القصة، بيْد أنَّ الفضول الذي استحوذ عليَّ وعلى كاسْيَس ورام الدِّين جعل حضور المليونير في درجة الإمبراطور يرقى إلى واجهة أفكارنا.

---

(28) في الأصل بالسِّنهاليَّة: battaramulle

(29) muttaraballa

وقد انشغلنا محاولين بعد ذلك معرفة قدر ما نستطيع. حتى إنني بعثت ملحوظة إلى راعيتي المزعومة فلاقيا برِنْز وقابلتني فترةً وجيزة عند المدخل المؤدي إلى الدرجة الأولى وقالت أنها لا تعرف شيئًا. وقد انزعجتُ لأنَّ ملحوظتي ألمحت إلى حالة طارئة وأنني قاطعتها وهي تلعب إحدى ألعاب البْريدْج المهمَّة. المشكلة أنَّ الآخرين عند مائدة القط لا يتحدَّثون عن الأمر كثيرًا. ليس على نحوٍ كافٍ لنا. ولذا لجأنا في نهاية المطاف إلى مساعد ضابط المحاسبة (الذي كان بعين زجاجية كما لاحظ رام الدِّين) وكان بمستطاعه كشف الكثير.

بعد مرور حينٍ من الوقت على واقعة الرَّاهب الجليل العابر، كان السّير هكتور يهبط سلالم منزله الكبير. (استخدَم مساعد ضابط المحاسبة عبارة "يصعد السلالم هابطًا.") كان كلبه (التَّرْيَر)[30] ينتظره أسفل السلالم ليحيِّيه. حَدَثٌ معتاد. كان هذا الحيوان يحظى بمحبَّة جميع أفراد العائلة. وحين مال السّير هكتور، قفز الحيوان العطوف إلى عنقه. أبعد السّير هكتور عنه الكلب، وفي تلك الأثناء عضَّ الحيوانُ يدَه.

تمكَّن اثنان من الخدم أخيرًا من الإمساك بالمخلوق ووضعه في وِجار. وفي الأثناء التي حُبِس فيها الحيوان راح أحد الأصهار يعالج العضَّة. بدا جليًّا أنَّ التَّرْيَر قد سلك مسلكًا غريبًا ذلك الصباح، وهو يعدو في المطبخ تحت أقدام الخدم، وقد طاردوه إلى خارج المنزل بمكنسة قبل أن يعود في اللحظات الأخيرة هادئًا وصامتًا كي ينتظر سيِّده أسفل السلالم. لم يعضَّ الكلب أحدًا في أثناء المطاردات السالفة.

---

(30) terrier كلب صغير نشيط ذكي من كلاب الصيد.

لاحقًا في ذلك اليوم مرَّ السّير هكتور أمام الوِجار وهزَّ أصبعه المضمَّدة للحيوان. بعد أربع وعشرين ساعة مات الكلب، وقد ظهرت عليه أعراض داء الكلب. بيْد أنَّه عند ذلك الحين كان "الكلب البَائِل" قد بلَّغ رسالته.

أتوا واحدًا تلو الآخر. لقد جُلِب كلُّ طبيب محترم كان يعمل في منطقة كولومبو 7 للاستشارة في مسألة العلاج. كان السّير هكتور (باستثناء بعض مهربي الأسلحة والذّخيرة غير الشرعيين أو تجَّار الجواهر المجهولة ثرواتهم دومًا) أغنى رجل في المدينة. كان الأطباء يتحدَّثون همسًا على طول أروقة منزله، يناقشون ويتحايلون بالحجج حول داء الكلب الذي كان قد بدأ يؤثِّر في الجسد الثري في الطابق العلوي. كان الفيروس ينتقل إلى الخلايا الأخرى بسرعة تُراوِح بين خمسة وعشرة ميلِّلمترات في الساعة، وكانت هناك أعراض قد تبدَّت مثل الالتهاب والحكَّة والنَّمَل في موضع العضَّة، بيْد أنَّ العلامات المُريعة لداء الكلب لم تكن قد ظهرت بعد. وبينما يتلقَّى المريض الرعاية الداعمة فإنَّ فترة المرض قد تستمر خمسة وعشرين يومًا قبل أن تصبح قاتلة. أُخرِج التَّرْيَر من قبره وفُحِص مرَّةً أخرى للتيقُّن من داء الكلب. أُرسِلت البرقيَّات إلى بروكسل وباريس ولندن. وحُجِزت تحسُّبًا ثلاثُ قاعات فاخرة على ظهر الأُورُونسَي، التي كانت الباخرة التالية المتجهة إلى أوروبا. كانت الباخرة ستتوقَّف في عدن وبورسعيد وجبل طارق، وكان مأمولًا أن يتمكَّن أحد الاختصاصيين من لقاء الباخرة في أحد هذه المواقع على الأقل.

بيْد أنَّه قيل أيضًا أنَّ على السّير هكتور أن يبقى في البلاد، لأنه من المرجَّح أن تسوء حالته خلال رحلة من الممكن أن تكون

قاسية حيث تقلُّ الخدمات الطبية، إضافة إلى حقيقة وجود طبيب من الدرجة الثانية عادةً على متن الباخرة، طبيب متمرِّن في الثامنة والعشرين من عمره عادةً يتمتَّع أبواه بالنفوذ في مقرِّ شركة الخطوط الجوِّيَّة الشَّرقيَّة. فضلًا عن ذلك، كان مزاولو العلاج الأيروفيدي يفِدون إلى المنزل من مقاطعة موراتُوا أيضًا، حيث عاشت سلالة (والاأُوا)[31] التي تنحدر منها عائلة دو سِلفا منذ أكثر من قرن، وقد زعم هؤلاء الرجال أنهم نجحوا في علاج ضحايا داء الكلب. وجادلوا بأنَّ السّير هكتور إذا ما بقي في الجزيرة سيكون أكثر قربًا من أكثر أدوية الأعشاب نجاعة في البلاد. لقد تحدَّثوا بصخب باللهجات القديمة التي ألِفها منذ شبابه، قائلين أنَّ الرحلة ستجعله بعيدًا عن هذه المصادر الفعَّالة. ولمَّا كان سبب المرض محلِّيًّا، فإنَّ التِّرياق يوجد دائمًا في بقعة ما من المكان نفسه.

وفي نهاية المطاف، عقد السّير هكتور العزم على ركوب الباخرة المتجهة إلى إنكلترا. بامتلاكه الثروة، امتلك أيضًا الإيمان التام بالتَّقدُّم في أوروبا. لعلَّ هذا الإيمان سيثبت خطأه الفادح. كانت رحلة الباخرة ستستغرق واحدًا وعشرين يومًا. وقد حسب أنه سيُحمَل فورًا من رصيف ميناء (تِيلبْرِي) إلى أفضل طبيب في شارع هارلي، حيث، فكَّر، قد يكون هناك حشد محترم بانتظاره في الخارج مع بعض السِّيلانيِّين الذين يدركون جيِّدًا وضعه المالي. لقد قرأ هكتور دو سِلفا رواية روسيَّة واحدة وبإمكانه تصوُّر كلِّ شيء، في حين إنَّ العلاج في كولومبو بدا معتمِدًا سحرَ القرية والتنجيم والمخططات النباتية المكتوبة بخط يد عنكبوتي. لقد ترعرع وهو يعرف بعض أنواع العلاج المحلِّي مثل

(31) walauwa

التَّبَوُّل سريعًا على قدم تخفيفًا للألم الناتج عن لسعة حيوان قلم البحر. وقد قيل له أنَّ علاج عضَّة كلب مسعور هو بذور شجرة (أُوماتاكا) السوداء، أو التفاحة الشَّوكيَّة عندما تُنقَع في بول بقرة، وتُسحَق حتى تصير عجينة ثم تُتناوَل شُربًا. وبعد أربع وعشرين ساعة ينبغي أن يستحمَّ المريض بماء بارد ويشرب مخيض اللبن. لقد كانت الأقاليم تعجُّ بهذه الأدوية. أربعة من أصل سبعة أدوية كانت تنجح. لم يكن ذلك جيِّدًا على نحوٍ كاف.

ومع ذلك، أجبر السّير هكتور دو سِلفا طبيبًا أيروفيديًّا من موراتُوا على مرافقته في الرحلة البحريَّة، وجَلَب حقيبته الملأى بالأعشاب التي جمعها محلِّيًّا وبعض بذور الأوماتاكا وجذورها التي تنمو في النِّيبال. وهكذا، مع طبيبين موثوقٍ بهما، ركب هذا الطبيب الأيروفيدي متن الباخرة. تشاطر هؤلاء الأطباء جناحًا يقع في أحد جانبي حجرة السّير هكتور الرئيسة، في حين تشاطرت زوجته وابنته ذات الثالثة والعشرين جناحًا آخر في الجانب الآخر.

وهكذا، فتح المعالج الأيروفيدي الموراتُواوي، في عُرْض المحيط، صندوقَه الخاص بالسفن البخاريَّة الذي حوى مراهم وسوائل، وجلب بذور التفاح الشوكي الذي كان قد غمره سابقًا في بول البقر، ومزجه ببعض عجينة سُكَّريَّة لتمويه المذاق، وهرول في الرَّدهة ليعطي المليونير كوبًا من هذا المَرَق الشبيه بمرق النَّزلة الصدريَّة ليبتلعه، وأتبعه بكأس براندي فرنسي فاخر أصرَّ المُحْسِن على تناوله. كان هذا يُنفَّذ مرتين في اليوم، وكان عمل الطبيب الأيروفيدي الوحيد. ولذا، بينما يعتني الطبيبان المحترفان بالمريض بقيَّة اليوم، يحظى الموراتُواوي بحرِّيَّة التنقُّل في الباخرة، مع أنَّ الأوامر كانت واضحة بأن

يحصر جولاته في الدرجة السياحية. لا بدَّ أنه هو أيضًا جال في أرجاء الباخرة، وأدرك غياب الروائح في باخرة نظيفة على نحو مهووس إلى أن التقط ذات يوم رائحة الحبل المحروق المألوفة وتبعها حتى بلغ مصدرها في السطح (د)، توقَّف عند الباب المعدني، طرقه، سمع ردًّا، ودخل ليستقبله السيد فونْسِكا وفتى.

كنَّا قد أمضينا في البحر أيَّامًا عدَّة عندما وقعت هذه الزيارة. كان الأيروفيدي هو من كشف التفاصيل القليلة الأخيرة لقصة هكتور دو سِلفا، بتردُّد في البداية، ولكن في نهاية المطاف خرجت منه تقريبًا كلُّ التفاصيل المهمَّة. ثمَّ قابل في ما بعد من خلالنا السيد دانيَلْز الذي اتَّخذه صديقًا ودعاه إلى العنبر لمشاهدة حديقته حيث راحا يقضيان ساعاتٍ يتجادلان في طبِّ النبات ويُناقشانه. كاشيَس أيضًا اتَّخذ من الأيروفيدي صديقًا جديدًا وطلب فورًا بضع أوراق تنبول من الطبيب الجنوبي الذي جلب كيسًا معه.

لقد أثارتنا الاكتشافات السُّريالية بشأن الرجل الذي حلَّت عليه اللَّعنة. جمعنا كلَّ قطعة تتعلَّق بحكاية السّير هكتور وبقينا متعطِّشين إلى المزيد. عدنا بأفكارنا إلى الوراء إلى ليلة مغادرة ميناء كولومبو وحاولنا أن نتذكَّر أو على الأقل أن نتخيَّل نقَّالةً، وجسدَ المليونير محمولًا بميْل طفيف على المِعْبَر. سواءٌ شهدنا هذا أم لم نشهده، فقد غدا من المتعذَّر الآن محو المشهد من عقولنا. إنها أوَّلُ مرَّةٍ في حياتنا اهتممنا فيها بمصير الطبقات العليا، وشيئًا فشيئًا بات جليًّا لنا أنَّ السيد مازابا وأساطيره الموسيقية، والسيد فونْسِكا وأغانيه من الآزور، والسيد دانيَلْز ونباته، الذين كانوا حتى ذلك الحين مثل

الآلهة لنا، لم يكونوا إلا شخصيات ثانوية وُجِدت لتشهد كيف يتقدَّم في العالم أولئك الذين يتمتَّعون بسلطة حقيقية أو كيف يفشلون.

الأصائل

لقد كان جليًّا حين عرض السيد دانيَلْز على ثلاثتنا أوراق التَّنبُول لنمضغها أنَّ كاسْيَس كان قد اعتادها من قبل. وبحلول الوقت الذي أُعلِم فيه بأنه سيلتحق بمدرسة في إنكلترا كان قد أصبح قادرًا على نفث بخار السائل الأحمر من بين أسنانه وضرب أيِّ شيء يريد؛ وجهٍ في لوحة إعلانات، البِنطال الذي يغطي مؤخِّرة أحد المعلمين، رأس كلب يطلّ من النافذة المفتوحة لسيارة عابرة. في أثناء الإعداد لرحيله لم يسمح له والداه بأخذ أوراق تنبول أملًا في علاجه من عادة الشوارع هذه، بيْد أنَّ كاسْيَس حشا كيس مخدَّته بكمية وافرة من الأوراق والجوز. في أثناء الوداع العاطفي في ميناء كولومبو، حين كان أبواه يلوِّحان له من الرَّصيف، سحب كاسْيَس ورقة خضراء ولوَّح لهما. لم يكن متيَّقنًا قطُّ إن كانا قد رأياها، ولكنَّه تمنَّى أن يكونا قد شهدا مَكْرَه.

لقد مُنِعنا السباحةَ في حوض (لِيدو) ثلاثة أيام. إنَّ هجومنا عليه ذلك الأصيل مسلَّحين بمقاعد الباخرة وبتأثير سيجارة "البِيدي الأبيض" التي أعطانا إياها السيد دانْيَلْز عَنَى أنَّ كلَّ ما باستطاعتنا فعله هو التَّسلُّل عبر السياج الخارجي والتظاهر بأننا على وشك

القفز في الحوض. في مقرّنا في غرفة المُولِّد عقدنا العزم على البحثِ عن كل ما يمكننا العثور عليه عن المسافرين المجتمعين حول مائدة القط، وتقاسمِ أيَّة معلومات نجدها بأنفسنا. أبلَغَنا كاسْيَس أنَّ الآنسة لاسْكِتِي، المرأة الشاحبة المظهر التي تجلس بقربه في أثناء تناول الوجبات قد "صدمت عضوه" بمرفقها بقصد أو بغير قصد. لقد قلتُ أنَّ السيد مازابا، مثلما تضع فرقة المروج المشمسة نظارات سوداء الحافَّة وضعها هو أيضًا ليبدو أكثر جدارة بالثقة وأكثر رصانة. أخرجها من جيبه العلوي وناولني إيَّاها ليريني أنها من زجاج شفَّاف وحسب. لقد خال جميعنا أنَّ ماضي السيد مازابا كان ماضيًا سِرِّيًا. كان أحد استنتاجاته المفضَّلة لقصَّة ما من القصص: "كما يقول الكتاب الحكيم: لقد تسلَّلتُ إلى مَجَارٍ عدَّة في عهدي."

في أثناء إحدى جلسات هذرنا المستمر في غرفة المُولِّد قال كاسْيَس: "أتذكُر المراحيض في مدرسة القِدِّيس تُومَس؟" كان مستلقيًا على أحد أحزمة النجاة يرضع الحليب المركَّز من علبة قصدير. "أتعلم ما الذي سأقوم به قبل أن أنزل من هذه الباخرة؟ أعِدك بأن أتغوَّط في مرحاض القبطان المطليِّ بالمِينا."

رحت أقضي وقتًا أطول مع السيد نِفل مجدَّدًا. في مخططات الباخرة التي دائمًا ما كان يحملها معه أطلعني على الموقع الذي يأكل فيه المهندسون وينامون، وعلى مقرِّ القبطان. أراني كيف يصل النظام الكهربائي إلى كل غرفة، وحتى الطريقة التي تنتشر بها الآلات غير المرئيَّة عبر طوابق الأُورُونسَي السُّفليَّة. كنت أعلم ذلك. في مقصورتي، هناك طرف ممتد من عمود توجيه يدور باستمرار خلف

حائط مكسوٌّ بالألواح، وكثيرًا ما كنت أضع كفِّي المفتوحة في مواجهة الخشب الدافئ دومًا.

الأهم من ذلك كلِّه، أنه أخبرني عن حياته عندما كان مُفكِّك سُفُن، وكيف يمكن تفكيك عابرة محيطات إلى آلاف القطع التي لا يمكن تعرُّفها في "منصَّة تكسير السُّفن". أدركت أنه لا بدَّ أنَّ هذا ما رأيته في تلك الناحية القصيَّة من ميناء كولومبو عندما أُحرِقت السفينة. لقد اختُزِلَت إلى مجرَّد معدن مفيد، فيمكن تحويل هيكلها إلى مركب قناة أو تشكيل مدخنتها بمطرقة لتصير سقف خزَّان مقاوم للماء. قال السيد نِفل أنَّ الناحية القصيَّة في جميع الموانئ هي المكان الذي يجري فيه هذا التدمير. تُفصَل الأخلاط المعدنية، ويُحرَق الخشب، ويُذاب المطَّاط والبلاستيك في ألواح ويُدفَن. لكنَّ الخزف والصنابير المعدنية والأسلاك الكهربائية تُدَّخَر ويُعَاد استخدامها، وهكذا تخيَّلت أنه لا بدَّ أنَّ أولئك العاملين معه يراوحون بين رجال مفتولي العضلات يفكِّكون الجدران بمطارق خشبية ثقيلة وآخرين عملهم المحدَّد هو اقتلاع لفائف المعادن والتركيبات الكهربائية الصغيرة وأقفال الأبواب مثل العَتَل، وجمعها. في غضون شهر يستطيعون جعل سفينة تتلاشى تاركين هيكلها وحسب في طين أحد مصابِّ الأنهار، عظامًا للكلاب. لقد طاف السيد نِفل في أنحاء العالم ليقوم بهذا العمل من بانكوك إلى باركينغ. والآن ها هو يجلس معي متذكِّرًا الموانئ التي أقام فيها في إحدى المرَّات أو في غيرها، وهو يدحرج طبشورًا أزرق بين أصابعه متأمِّلًا بغتةً.

لقد كانت، تَمْتَم، مهنة خطِرة بطبيعة الحال. وكان من المؤلم إدراك أن لا شيء باقٍ، ولا حتى عابرة محيطات. "ولا حتى ثلاثية المجاذيف!"

قال، ووكَزَني. لقد كان هناك كي يساعد في تفكيك باخرة نورماندي – "أجمل السفن المبنيَّة على الإطلاق" – وهي تستلقي متفحِّمة وشبه غارقة في نهر هدسون في أمريكا. "ولكن حتى ذلك كان جميلًا بطريقة ما... لأنك في منصَّة تكسير السُّفُن تكتشف أيَّ شيء يمكن أن تكون له حياة جديدة، قد يولد من جديد جزءًا من سيارة أو قاطرة سكَّة حديد أو شفرة مجرفة. إنك تأخذ تلك الحياة القديمة وتربطها بغريب."

الآنسة لاسْكِتِي

معظم أولئك المجتمعين حول مائدة القط يَعُدُّون الآنسة لاسْكِتِي عانسًا جذَّابة، وأمَّا نحن الثلاثة فنرى أنها من الممكن أن تكون امرأة ذات ميول جنسية شبِقة (ذاك المرفق الذي اصطدم بخصيتي كاسْيَس). كانت رشيقة وبيضاء كحمامة. لم تكن تحبُّ الشمس. إنك تراها جالسة على أحد مقاعد الباخرة تقرأ روايات الجريمة ضمن مستطيل من الظلال الكثيفة، يلمع شعرها الأشقر الفاتح قليلًا وسط كآبتها المُصطفاة. كانت مدخِّنة. تنهض هي والسيد مازابا في الوقت ذاته ويعتذران بعد الطبق الرئيس ويخرجان من أقرب مخرج إلى سطح الباخرة. ما الذي يتحدَّثان بشأنه هناك؟ لا علم لنا. يبدوان ثنائيًّا غير متماثل. بالرَّغم من أنَّ لها ضَحِكًا يوحي بتلطُّخها بالوحل مرَّةً أو مرَّتين. إلَّا أنَّه يثير دهشتك لأنه يصدر عن هيكل متواضع وهزيل، نسمع ضَحِكَها عادة حينما تعلِّق على قصَّة من قصص السيد مازابا البذيئة. يمكنها أن تكون غريبة الأطوار. سمعتها مرَّةً مصادفةً تقول: "لماذا كلَّما سمعتُ عبارة "الخداع البصري"[32] فكَّرتُ في المحار؟"

مع ذلك، فإننا في معظم الأوقات لا نكاد نعثر على دليل على

---

(32) في الأصل بالفرنسية: trompe l'oeil

ماضي حياة الآنسة لاسْكِتِي أو مهنتها. لقد عدَدْنا أنفسنا بارعين في استلال القرائن ونحن نعدو في أنحاء الباخرة كل يوم، بيْد أنَّ يقيننا ممَّا اكتشفناه كان يتقدَّم ببطء. كنَّا نسمع مصادفةً شيئًا في أثناء الغداء، أو نرى نظرة خاطفة أو هزَّة رأس. "الإسبانية لغةٌ مُحِبَّة، أوليست كذلك يا سيد مازابا؟" علَّقت الآنسة لاسْكِتِي وغمزها بعينه عبر المائدة. لقد كنَّا نعرف عن الكبار بوجودنا في وسطهم وحسب. شعرنا بأنماط تظهر، وبعضَ الوقت كلُّ شيء قام على ذلك الغَمْز من السيد مازابا.

ثمَّة سمة غريبة في الآنسة لاسْكِتِي وهي أنها كانت نؤومًا. كانت شخصًا بالكاد يستطيع البقاء مستيقظًا في ساعات معيَّنة من النهار. إنك تراها تصارع ذلك. وقد جعلها هذا الصراع شخصًا مُحبَّبًا، وكأنَّما تدرأ أبدًا عقابًا غير مبرَّر. عندما تعبر أمامها وهي جالسة على المقعد ترى رأسها يسقط ببطء على الكتاب الذي كانت تحاول قراءته. لقد كانت من نواحٍ كثيرة شبحَ مائدتنا، ذلك أنَّه كُشِف أيضًا أنها كانت تسير وهي نائمة، وهي عادة خطِرة على سطح باخرة. طالما رأيتها قطعةً من بياض في البحر الهائج المُدلَهِمّ.

ما مستقبلها؟ ما ماضيها؟ لقد كانت وحيدةَ مائدة القط التي استطاعت أن تدفعنا إلى تجاوز أنفسنا كي نتخيَّل حياة شخص آخر. أعترف أنه رام الدِّين خصوصًا من انتزع هذا التَّقمُّص من كاشَيَس ومني. بيْد أننا أوَّلَ مرَّة في حياتنا بدأنا نشعر أنَّ ثمَّة ظلمًا في حياة إنسان آخر. أذكر أنه كان لدى الآنسة لاسْكِتِي "شاي البارود" الذي تخلطه في كوب من الماء الساخن على مائدتنا، ثم تصبُّه في حافظة الحرارة قبل أن تتركنا لتقضي فترة الأصيل. باستطاعتك في الواقع أن

ترى تورُّد وجهها وقد أيقظها الشاي.

لعلَّ وصفها بأنها "بيضاء كحمامة" قد جاء بتأثيرٍ من اكتشاف لاحق عنها: لقد كُشِف أنَّ لدى الآنسة لاسْكِتِي عشرين أو ثلاثين حمامة في أقفاص في مكان ما من الباخرة. لقد كانت "ترافق الحَمَام" إلى إنكلترا، ولكنها أخفت دافعها للسفر معها. ثم سمعتُ من فلافيا برِنْز أنَّ مسافرًا مجهولًا في الدرجة الأولى أخبرها بأنَّ الآنسة لاسْكِتِي كثيرًا ما شُوهِدت في أروقة الحكومة البريطانية.

على أيَّة حال، بدا لنا أنَّ للجميع في مائدتنا تقريبًا، من الخيَّاط الصامت السيد (غُونِسْكِرا) الذي يملك متجرًا في كاندي، إلى الفنَّان السيد مازابا، إلى الآنسة لاسْكِتِي، سببًا مثيرًا للاهتمام برحلته، حتى إن كان سببًا غير معلن أو غير مُكتَشَف بعد. ومع ذلك، استمر وضع مائدتنا في الأُورُونسَي متدنيًّا، في حين كان أولئك المجتمعون حول مائدة القبطان باستمرار يشرب بعضهم نخب أهمية بعضهم الآخر. كان ذلك درسًا صغيرًا تعلَّمتُه في الرحلة. إنَّ أكثر الأشياء متعةً وأهمِّيَّةً يحدث غالبًا سرًّا، في أماكن تغيب عنها السُّلطة. لم يكن يحدث شيء ذو قيمة دائمة إطلاقًا في المائدة الرئيسة، كان ما يجمعهم بلاغة مألوفة. هؤلاء الذين يملكون السُّلطة يواصلون الانزلاق على طريق مألوف صنعوه لأنفسهم.

الفتاة

إن كان هناك مَن بدا أكثر عجزًا على الباخرة فهو الفتاة المدعوَّة (أسونتا)، ولم ندرك وجودها إلَّا شيئًا فشيئًا. بدت تملك ثوبًا أخضر باهتًا وحسب. كان ذلك كل ما ترتديه، حتى في أثناء العواصف. كانت صمَّاء، وذلك جعلها تبدو أكثر ضعفًا ووحدة. تعجَّب أحد أعضاء مائدتنا كيف أمكنها الدفع لرحلتها. رحنا نرقبها ذات مرَّة وهي تقفز على (الترامبولين)، وحينما تكون في وسط الهواء محاطةً بذلك الفضاء الصامت كلِّه، نشعر بأننا نرى شخصًا مختلفًا. بيْد أنها حالما تتوقَّف وتنصرف فإنك لا تعود ترى أيَّة براعة فيها أو قوة. كانت شاحبة، حتى بالنسبة إلى فتاة سِنهالية. ونحيلة.

كانت تخاف الماء. إذا مشت قريبًا من حوض السباحة كنَّا نعذِّبها برشِّ الماء عليها إلى أن بدَّل كاسْيَس موقفه ومنع فعلتنا هذه. عندها أبصرنا بعض الرحمة في كاسْيَس، ولاحظنا أنه بدأ يراقبها على استحياء منذ ذلك الحين وصاعدًا. بدا أنَّ سَنِل، صاحب العقل الحيدر آبادي من فرقة جانْكْلا، كان يعتني بها، فقد كان يجلس إلى جانبها في أثناء وجبات المائدة حيث تجلس إِمِلي كذلك، وكان ينظر نظرة خاطفة إلى مائدة القط، مذعورًا من هوْل الإزعاج

الذي تسبِّبه مجموعتنا.

كانت لِأسونتا طريقة خاصة في الإصغاء، إذ كان يمكنها السماع بأذنها اليمنى فقط، وفقط إن تحدَّث إليها شخص ما بوضوح ومباشرة قرب أذنها. بهذه الطريقة كانت تلتقط رجفة الهواء وتفسِّرها بصوت ثم بكلمات. لا يمكنك التَّحدُّث إليها إلَّا إن اقتربت كثيرًا. في أثناء تمارين قوارب النجاة، يأخذها أحد المضيفين جانبًا ويشرح لها القواعد والإجراءات، في حين يسمع بقيَّتنا التوجيهات نفسها من مكبِّر الصوت. بدا وأنَّ حواجز تحيط بها.

كانت المصادفة ولا شيء سواها ما جعل إمِلي تجلس إلى المائدة نفسها التي تجلس إليها الفتاة. وإن كانت إمِلي جميلةَ الجمهور المتألِّقة، فقد كانت هذه الفتاة هي المتوحِّدة. شيئًا فشيئًا بدأتا تصبحان صديقتيْن، وبدأنا نلاحظ حماسةً في أحاديثهما؛ الهمس، مسك الأيدي. كانت إمِلي تبدو بروح مختلفة جدًّا عندما تكون مع الفتاة الصَّماء.

أمطرت رذاذًا في الصباح على سطح الباخرة وكان ذلك رائعًا. كان بين المخرج (ب) والمخرج (ج) امتداد يبلغ عشرين ياردة غير مَعُوق بمقاعد الباخرة. كنَّا نعدو نحوه بأقدامنا الحافية ونمنح أجسادنا حرِّيَّة الانسياب على الخشب الزَّلِق حتى نصطدم بالدَّرابزين أو بباب يفتحه على حين غِرَّة مسافر خرج لتفقُّد الطقس. لقد أسقط كاشْيَس أرضًا البروفيسورَ المُسنَّ (راساغُولا شودْهاريبوي) في أثناء إحدى مناوراته الجسدية لبلوغ الرقم القياسي. كانت المسافة التي نقطعها تزيد في أثناء تنظيف سطح الباخرة. ما أن تُوضَع طبقة الصابون ولا تكون قد مُسحت بعد، حتى يغدو بمستطاعنا الانزلاق ضعف المسافة، قالِبين السُّطول ومصطدمين بالبحَّارة. حتى رام الدِّين شاركنا ذلك. اكتشف أنَّه أحبَّ هواء البحر على وجهه أكثر من أيِّ شيء. كان يقف ساعات في مُقدَّم الباخرة، ونظره مثبَّت في البعيد، مفتونًا بشيء ما هناك أو غارقًا في فكرة ما.

إن شاء أيُّ شخص أن يقبض على اللحظات اليوميَّة في باخرتنا فلعلَّ أدقَّ طريقة لفعل ذلك هي وضع مجموعة خطوط

متقاطعة عن مرور الوقت، تُصوَّر بألوان مختلفة لتعكس التَّسكُّع اليومي. هناك المسار الذي يتَّخذه السيد مازابا بعد نهوضه ظهرًا، وجولة الطبيب الأيروفيدي الموراتُواوي عندما يتحرَّر من أعماله مع السّير هكتور. وهناك مُنزِّهَا الكلاب هَيْستِي وإنفيرنُيو، فلافيا برِنْز وأصدقاؤها في لعبة البريدْج في تطوُّفهم البطيء من صالة دليلة وإليها، الأسترالية وهي تدور على لوح التَّزحلق في الفجر، فرقة جانكْلا الرَّسميَّة وأنشطتها غير الرَّسميَّة، إضافة إلينا ثلاثتنا ونحن نندفع في أرجاء المكان كزئبق طليق: نقف أمام حوض السباحة، ثم عند لعبة كرة الطاولة، نشاهد درس بيانو مع السيد مازابا في صالة الرقص، نمضي في قيلولة، نثرثر مع مساعد ضابط المحاسبة ذي العين الواحدة – ممعِنين في النظر إلى عينه الزجاجية ونحن نعبر– ونزور مقصورة السيد فونْسِكا ساعةً أو أكثر. لقد أصبحت جميع هذه الأنماط العشوائيَّة في الحركة قابلة للتَّوقُّع مثل خطوات رقص رباعي.

بالنسبة لنا، كان هذا عهدًا خاليًا من ميزة التصوير، ولذا غابت الرحلة من أيَّة ذاكرة دائمة. لا توجد بحوزتي حتى صورة واحدة غائمة للفترة التي قضيتها على ظهر الأُورُونسَي تخبرني كيف كان شكل رام الدِّين حقيقةً في أثناء الرحلة. غطسٌ غائمٌ في حوض السباحة، جسدٌ مكفَّنٌ بالبياض يُلقى به في الهواء إلى البحر، صبيٌّ يبحث عن نفسه في مرآة، الآنسة لاسْكِتِي نائمة على أحد المقاعد، هذه كلُّها صور من الذاكرة وحسب. كان لبعض المسافرين في الطابق العلوي في درجة الإمبراطور صناديق كاميرا وكثيرًا ما كانوا يُصوِّرون وهم في بِدَلهم المسائية. على مائدة القط، كانت الآنسة لاسْكِتِي ترسم بين حين وآخر في مفكِّرة صفراء. لعلَّها رسمت بعضنا، لكنَّنا لم نكن فضوليين على

نحوٍ كافٍ قطُّ لنسألها، لم نتوقَّع اهتمامًا فنّيًا من أولئك الذين كانوا حولنا. لعلَّها تمكَّنت بيُسر من حياكة صورة وجه كلٍّ منَّا مستخدمة ألوانًا مختلفة من الصوف. كنَّا أكثر فضولًا حينما أخرجت سترة الحَمَام لترينا كيف يمكنها التَّنزُّه على ظهر الباخرة حاملةً طيورًا حيَّة عديدة في جيوب سترتها المحشوَّة.

أيًّا كان ما نفعله، لم يكن ثمَّة إمكان لاستمراره. لقد كنَّا نكتشف وحسب مقدار الهواء الذي يمكن أن تحمله رئاتنا ونحن نسبح ذهابًا وإيابًا في قعر الحوض. ذلك أنَّ أعظم متعة لنا كانت عندما يُلقي أحد المضيفين مئة ملعقة في الحوض فأغطس وكاسْيَس مع المتنافسين لجمع أكبر عدد ممكن بأيدينا الصغيرة، معتمدين على هذه الرئات لقضاء مزيد من الوقت تحت الماء. كان الآخرون يشاهدوننا ويشجِّعوننا ويضحكون منَّا كلَّما انزلقت أجسامنا إلى الأسفل ونحن نجاهد للخروج مثل سمكة برمائيَّة حاملين أدوات المائدة بأيدينا، قابضين عليها فوق صدورنا. كتب (ملفل)، عابر البحار العظيم: "أحبُّ جميع الرجال الذين يغوصون." ولو سُئِلتُ أيَّ مهنة أختار حينها أو في أيِّ وقت من الأوقات في أثناء تلك الأيام الأحد والعشرين، لقلتُ أنني أودُّ أن أكون غوَّاصًا في مسابقة شبيهة طوال ما تبقَّى من حياتي. لم يدُر بخَلَدي قطُّ حينها أنه ما من وجود لتجارة أو مهنة كهذه. ما فتئت أجسادنا النحيلة، التي كانت تقريبًا جزءًا من الجوّ المحيط، تنغمر تحت الماء بحثًا عن كنزنا فنعود ملتمسين يد العون، لنصطاد الملاعق الأخيرة. وحده رام الدِّين لم يتمكَّن من المشاركة ليحميَ قلبه المتردِّد. بيْد أنَّه كان يشجعنا وإن كان ضجِرًا بعض الشيء.

سرقة

ذات صباح أقنعني رجل عُرِف بيننا باسم البارون (سِي) بأن أساعده في مشروع. كان بحاجة إلى صبي صغير رياضي وكان يراقبني وأنا أغوص بحثًا عن الملاعق في حوض السباحة.

في البداية دعاني إلى تناول بعض الآيسكريم في صالة الدرجة الأولى. ثم دعاني إلى مقصورته، ولكي أُظهِر له مهارتي طلب إليَّ أن أخلع خُفَّيَّ وأعتلي الأثاث وأتحرَّك بأقصى ما أستطيع من سرعة في أنحاء المقصورة من دون أن ألمس الأرض أبدًا. فكَّرت أنَّ هذا كان غريبًا، بيْد أنني أخذت أقفز من الكرسي إلى المائدة، ثم إلى السرير، وأتعلَّق بالباب منتقِلًا إلى الحمَّام. كانت مقصورته كبيرة جدًّا مقارنةً بمقصورتي، وبعد بضع دقائق وقفتُ هناك حافيًا على السجاد الغليظ لاهثًا ككلب. وفي تلك الأثناء جلب حافظة شاي.

"إنه شاي كولومبو وليس شاي الباخرة،" قال مضيفًا حليبًا مركَّزًا إلى الكوب. كان الرجل يعرف ما الشَّاي الجيِّد. حتى ذلك الحين كان يُقدَّم إلينا ما يشبه مذاقُه ماءَ غسل الصحون في الباخرة، وقد توقَّفتُ عن شُربه. في الواقع، لن أشرب الشَّاي سنوات. بيْد أنَّ البارون صنع لي آخر كوب شاي جيِّد. جلب أكوابًا صغيرة جدًّا ولذا

كان عليَّ أن أشرب أكوابًا عدَّة ذلك اليوم.

أخبرني البارون بأنني رياضي. سار معي إلى باب مقصورته وأشار إلى النافذة فوقه. كانت مستطيلة ولها مزلاج صغير يوثِّق إغلاقها. كان الزجاج يمتد امتدادًا أفقيًّا ومسطَّحًا مثل صينية مُتيحًا للهواء الدخول إلى المقصورة والخروج منها.

"أتظن باستطاعتك الصعود عبرها؟" ومن دون أن ينتظر إجابة ضمَّ يديه وجعلني أصعد فوقهما ثم فوق كتفيه. كنت أرتفع ستَّ أقدام عن الأرض. بدأت أزحف داخل الفتحة، وأنا أتقلقل فوق الزجاج وإطاره الخشبي، خائفًا الوقوع. كان هناك لوحان أفقيَّان يحميان هذا المكان المفتوح. طلب إليَّ أن أحاول دفع جسدي بينهما ولكنني لم أستطع.

"لا فائدة. انزل،" وضعت ركبتيَّ فوق كتفيه مرة أخرى وتشبَّثت بشعره المُلمَّع ونزلت وأنا أشعر أنني على نحوٍ ما خذلته، ولا سيَّما بعد الآيسْكريم والشَّاي الجيد.

"عليَّ أن أجرِّب شخصًا آخر،" تمتم لنفسه وكأنني لم أعد هناك في حضرته. ثم، حين أدرك خيبة أملي قال: "أنا آسف."

في اليوم التالي رأيت البارون عند حوض السباحة يتحدَّث إلى صبي آخر رافقه بعد حينٍ من الوقت إلى السطح العلوي. كان أصغر حجمًا مني، مع أنه ربَّما لم يكن رياضيًّا مثلي، لأنَّ الصبي عاد في غضون ساعة ولم يتحدَّث إلَّا عن الشَّاي والبسكويت اللذين قُدِّما إليه. ثم، ربَّما بعد يومين من هذا، دعاني البارون إلى الذهاب إلى مقصورته ومحاولة الصعود عبر النافذة مجدَّدًا. قال أنَّ فكرة أخرى خطرت له. وحينما مررنا بالمضيف الذي كان يحرس مدخل الدرجة

الأولى قال البارون: "إنه ابن أخي أدعوه إلى تناول الشاي." وسرعان ما كنت أجول على نحوٍ قانوني في القاعة المفروشة بالسجاد وقد فتحت عينيَّ على اتساعهما بحثًا عن فلافيا برِنْز، لأنَّ هذه أيضًا كانت منطقتها.

طلب إليَّ أن أرتدي ملابس السباحة، وحين خلعت باقي ملابسي جلب سطلًا فيه زيتُ محرِّك تمكَّن من الحصول عليه من غرفة المحرِّك، وجعلني أمسح السائل الأسود الثقيل على جسدي كلِّه من العنق إلى الأسفل. ثم رفعني مرَّةً أخرى إلى النافذة المفتوحة التي كان وراءها اللوحان الأفقيَّان. وهذه المرَّة وأنا مغطَّى بالزيت انزلقت بينهما كالأنْقَلِيس وسقطت على أرضية الرُّواق في الجانب الآخر من الباب. طرقت الباب وأدخلني مرَّةً أخرى. كان يبتسم.

قدَّم إلي رداء الحمام فورًا وذهبنا إلى الرُّواق الخالي. طرق بابًا، ولمَّا لم يكن هناك رد رفعني بيديه، وانزلقت هذه المرَّة خلال فتحة النافذة من الجهة المعاكسة إلى قاعة فاخرة. فتحت الباب من الداخل وحين دخل البارون رَبَت على رأسي. جلس على مقعد بذراعين فترة وجيزة، غمزني بعينه ثم نهض وبدأ ينظر حوالي الحجرة فاتحًا بعض أدراج الخزانة. خرجنا في غضون دقائق.

حين أعود بالذاكرة إلى الوراء، أفكِّر بأنَّه أقنعني بأنَّ الاقتحام والدخول الذي أعقبه كان لعبة خاصة بينه وبين بعض أصدقائه. ذلك أنَّه بدا مرتاحًا وحسن النية إزاء ما كان يفعله. جال داخل أحد الأجنحة، واضعًا يديه بلامبالاة في جيبي بنطاله وهو ينعم النظر في أشياء فوق رفٍّ أو على مائدة، أو ينظر نظرة خاطفة إلى الغرف الأبعد. أتذكَّر أنه وجد مرَّةً حزمة كبيرة من الأوراق أسقطها في حقيبة

رياضية. كما رأيته يضع في جيبه سكينًا فضية.

في أثناء قيامه بذلك، كنت في الغالب أنظر إلى البحر من إحدى الكُوى، وإذا كانت مفتوحة فإنني كنت أسمع صياح لاعبي حلقات الرمي في السطح السفلي. كان ذلك مثيرًا لي، وكذلك وجودي في مقصورة كبيرة كهذه. كانت المقصورة التي أقاسمها السيد هَيْسِتِي بحجم سرير كبير في الحجرة الفخمة. دخلت إلى حمام مليء بالمرايا ورأيت بغتة صورًا هاربة لي وأنا شبه عار ومغطًّى بزيت أسود، بدوت بوجه بُنِّيٍّ وشعر شائك وحسب. كان ثمَّة صبيٌّ شقيٌّ هناك، شخص من إحدى قصص "كتاب الأدغال"[33]، عيناه ترقباني، بيضاوان كمصباحين. كان هذا أوَّل انعكاس أو صورة أتذكَّرها عن نفسي. لقد كانت تلك صورتي في صباي الذي تشبَّثت به سنوات، شخص مشدوه، في طور التَّشكُّل، لم يصبح أحدًا ما أو شيئًا ما بعد. أدركت وجود البارون عند حافَّة إطار المرآة يراقبني. له نظرة مُراعية. لقد بدا وكأنَّه فهم ما كنت أرى في المرآة، وكأنَّه هو الآخر فعل ذلك مرَّةً. ألقى إليَّ منشفة وأمرني أن أنظِّف جسدي وأرتدي باقي ثيابي التي جلبها في حقيبته الرياضية.

لم يسعني الانتظار حتى أخبر الآخرين في اجتماع غرفة المُولِّد التالي عمَّا وقع. شعرت بقوتي تزداد. بيْد أنني حين أستعيد الحدث، أجد أنَّ البارون قد منحني ذاتًا أخرى، شيئًا صغيرًا صِغَرَ مِبْراة قلم رصاص. كان مَهْربًا صغيرًا لأكون شخصًا آخر، بابًا سوف أُؤَجِّل فتحه بضعة أعوام، على الأقل إلى ما بعد سِنِيْ مراهقتي. لقد بقيت معي تلك الأصائل شبه الغائمة. أذكر في أحد الأيام، بعد أن طرق أحدَ

(33) للكاتب البريطاني رُدْيارد كِيلِنغ.

الأبواب ولم يتلقَّ ردًّا وانزلقتُ عبر لوحي النافذة ثم أدخلته، صُعِقنا حين وجدنا شخصًا نائمًا على السرير الكبير، وانتظمت على المائدة إلى جانبه قناني أدوية. رفع البارون يده طالبًا الصمت، دنا أكثر، وحملق إلى الجسد النائم الذي عرفت فيما بعد أنه كان جسد السّير هكتور دو سِلفا. لمس البارون كتفيَّ وأشار إلى تمثال نصفي معدني للمليونير فوق الخزانة. بينما استمر البارون ينظر حوالي الحجرة باحثًا عن أشياء ثمينة - أحسب أنها جواهر لأنَّ ذلك على أيَّة حال ما يبحث عنه اللُّصوص – رحت أنظر إلى الأمام وإلى الخلف، أقارن الرأس المعدني بالرأس الحقيقي. جعل التمثالُ الرجلَ النائم يبدو أَسَدَيًّا ونبيلًا، مقارنةً بالحقيقة النائمة على المخدَّة. حاولت رفع التمثال ووضعه بين ذراعي، ولكنه كان ثقيلًا جدًّا.

أخذ البارون يقلِّب وثائق ولكنه لم يأخذها. بدلًا من ذلك، خطف من رفِّ الموقد تمثالَ ضفدعٍ صغيرًا أخضر. انحنى وهمس لي: "يَشْم[34]." ثمَّ، وتقريبًا على نحوٍ خاصٍّ جدًّا، أخذ صورة امرأة شابَّة في إطار فضي كانت إلى جانب سرير الرجل. أخبرني ونحن نسير في الرواق بعد بضع دقائق على ذلك، أنه وجدها فاتنة جدًّا. قال: "لعلَّني سأقابلها في لحظة ما في أثناء هذه الرحلة."

سيترجَّل البارون من الباخرة، قبل الموعد المحدَّد، في بورسعيد، ذلك أنَّه بحلول ذلك الوقت، ظهرت شكوكٍ بوجود لص على متن الباخرة فقاموا بجولات فيها، مع أنَّ الشُّكوك لم تُوجَّه بطبيعة الحال مباشرة إلى أي شخص في الدرجة الأولى. أعرف أنه وهو في عدن أرسل بعض الطرود بالبريد. على أيَّة حال، توقَّف بغتة عن

(34) Jade اليَشْم، الجاد: حجر كريم.

أن يطلب إليَّ مقابلته. أخذني لتناول شاي أخير في قاعة (بِدفورد)، وكنت بالكاد قد رأيته منذ ذلك الحين. لم أعرف قطُّ إن كان يسرق وحسب لكي يغطّي مصروف إقامته في الدرجة الأولى أم لكي يعطي المال لأخ مريض أو شريك قديم في جريمة. بدا لي رجلًا كريمًا. ما زلت أتذكَّر كيف يبدو، كيف يرتدي ملابسه، مع أنني لست متيقِّنًا إن كان إنكليزيًّا أو أحد أولئك الهُجُن الذين ادَّعوا الخليط الأرستقراطي. أعلم أنني كلَّما كنت في بلاد حيث يعلِّقون صور وجوه المجرمين في مكاتب البريد، بحثت عنه.

استمرَّت باخرتنا في التَّوجُّه صوب شمال الغرب، قاطعةً خطوط العرض العليا، وبدأ المسافرون يشعرون بأنَّ الليالي أصبحت أكثر برودة. أُبلِغنا ذات يوم عبر مكبِّر الصوت بأنَّ فِلمًا سيُعرَض بعد العشاء على السَّطح خارج الحجرة السَّلتِيَّة. في الغسق وضع المضيفون ملاءة صلبة في مؤخَّر الباخرة وجلبوا جهاز عرض قاموا بتغطيته على نحوٍ خفيّ. قبل نصف ساعة من بدء الفِلم اجتمع مئة شخص ليشكِّلوا جمهورًا لا يهدأ، الكبار جالسون على المقاعد، والصغار على السطح نفسه. دنوت ورام الدِّين وكاسْيَس قدر الإمكان من الشَّاشة. كان هذا الفِلم الأوَّل. كانت هناك طقطقة عالية في مكبِّرات الصوت، وفجأةً ظهرت صور على الشَّاشة أحاطت بها سماء بنفسجيَّة منخفضة.

لقد كنَّا على مقربة أيام فقط من عدن، ولذا أرى الآن أنَّ اختيار فِلم "الأرياشُ الأربع" لم يكن لبقًا، ذلك أنَّ الفِلم حاول مقارنةَ وحشيَّةِ جزيرة العرب بإنكلترا المتحضرة والحمقاء برغم ذلك. شاهدنا إنكليزيًّا يُكوَى وجهه (سمعنا نشيش لحمه) ليكون باستطاعته انتحال شخصية العربي في بلاد صحراويَّة متخيَّلة. كان في القصة جنرال

مُسنٌّ أشار إلى العرب بأنهم شيء يشبه "أفراد قبيلة غازارا، مستهترون وعنيفون." كان هناك في ما بعد إنكليزي آخر أُصيب بالعمى من التَّحديق إلى شمس الصحراء، فأخذ يهيم ببطء بقيَّة الفِلم. أمَّا قضايا الشُّوفينيَّة والجُبْن الأكثر دقَّة في وقت الحرب، فقد ذَرَتها الريح العاتية في المحيط العابر. لم يكن نظام الصوت جيِّدًا، إلى جانب أننا لم نكن معتادين طريقة النطق الإنكليزية عديمة النَّغم. تابعنا الأفعال وحسب. كانت هناك أيضًا إمكانية إضافة حبكة فرعية: ذلك أنَّ باخرتنا كانت تدنو من منطقة عواصف، وكنَّا إذا أشحنا بوجوهنا عن الفِلم المعروض على الشَّاشة نرى أشواكًا من البرق في البعيد.

عُرِض الفِلم في موقعين ونحن نتقلَّب تحت النجوم الآخذة في التلاشي. تقدَّم العرض في حانة "المزمار والطبول" في الدرجة الأولى بمقدار نصف ساعة، وقد عُرض لمجموعة أكثر هدوءًا ناهز عدد أفرادها أربعين مسافرًا حسن الهندام، وعندما انتهى الشريط الأوَّل أُعيد لفُّ ذلك الجزء من الفِلم إلى الوراء وحُمِل في صندوق معدني إلى الطابق السفلي ليوضَع في جهاز العرض الخاص بنا لعرضه في الهواء الطلق، في حين أخذ جمهور الدرجة الأولى يشاهد الشريط الثاني. ونتيجة لذلك، كان هناك رَبْكٌ في الصوت الذي رُبِط بين الشَّاشتيْن. بسبب هدير ريح البحر رُفِع صوتُ مكبِّرات الصوت كلِّها إلى أقصاه، وأخذت تداهمنا باستمرار ضوضاء رنَّانة، وفي أثناء مشاهدة مشهد مأزوم بلغت أسماعَنا أصواتُ أغانٍ حماسيَّة من قاعة الضُّباط. ومع ذلك، كان العرض في الهواء الطَّلق أشبه بنزهة ليليَّة. قُدِّم لكل منا كوبٌ من الآيسْكريم، وبينما نحن ننتظر انتهاء عرض الشريط الأول في الدرجة الأولى لوضعه في جهازنا، أخذت فرقة جانكلا تؤدِّي عروضها.

كانوا يشعوذون مستخدمين مُدَى الجزَّار الكبيرة تمامًا في اللحظة التي سمعنا فيها من مكبِّرات الصوت في الدرجة الأولى صياحَ عرب مهاجمين متعطِّشًا للدماء. كانت فرقة جانكْلا تحاكي هذا الصياح بحركات هزليَّة، ثم تقدَّم صاحب العقل الحيدر آبادي ليعلن أنَّ إحداهن فقدت دَبُّوسًا في اليوم السابق ثمَّ وُجِد معلَّقًا على عدسات جهاز العرض. وهكذا، لحظةً كان جمهور الدرجة الأولى يشاهد المجزرة الوحشيَّة المرتكَبة في القوات الإنكليزية انطلق التَّهليل والتشجيع من جمهورنا.

بدأ عرض فِلمنا على قماشة حيَّة لشاشة تخفق. كانت الحبكة مليئة بالعظمة والتشويش، عن أفعال وحشيَّة فهمناها وعن شرفٍ مسؤولٍ لم نفهمه. أخذ كاسْيَس يدَّعي أيَّامًا أنه جزء من "أفراد قبيلة الأُورُونسَي، مستهترون وعنيفون."

لسوء الحظ، هبَّت العاصفة المتوقَّعة فوق الباخرة وحين ضرب المطر جهاز العرض بدأ المعدن الساخن يُهسهِس. حاول أحد المضيفين إمساك مظلَّة فوقه. عصفة ريح مزَّقت الشَّاشة فانزلقت إلى المحيط كشبح، لتواصل الصور ظهورها بلا هدف فوق البحر. لم نعرف نهاية القصة قطُّ، ليس في تلك الرحلة. عرفتها بعد بضعة أعوام عندما قرأت رواية (أ. إي. و. ميْسُن) في مكتبة كليَّة (دلويتش). تبيَّن أنه كان تلميذًا في الكليَّة. على أيَّة حال، شهدتْ تلك الليلة بداية عواصف هوجاء هاجمت الأُورُونسَي. لقد نجونا بعد العاصفة من اضطراب المحيط ونزلنا إلى يابسة الجزيرة العربية الحقيقية.

ثمَّة أوقات تغزو فيها عاصفةٌ ما منطقةَ الدِّرع الكندية حيث أقيم في الأصياف، فأصحو معتقدًا بأنني معلَّق في الهواء في مستوى ارتفاع أشجار الصنوبر الطويلة فوق النهر، أرقبُ البرق وهو يدنو وأسمع الرَّعد من بَعْده. لا يسعك رؤية التصميم العظيم للعواصف وأخطارها إلا من ارتفاع كهذا. في المنزل، تنام أجساد عدَّة، وقريبًا منها الكلبة، أذناها تتعذَّبان، تنتفض، وكأنَّ قلبها على وشك السقوط أو الاندفاع خارجًا. لقد رأيت وجهها في عتمة عواصف كهذه، وكأنه يَخْبُرُ سفرًا سريعًا في الفضاء، فتغور ملامحه الجميلة المعتادة. وبينما الآخرون نيام، يترجَّحون في هذه الطبيعة الجامحة، يبدو النَّهر وحده مستقرًّا في الأسفل. وحينما ينشقُّ البرق فإنك ترى فدادين من الأشجار ناكسة، كل شيء في النَّخلة المقدَّسة ينحني. يحدث هذا مرَّاتٍ عدَّة كلَّ صيف. إنَّني أتوقَّع وصول الرَّعد وأستعدُّ له مع هذه الكلبة، هذه الصيَّادة الجميلة.

هناك بطبيعة الحال سبب لهذا كلِّه. ذلك أنني خَبَرْتُ أن أكون في ذلك المكان المترجِّح غير الآمِن، بلا أساس يقِيني الأميالَ المجهولة في الأسفل. طوال هذه السنوات في ما بعد أخذت تعود إليَّ تلك الليلة مع

كاسْيَس حينما قيَّدْنا أنفسنا إلى سطح الباخرة استعدادًا لما اعتقدناه مغامرة مثيرة.

لعلَّ السبب كان إخفاق الفِلم في إرضائنا. ما زلت عاجزًا عن تفسير ما فعلناه حينها. قد يكون السبب هو أننا أوَّل مرَّة نشهد عاصفة في البحر وحسب. بعد أن أُزيل جهاز العرض ورُصَّت المقاعد، خيَّم بغتةً هدوء ما قبل العاصفة في المحيط وفي السماء فوقنا. ولذا، بالرَّغم من أنَّنا أُبلِغنا بأنَّ الرَّادار التقط وجود عاصفة أخرى تقترب، هدأت الريح، وهذا منحنا الوقت للاستعداد.

كان كاسْيَس، بطبيعة الحال، هو من أقنعني بأفضل مكان على سطح الباخرة لاستقبال الكارثة. ناقشنا الأمر إلى جانب قوارب النجاة. لم يشأ رام الدِّين أن يشاركنا، ولكنه عرض المساعدة في الإعداد للأمر. في اليوم السابق كنَّا قد عثرنا على بعض الحبال ووضعناها في مخزن تُرِك مفتوحًا في أثناء التدريب على استخدام قوارب النَّجاة. وهكذا، عندما عاد جميع المسافرين تقريبًا إلى مقصوراتهم تلك الليلة في أثناء هدوء ما قبل العاصفة، شقَقْنا طريقنا إلى سطح التَّنزُّه المفتوح، قريبًا من مُقدَّم الباخرة، ووجدنا أشياء ثابتة مختلفة يمكننا ربط أجسادنا إليها بالحبال. سمعنا القبطان يعلن أنهم يتوقَّعون عاصفة بسرعة خمسين عقدة وعلينا التَّهيُّؤ للأسوأ.

استلقيت وكاسْيَس جنبًا إلى جنب على ظهرَيْنا وبدأ رام الدِّين بربطنا بالحبال إلى مسامير على شكل الحرف V وإلى عمود. أخذ يسرع، لأنه رأى العاصفة مُقبلة. فَحَص العُقَد في الظلام وتركنا هناك، مبسوطَي الأذرع والأرجل ومثبَّتيْن بإحكام. كان سطح الباخرة مهجورًا، ولم يحدث شيء كثير بعضًا من الزمن ما عدا هطولَ مطر

خفيف. لعلَّنا انحرفنا بعيدًا عن العاصفة. بيْد أنَّ العاصفة ضربت في ما بعد وسحبت الهواء من أفواهنا. كان علينا أن نشيح برؤوسنا عن اندفاعها حتى يسعنا التَّنفس، وكانت الريح تُصَلصِل مثل معدن حولنا. لقد تخيَّلنا أننا سنستلقي هناك ونحن نتبادل الحديث عن بُرُوق العاصفة على ارتفاع كبير فوقنا، ولكنَّنا الآن على وشك الغرق بسبب الماء في الهواء؛ المطر، والبحر الذي كان يقفز فوق الدَّرابزين ويُدوِّم عبر السطح. أضاء البرقُ المطرَ في الهواء فوقنا، ثم خيَّم الظلام مرَّةً أخرى. حبلٌ مُرخًى أخذ يلطم عنقي. كان هناك ضجيج وحسب. لم يكن يمكننا معرفة إن كنَّا نصرخ أم كنَّا نحاول الصراخ وحسب.

بدا وكأنَّ الباخرة تتكسَّر مع كل موجة، ومع كل موجة كان الماء يغطِّينا إلى أن نجد أنفسنا في وضع مستقيم مرَّةً أخرى. لقد أخذنا ندرك إيقاعًا متَّصلًا. كلَّما حرثت الباخرة البحر الدَّاني جرفتنا الأمواج المتكسِّرة، وقد فقدنا القدرة على التنفس، وبينما كان مُؤخَّر الباخرة يرتفع في الهواء كانت المراوح تخرج عن محورها صارخة إلى أن وقعت في البحر، ونقفز نحن مرَّةً أخرى في مُقدَّم الباخرة على نحو غير طبيعي.

وأنا مستلقٍ على سطح التَّنزُّه في الأُورُونسَي في أثناء تلك الساعات حين أيقنا أنَّنا فقدنا كلَّ فرصة لنا في الحياة، التأم كلُّ شيء. كنت كشيء معدوم النظام في إناء، غير قادر على الخروج مما كان يحدث. كلُّ ما كنت أتشبَّث به هو أنني لم أكن وحدي. كاسْيَس كان معي. بين حينٍ وآخر، كان رأسانا يتلفَّتان في الوقت نفسه إلى البرق فيرى كلٌّ منَّا وجه الآخر المتبلِّد الشَّاحب. شعرت بأنني محاصر في هذا المكان. كلَّما اتَّجه مقدَّم الباخرة إلى الأسفل وانخفضت وقد سيطرت

عليها موجة هائلة، أظلُّ وكاسْيَس مربوطيْن بثبات إلى مولِّد مضخَّة أو شيء شبيه بذلك. لم يكن ثمَّة أحد آخر. كنَّا الوحيديْن على سطح الباخرة وكأنَّما وُضِعنا هناك قُربانًا.

تكسَّرت الأمواج، تدفَّقت فوقنا، وتلاشت في البحر بسرعة كابوس. ثم ارتفعنا. ثم سقطنا في الغَوْر التالي. كان كلُّ ما يشدُّنا إلى الأمان هو معرفة رام الدِّين البسيطة بربط العُقَد. ما الذي كان يعرفه عن ربط العُقَد؟ حسبنا في سَكْرة موتنا أنَّه لا يعلم شيئًا عنها. لم نكن في أمان إطلاقًا. لم يكن ثمَّة إحساس بالزَّمن. كم بقينا هناك قبل أن تعمينا أضواء الكشَّافات الموجَّهة من البُرْج إلينا نحن الاثنين؟ حتى في وضعنا المتوتِّر أحسسنا بالغضب خلف الضوء. ثم تلاشى.

تعلَّمنا في ما بعد أسماء العواصف كلِّها. الشُّؤْبُوب، العَصْفَة، الإعصار، الزَّوبعة. وأُخْبِرنا في ما بعد عمَّا كانت عليه الحال أسفل سطح الباخرة، كيف تحطَّمت نوافذ الزجاج الملوَّن في غرفة كالِدونيان واحترقت الدوائر الكهربائية فورًا تقريبًا، فكانت هناك أضواء تومض صعودًا وهبوطًا في الأروقة، تتمايل أشعتها في الحانات والقاعات والناس يبحثون عن المسافرين المفقودين. انفكَّت قوارب النجاة جزئيًّا عن أعمدتها وتعلَّقت محنيَّة في الهواء. دارت بوصلة الباخرة. كان السيد هَيْستِي والسيد إنفيرنْيو عند أوْجِرة الكلاب يحاولان تهدئتها وقد عذَّبها صوت الرَّعد الهائج في آذانها. ضربت موجةٌ مساعدَ ضابط المحاسبة وجرفت قوَّتُها عينه الزُّجاجيَّة. حدث هذا كلُّه عندما كان رأسانا يمتدَّان إلى الخلف إذ نحاول تحديد مدى العمق الذي قد يبلغه مقدَّم الباخرة في هبوطها التالي. لم يكن صراخنا مسموعًا، حتى لأيٍّ منَّا. حتى لنفسيْنا. حتى إن بدت حناجرنا مسلوخة من الصراخ في

اليوم التالي في الرواق البحري ذاك.

بدا وكأنَّ ساعات انقضت قبل أن يَكِزَني أحدهم. كانت العاصفة ما تزال نشطة، ولكنَّها هادئة بما يكفي لإرسال ثلاثة بحَّارة خارجًا لإنقاذنا. قطعوا الحبال، أذابوا العُقَد المنتفِخة، وحملونا على السلالم إلى الأسفل إلى مقصورة طعام تضاعفت مساحتها لتصبح مركزًا طبِّيًا. كان ثمَّة بعض الضربات العنيفة في رأسيْنا وبضع أصابع مكسورة في أثناء الساعة أو الساعتين الأخيرتين. خُلِعَت عنَّا ثيابنا وقُدِّم إلى كلٍّ منَّا دثار. أُبلِغنا بأنَّه يمكننا النَّوم هناك. أتذكَّر أنني عندما حملني البحَّار كان هناك دفء في جسده. أتذكَّر عندما خلع أحدهم قميصي وقال أنَّ الأزرار كلَّها كانت مفكَّكة.

رأيت وجه كاسْيَس وكأنَّ جميع العُقَد قد زالت عنه. ثم، تمامًا قبل أن نستسلم للنوم مال كاسْيَس وقال هامسًا: "لا تنسَ، أحدهم تسبَّب لنا بهذا."

بعد ساعات عدَّة جلس ثلاثة ضبَّاط أمامنا. لقد أُوقِظنا وكنت أتوقَّع الأسوأ إذ ذاك. لعلَّنا سنُعَاد إلى كولومبو أو سنُضرَب. ولكن حالما جلس الضُّبَّاط قال كاسْيَس: "أحدهم تسبَّب لنا بهذا. لا أعلم من... لقد كانوا مُقنَّعِين،" أضاف.

كان هذا الاعتراف المُباغت يعني أنَّ تحقيق الضُّبَّاط سيطول حتى نقنعهم بأنَّ هذه هي الحقيقة، مع أنَّ آثار الحرق من الحبال تخبرهم جزئيًا بأنَّنا لا يمكن أن نفعل هذا لأنفسنا. قدَّموا إلينا بعضًا من شاي الباخرة، وحسبنا أننا نفدنا بجلدنا، عندما جاء مضيف وقال أنَّ القبطان يودُّ رؤيتنا. غمزني كاسْيَس بعينه. طالما قال أنه

يريد رؤية مقصورة القبطان.

اكتشفنا في ما بعد أنَّ أحد الضُّبَّاط كان قد ذهب إلى مقصورة رام الدِّين، بسبب علاقته المعروفة بنا. تظاهر رام الدِّين بالنوم وحين استيقظ تظاهر بعدم المعرفة ما إن قيل له أننا أحياء ولم يجرفنا البحر. لا بدَّ أنَّ هذا كان حوالي منتصف الليل. والآن إنها الثانية صباحًا. قُدِّمت لنا أردية الحمام ومضينا لنكون في حضرة القبطان.

كان كاسْيَس ينظر إلى أنحاء الحجرة، متأمِّلًا الأثاث عندما خبطت يد القبطان المائدة.

لقد كنَّا نرى القبطان إمَّا ضجِرًا وإمَّا مبتسمًا على نحو زائف في أثناء بثِّه الإعلانات العامة. وانفجر الآن على نحوٍ مسرحي وكأنَّما قد حُرِّر توًّا من قفص. بدأ التوبيخ بدقة حسابيَّة. أشار إلى أن ثمانية بحَّارة شاركوا في عملية إنقاذنا لأكثر من ثلاثين دقيقة. ونتج عن هذا على الأقل، على الأقل أربع ساعات مُهدَرة، ولمَّا كان متوسط أجر البحار X جنيه في الساعة، فإنَّ مجموع ضرب X في أربعة هو ما كلَّف الخطوط الجوِّيَّة الشَّرقيَّة، إلى جانب وقت رئيس المضيفين الذي يكلِّف Y جنيه آخر في الساعة. إضافة إلى الدَّفع أضعاف التكلفة المخصصة دائمًا لحالات الطوارئ. إضافةً إلى وقت القبطان، الأكثر غلاءً إلى حدٍّ بعيد. "لذلك سترسل باخرتنا فاتورة إلى آبائكم قيمتها 900 جنيه!" قال وهو يوقِّع بعض الأوراق الشبيهة بأوراق رسميَّة كانت ما اعتقدت أنه يمكن أن يكون مذكِّرته إلى الجمارك الإنكليزية لمنعنا من دخول إنكلترا. خبط المائدة مرَّةً أخرى متوعِّدًا بأنه سينزلنا عند أوَّل يابسة تبلغها الباخرة، وشرع يلعن أسلافنا. حاول كاسْيَس مقاطعته بما اعتقده ملاحظة لبِقة ومتواضعة.

"شكرًا جزيلًا لك على إنقاذنا يا عمّ."

"اخرس... أنت" كان يبحث عن الكلمة. "أيُّها الحيَّة[35]."

"أتقصد منديلًا[36] يا سيدي؟"

توقَّف القبطان وراقب كاسْيَس ليحدِّد ما إذا كان يسخر منه. لا بدَّ أنَّه شعر أنه في موقع أخلاقي حصين. "كلَّا. أنت ابنُ عِرْس المُنتِن. ابن عِرْس مُنتِن آسيوي، ابن عِرْس مُنتِن آسيوي صغير كريه. أتدري ما أصنع عندما أجد ابنَ عِرْس في منزلي؟ أضرم النار في خصيتيْه."

"أنا أحبُّ ابن عِرْس المُنتِن يا سيدي."

"أيها السَّمِج التَّفِه المُدَّعي..."

في أثناء الصمت الذي أعقب ذلك، وهو يواصل بحثه عن الشتائم انفتح باب حمام القبطان على مصراعيه ورأينا مرحاضه المصنوع من المِينا. لم نعد مهتمين بالقبطان. تأوَّه كاسْيَس وقال: "يا عم أشعر بالغثيان... أيمكنني استخدام..."

"اخرج! أيُّها العَفِن الصغير!"

رافقنا بحَّاران إلى مقصورتيْنا.

أنعمت فلافيا برِنْز النظر في سوارها وهي تتحدَّث إليَّ في غرفة كالِدونيان التي لحقت بها أضرار طفيفة. أرسلت ملحوظة عاجلة تلحُّ على أن أقابلها فورًا. كنَّا حتى تلك اللحظة قد مررنا بمحقِّقين عديدين، وقد أُلِحَّ علينا أن لا نذكر إطلاقًا ما حدث بأيِّ حال من

---

(35) viper
(36) wiper

الأحوال. وإلَّا وقعنا في مزيد من المتاعب. بيْد أنَّنا ذكرنا ما حدث لاثنيْن من رفاق مائدتنا في أثناء إفطار صباح اليوم التالي. كانت صالة الطعام فارغة تقريبًا، وكان هناك فقط الآنسة لاسْكِتِي والسيد دانيَلْز يتناولان الطعام معنا. وعندما أخبرناهما لم يَبْدُ أنهما يَعُدَّان الأمر خطيرًا إلى ذلك الحدّ. قالت الآنسة لاسْكِتِي: "ليس خطِرًا عليكما، وإنما خطِر جدًّا عليهم." لقد كانت، كما سنكتشف، الشخص المناسب في اتباع القواعد. فضلًا عن ذلك، كان أكثر ما أثار إعجابها هو العُقَد التي ربطها رام الدِّين التي قالت عنها أنَّها "أنقذت حياتكما." ولكنني الآن، وأنا أدنو من فلافيا برِنْز أدرك أنني قد أقع في متاعب مع راعيَتي غير الرسميَّة. فكَّت سوارها وأعادت تثبيته متجاهلة إيَّاي، ثم هجمت بغتة مثل طائر ينقر جبهة كلب.

"ما الذي حدث الليلة الفائتة؟"

قلت: "كانت هناك عاصفة".

"اعتقدتَ أنَّ هناك عاصفة؟"

تعجَّبتُ إن كانت لا تعرف أبدًا عمَّا مررنا به.

"كانت هناك عاصفة هوجاء يا خالة. جميعنا كنَّا مذعورين. كنَّا ننتفض على أسرَّتنا."

لم تقل شيئًا فاستأنفتُ.

"كان عليَّ أن أنادي مضيفًا. كنت أسقط من سريري. مشيت في الرواق حتى وجدت السيد (بيترْز) وطلبتُ إليه أن يربطني إلى السرير، وأن يربط كاسْيَس أيضًا. كادت ذراع كاسْيَس تنكسر عندما انقلبت الباخرة وسقط شيء ما فوقه. ذراعه مضمَّدة."

حدَّقت إليَّ دونما دَهَشٍ كبير.

"رأيت القبطان الليلة الماضية في المشفى عندما أخذت كاسْيَس إلى هناك. لقد رَبَت على ظهر كاسْيَس ودعاه بـ"الرَّفيق الشجاع." ثم جاء معنا السيد بيترز إلى الطابق السفلي وربطنا إلى أسرَّتنا. قال أنَّ هناك رجلًا وامرأة كانا يلعبان في أحد قوارب النجاة وأُصيبا عندما اصطدم القارب بسطح الباخرة. إنَّهما على ما يرام، ولكنَّ "شيئَه ذاك" أُصيب. كان عليه الخضوع للجراحة أيضًا."

"إنني أعرف خالك جيِّدًا..." توقَّفت لتُحدِث أثرًا كبيرًا. لقد كنت حذِرًا من عبارتها هذه وبدأت أحسُّ بأنها تعرف عن أحداث الليلة الفائتة أكثر مما توقَّعْت.

"وأعرف أمَّك، قليلًا. خالك قاضٍ! كيف تجرؤ على قول هذه الأكاذيب لي أنا التي يهمُّها كثيرًا أمر سلامتك."

انفجرت مفشيًا الأمر: "لقد قالوا لي أن لا أقول أيَّ شيء، أن لا أقول أيَّ شيء عن السيد بيترز. قالوا أنَّ السيد بيترْز "بحَّار محتال" يا خالة. قالوا أنهم سينزلونه عند أول يابسة تبلغها الباخرة. حينما طلبنا إليه أن يربطنا إلى أسرَّتنا لأجل سلامتنا أخذنا بدلًا من ذلك إلى السطح وربطنا هناك بهذه الحبال ليعاقبنا على... مقاطعة لعبة الورق التي كان يلعبها مع بعض السُّكارى. قال: هذا ما نفعله بالصبية العاصين الذين يقاطعوننا!"

حدَّقت إليَّ. ظننت أنني أقنعتها لحظة.

"لم أقابل قطُّ، قطُّ..." قالت وانصرفت.

لم يحدث الكثير في اليوم التالي. في غسق ذات مساء مرَّت بنا سفينة بخارية متجهة شرقًا، وكانت جميع مصابيحها مضاءة، وتخيَّل ثلاثتنا أننا نجذِّف نحوها ونقفل مع أصحابها إلى كولومبو. أمر رئيس

المهندسين بإبطاء المحرّكات لفحص أنظمة الطوارئ الكهربائية، وبدا لحظةً أننا توقّفنا في ما كان بحر العرب. لقد جعلنا السكون نشعر بأننا نسير نيامًا. ذهبت وكاسْيَس إلى السطح الساكن. في ذلك الحين فقط، في ذلك الهدوء الآمِن تخيَّلت الطبيعة الكاملة للعاصفة. كيف كنَّا بلا سقف وبلا أرض. ما شهدناه كان ما على البحر وحسب. والآن شيء ما حرَّر نفسه وولج فكري. لم تكن فقط الأشياء التي نراها غير آمنة. كان هناك القاع.

* * *

كان بين ممتلكات الأيروفيدي المُهرَّبة من مُوراتُوا كيسٌ حوى أوراق نبتة (الدَّاتورا) وبذورها المجلوبة من باكستان. لقد ابتاع النبتة للسّير هكتور ليُبدِّد ما انتاب جسده في الآونة الأخيرة من اضطراب ولِيَعُوْقَ أيضًا الهجمة الأولى لداء الكلب. كانت الدَّاتورا أنجع جرعة أخذها المليونير في أثناء رحلته البحرية. اشتهر العقار بكونه متعدِّد الجوانب والاستعمالات مع أنه لا يمكن اعتماده. هَبْ أنك عندما تضحك وتقطف زهرتها البيضاء يؤدِّي بك ذلك إلى مزيد من الضحك، أو أنك ترقص إن كان ذاك هو النشاط الذي تقوم به في أثناء القطف. (كزهرة كانت أكثر الزهور الفوَّاحة بالعطر في المساء.) إنها مفيدة للحُمَّى والأورام. ولكن هناك جزءًا منها ذو طبيعة صعبة المِراس، حينما يجيب الشخص أيضًا تحت تأثيرها عن الأسئلة بلا تردُّد وبصدق تام. وقد عُرِف عن هكتور دو سِلفا أنه رجل غير صادق إلى حدِّ الاحتراس.

طالما عدَّت زوجة المليونير، (دِلْيَا)، زوجَها متحفِّظًا على نحو جنوني. بعد أيام من مغادرتهم كولومبو على متن الأُورُونسَي، حينما كان تحت تأثير عقار الأيروفيدي، أُتيحت لها فرصة كشف الرجل الذي تزوَّجت. كلُّ قدر ضئيل من شبابه ظهر إلى العَلَن. لقد كشف عن الذُّعر الذي سبَّبته له سياط أبيه وقسَّمته إلى أجزاء وصنعت منه في نهاية المطاف ثريًّا غاشمًا. تحدَّث عن زياراته السِّرِّيَّة لأخيه (تشابمان)، الذي هرب من المنزل ومعه ابنة الجيران التي وقع في غرامها والتي عُرِف عنها أنَّ لها أصبعًا زائدة. قُطِعت في (شيلاو) وكانا يعيشان حياة عاقلة وهادئة في (كالُوتارا).

اكتشفت دِلْيَا أيضًا الطريقة التي نقل بها زوجها أمواله إلى مصارف مشبوهة عديدة. كثير من هذه المعلومات كشفه هكتور دو سِلفا في وقت العاصفة حين أخذ يتدحرج على فراشه الكبير من جانب إلى آخر والباخرة ترتجُّ وتهبط. بدا في الواقع أنه يجد متعة في ذلك، في حين كانت زوجته وبقية حاشيته يُهرَعون من سريره للتقيؤ في مقصوراتهم المجاورة. لقد قضت الدَّاتُورا على كلِّ همٍّ فيه، وكلِّ عَرَض جانبي من أعراض الغثيان، وكلِّ خَصْلة احتراس. كان عقارًا منشِّطًا، حوَّله من شريك أعجف ناءٍ إلى رفيق لطيف. في البداية مضى هذا التَّبدُّل في الشخصية دون أن يُلاحظ. كانت الباخرة كلُّها في غمرة العاصفة. اندلع حريق صغير في غرفة المحرِّك عندما بدأ يقول الحقيقة أوَّل مرَّة في حياته كشخص بالغ. وقد جلب الطقس الخطِر النَّشَّالين الذين دائمًا ما ينتعشون في المواقف المتقلقلة حيث تبرز الحاجة إلى المساعدة البدنيَّة. إضافة إلى هذا، تبلَّلت مقصورة حبوب بأكملها وانفتحت فتناثر الحَبُّ في العنبر، مُبدِّلًا اتِّزان جوانب الباخرة،

فذهب طاقم الطوارئ إلى الطابق السفلي وجرفوه وأعادوه كما يعيد النَّجَّار بناء الحدود. لقد عملوا في الظلام في أعماق العنبر تحت ضوء شحيح فقط من مصباح زيتي، كانوا يقومون "بعمل حفَّار القبور" كما أطلق عليه (جوزيف كونراد)، وخواصرهم غائصة في الحُبوب. في الوقت ذاته، كان السّير هكتور يستعيد لحاشيته الصغيرة ذكرى حلوة صغيرة عن سيارة تنزلق كان يقودها وهو صبي في أحد الأسواق في كولومبو. حكى القصة مرارًا وتكرارًا، في كلِّ مرَّة يفضُّها لزوجته وابنته والأطباء الثلاثة اللامبالين بها وكأنَّها جديدة.

أيَّما كان المصير الذي يمكن أن تؤول إليه باخرتنا الآخذة في الإبحار مثل نعش في العاصفة، كان السّير هكتور يتلذَّذ ببضعة أيام طيِّبة متحرِّرًا من الحقيقة المتعلِّقة بثرائه، وملذَّاته السِّرِّيَّة، وعاطفته الصادقة إزاء زوجته، في حين راحت الباخرة تضرب أحشاء البحر ثم تنهض مثل سمكةٍ شوكيَّة الجوف مغطَّاة بالقشور، والبحر يسفح عناصره، حتى سقط الميكانيكيون على المحرِّكات السَّاخنة الحمراء فاحترقت أذرعهم، ومن يُحسَب أنهُّم صفوة الشَّرق تعثَّروا في الأروقة الطويلة بالنَّشَّالين، وأعضاء الفرقة سقطوا من المناصّ في فورة أدائهم أغنية "أَلْقِ اللَّوم على شبابي" حين كنت وكاشيَس نستلقي ممدَّدي الأرجل والأذرع على سطح التَّنزُّه تحت المطر.

***

شيئًا فشيئًا أخذت سطوح الباخرة وقاعات الطعام تعجُّ بالناس. أقبلت علينا الآنسة لاسْكِتِي مبتسمةً لتقول أنه كان على

رئيس المضيفين أن يسجِّل "جميع الأحداث غير العاديَّة" في سجلِّ الباخرة، ولذا فإننا قد نظهر في سجلات الباخرة. كما كانت هناك سلسلة من "تبدُّل مواضع الأشياء" على الباخرة. ضاعت أطقم من لعبة الكروكيت، وفُقِدت حافظات نقود في أثناء العاصفة. ظهر قبطاننا وقال للجميع أنَّ حاكي فونوغراف يعود إلى الآنسة المدعوَّة (كوِين كاردِف) قد ضلَّ الطريق ولم يعرفوا موقعه، ولذا فإنَّ أيَّ معرفة بمكانه ستكون موضع تقدير. كاشيَس، الذي كان في وقت قريب في الأسفل في العنبر يرقب المهندسين وهم يصلحون جزءًا من مضخة جوف الباخرة، زعم أنَّ الحاكي كان هناك يعمل بصوت عالٍ ومتَّصل. واجه موظفو الباخرة هذا النَّمط من الأشياء المفقودة بإعلان أنَّ قُرْطًا وُجِد بطريقة ما في قارب نجاة، ويرجى تعيينه واسترداده من خلال مكتب ضابط المحاسبة. لم يُذكَر شيء عن عين مساعد ضابط المحاسبة الزُّجاجيَّة، مع أنَّ نظام الاتصال الداخلي استمر يعدِّد بِهَوَس بضعة أشياء استُعيدت. "وُجِد: دَبُّوس بروش. قبَّعة نسائيَّة بُنِّيَّة. مجلة تعود إلى السيد (برِيدج) بصور غير عاديَّة."

لقد عَنَى تعافي الباخرة من العاصفة وعودة الطقس الجيِّد شيئًا واحدًا جيِّدًا. سُمِح للسجين بالقيام بنزهته المسائية مرَّةً أخرى. انتظرناه ورأيناه أخيرًا يقف هناك على السطح مقيَّدًا. سحب نفسًا عميقًا آخذًا كل طاقة هواء الليل حوله ثم أطلقه ووجهه مفعمٌ بابتسامة مَهيبة.

انطلقت باخرتنا صوب عدن.

اليابسة

كانت عدن أوَّلَ ميناء نزوره، وفي أثناء اليوم السابق لوصولنا عمَّ هياجُ كتابة الرسائل. لقد كان ذلك تقليدًا أن يجعل المرء بريده يُختَم في عدن، حيث يمكن إرساله إلى أستراليا أو سيلان أو قُدُمًا إلى إنكلترا. جميعنا كان توَّاقًا إلى منظر اليابسة، وحين أبلج الصباح وقفنا في صفٍّ على طول مُقدَّم الباخرة لنرى المدينة العتيقة وهي تدنو كسراب من خلف قوس التِّلال الغبراء. لقد كانت عدن ميناءً كبيرًا يعود إلى القرن السابع قبل الميلاد وقد ذُكِر في العهد القديم. كانت المكان الذي دُفِن فيه قابيل وهابيل، قال السيد فونْسِكا وهو يُعِدُّنا للمدينة التي لم يرها هو نفسه من قبل قطٌّ. فيها صهاريج بُنيَت من الصخور البركانية، وسوق صقور، وواحة، وحوض أسماك، وجزء من المدينة مخصَّص لصانعي الأشرعة، ومتاجر تحوي بضائع من كل زاوية في العالم. ستكون آخر موطئ قدم لنا في الشرق. وبعد عدن سنبحر نصف يوم فقط قبل أن نلج البحر الأحمر.

أوقفت الأُورُونسَي محرِّكاتِها. لم نَرسُ على رصيف الميناء وإنما على الميناء الخارجي في نقطة التقاء البواخر. إذا أراد المسافرون الذهاب إلى الشاطئ فيمكن العبور بهم إلى المدينة بواسطة المراكب

التي كانت تنتظر إلى جانب باخرتنا. كانت التاسعة صباحًا، ومن دون نسيم البحر الذي اعتدناه كان الهواء ثقيلًا وحارًّا.

في ذلك الصباح أعلن القبطان قواعد دخول المدينة. لقد سُمِح للمسافرين بترك الشاطئ ستَّ ساعات فقط. لا يذهب الأطفال إلَّا برفقة "رجل بالغ مسؤول." ومُنِعت النساء الذهابَ منعًا قاطعًا. كان هناك غضب متوقَّع إزاء ذلك، ولا سيَّما بين إمِلِي ومجموعة صديقاتها عند حوض السباحة اللاتي أردْن التَّرجُّل من الباخرة وإبهار المواطنين بجمالهن. وانزعجت الآنسة لاسْكِتِي لأنها كانت تودُّ دراسة الصقور المحلِّيَّة. وكانت تأمل أن تجلب معها بعضًا منها معصوب العينين إلى الباخرة. كنت وكاسْيَس ورام الدِّين قلقين أكثر حيال إيجاد شخص ليس برجلٍ مسؤول كي يأخذنا معه، شخصٍ يسهُل تشتيت انتباهه. بالرَّغم من فضول السيد فونْسِكا، لم تكن لديه خطط لترك الباخرة. ثم سمعنا أنَّ السيد دانيَلْز يتوق إلى زيارة الواحة القديمة ليدرس حياتها النباتية، حيث كما قال أنَّ كل ورقة نبات هناك تنتفخ بالماء، وغليظة مثل أصبعك. كان مهتمًّا أيضًا بشيء يُسمَّى "قات" حدَّث الأيروفيدي عنه. عرضنا عليه أن ننقل أيَّ نبات إلى الباخرة ووافق، فهبطنا معه سلالم الحبال إلى مركبٍ بأسرع ما يمكن.

لقد أحاطت بنا فورًا لغة جديدة. كان السيد دانيَلْز مشغولًا بمفاوضة أحد الحمَّالين على رسوم نقلنا إلى حيث توجد النخيل العظيمة. بدا أنَّ مفاوضته ضاعت وسط الحشد، فتركناه هناك يجادل وتسلَّلنا بعيدًا عنه. أومأ إلينا بائع سَجَّاد وقدَّم لنا شايًا فجلسنا معه وقتًا ضاحكين كلَّما ضحك مومِئين كلَّما أومأ. كان هناك

كلب صغير قال أنه يودُّ إعطاءنا إيَّاه ولكننا انصرفنا عنه.

بدأنا نتجادل فيما نودُّ أن نرى. أراد رام الدِّين زيارة حوض الأسماك الذي بُنِي منذ عقود خلت. كان جليًّا أنه شيء أخبره عنه السيد فونْسِكا. لقد تجهَّم من فكرة رؤية الأسواق أوَّلًا. على أيَّة حال، دخلنا المتاجر الضيقة التي تبيع البذور والإبر، وتصنع النُّعوش، وتطبع الخرائط والكتيبات. وخارجًا في الشارع يمكن لشكل رأسك أن يُقرأ ولأسنانك أن تُخلَع. قَصَّ حلاق شعر رأس كاشْيَس ودفع مقصًّا رديئًا بسرعة في أنفه لينزع أي شعر زائد يمكن إيجاده في منخري فتى في الثانية عشرة.

لقد اعتدت الفوضى الخَصْبَة في سوق بتاه في كولومبو، رائحةَ قماش السَّارُنْغ وهو يُمدَّد ويُقَصُّ (رائحة تعلق بالحنجرة)، وفاكهةَ (مانغوستِين)، وأغلفةَ الكتب المبتلَّة بالمطر في كُشْكِ كتب. هنا عالم أكثر صرامة وأقلُّ ترفًا. لا توجد فاكهة فائقة النضج في قنوات تصريف الماء. في الواقع لم تكن هناك قنوات مائية. كانت طبيعة غبراء وكأنَّما الماء لم يُختَرَع. كان السائلَ الوحيدَ كوبُ الشاي الأسود الذي قدَّمه لنا بائع السَّجَّاد، مع حلوى اللَّوز اللذيذة التي سنتذكَّرها دومًا. حتى لو كانت هذه المدينةُ مدينةَ ميناء، فإن الهواء لا يكاد يحمل ذرَّة رطوبة. عليك أن تنعم النظر في ما يمكن أن يُخبَّأ في الجيوب؛ قارورة زيت شعر نسائي ملفوفة بورق، أو إزميل مغلَّف بقماش زيتي لحماية شفرته من غبار الهواء.

دخلنا مبنى أسمنتيًّا على حافَّة البحر. قادنا رام الدِّين عبر متاهة من الأحواض تحت الأرض. بدا حوض الأسماك مهجورًا إلَّا من بضع أعداد من أنقليس الحدائق المجلوب من البحر الأحمر

وبعض الأسماك عديمة اللون تسبح في قَدَمٍ من المياه المالحة. صعدت وكاسُيَس إلى طابق آخر حيث توجد نماذج محنَّطة من الحياة البحرية ترقد في الغبار إلى جانب ما يمكن أن يكون أداة تقنية؛ خرطوم، مولِّد صغير، مضخَّة يدوية، مجرفة وفرشاة. تجوَّلنا خمس دقائق في المكان كلِّه وزرنا مرَّةً أخرى جميع المتاجر التي دخلناها، هذه المرَّة لنقول وداعًا. الحلاق الذي لم يزره زبائن آخرون بعد، دَلَّك رأسي ساكبًا في شعري زيوتًا مجهولة.

بلغنا رصيف الميناء قبل الموعد المحدَّد. من قَبِيل مجاملة متأخرة جدًّا، قرَّرنا انتظار السيد دانيَلْز على الرصيف، رام الدِّين متلفِّعًا بجِلْباب، وكاسُيَس وأنا حاضنيْن جسدَيْنا في الهواء الخفيف الآتي من المحيط. تهادت المراكب في الماء وحاولنا التخمين أيُّها يملك القراصنة، لأنَّ مضيفًا أخبرنا بأنَّ القرصنة شائعة هنا. يدٌ مضمومة تحمل لآلئ. في الأصيل كان هناك صيد الأسماك التي تناثرت تحت أقدامنا وكانت أكثر تنوُّعًا في اللَّون من أسلافها في الداخل، تلمع كلَّما رُشَّ الماء فوقها. كانت المهن على طول هذا اللِّسان البري تنتمي إلى البحر، وكان التُّجَّار الذين أحاط بنا ضحكهم ومقايضاتهم مُلَّاكَ العالم. أدركنا أننا رأينا فقط جزءًا صغيرًا من المدينة، لقد ألقينا نظرة سريعة وحسب على الجزيرة العربية عبر ثقب مفتاح. وقد فاتتنا رؤية الصهاريج والموقع الذي دُفِن فيه قابيل وهابيل، بيْد أنه كان يومًا للاستماع المعقَّد والمراقبة الدقيقة حيث كانت كل أحاديثنا بالإشارة. بدأت السماء تسودُّ عند نقطة التقاء البواخر أو التَّواهي كما كان يطلق عليها الملاحون.

أخيرًا رأينا السيد دانيَلْز يتقدَّم في الميناء بخطًى واسعة.

كان يحمل بين ذراعيه نبتة ثقيلة ويرافقه رجلان واهنا المظهر بثياب بيضاء، كل منهما يحمل نخلة صغيرة. حيَّانا بحبور، بدا جليًّا أنَّه لم يكن مهتمًّا كثيرًا- إن كان مهتمًّا على أيَّة حال- بشأن اختفائنا. كان الرجلان الهزيلان صاحبا الشَّوارب اللذان يساعدانه صامتَين، وحين كان أحدهما يناولني النخلة الصغيرة مسح العرق عن وجهه وغمزني بعينه وابتسم، فعرفت أنها كانت إمِلِي بثياب رجل. وبقربها كانت الآنسة لاسْكِتِي متنكِّرة بالطريقة نفسها. أخذ كاسْيَس النخلة منها وحملناهما إلى المركب. ركب رام الدِّين معنا وجلس محدودب الظهر وملتفًّا بمعطفه في أثناء رحلة العشر دقائق إلى الباخرة.

حالما عدنا إلى سطح الباخرة شقَّ ثلاثتنا الطريق إلى مقصورة رام الدِّين في الطابق السفلي حيث نشر جلبابه ليُظهِر كلب بائع السجاد ثانيةً.

جئنا إلى السطح بعد ساعة. كان الظلام قد حلَّ وأضواء الأُورُونسَي أكثر سطوعًا من أضواء اليابسة. لم تتحرَّك الباخرة بعد. في قاعة العشاء كانت هناك أحاديث صاخبة عن مغامرات اليوم. فقط رام الدِّين وكاسْيَس وأنا بقينا صامتين. كنَّا في حماسة كبيرة بسبب تهريبنا الكلب إلى المركب ونعرف أنَّنا لو تفوَّهنا بمقطع واحد فقط لانطلقنا في سرد القصة كلِّها على نحو يتعذَّر التَّحكُّم فيه. لقد قضينا الساعة الفوضوية الماضية ونحن نحاول تحميم الحيوان في كشك الاستحمام الضَّيِّق في مقصورة رام الدِّين، متجنِّبين ضربات مخالبه. كان جليًّا أنَّ المخلوق لم يصادف في حياته قطُّ صابونًا كربوليًّا. جفَّفنا الكلب بملاءة سرير رام الدِّين وتركناه في المقصورة

ومضينا إلى الطابق العلوي لتناول الطعام.

أخذنا نستمع إلى القصص ونحن جالسون إلى مائدة القط مع أشخاص يقاطع بعضهم بعضًا. كانت النساء صامتات. وكنَّا ثلاثتنا صامتين. مرَّت إمِلِي بمائدتنا ومالت لتسألني إذا ما كنت قد قضيت يومًا طيبًا. سألتها بتهذيب عمَّا فعلت عندما ذهبنا إلى الشاطئ وقالت أنها قضت اليوم "وهي تحمل الأشياء"، ثم غمزتني بعينها وانصرفت ضاحكة. كان أحد الأشياء التي فاتتنا ونحن نجُولُ في عدن "الرجلَ المشعوذَ" الذي جذَّف إلى الأُورُونسَي ليعرض خدعًا سحريَّة. بدا أنَّ قاربه رُفِع جزئيًّا إلى ظهر الباخرة كي يُتَاح له الوقوف على ما يشبه خشبة المسرح ويُخرج دجاجًا من ثيابه. وفي نهاية عرضه كانت هناك أكثر من عشرين دجاجة ترفرف حواليه. لقد قيل لنا أنَّ هناك مشعوذين كُثْرًا، وقد يحالفنا الحظ أن نرى أحدهم في بورسعيد.

شعرنا باهتزاز في أثناء تناول الحلوى حين شُغِّلت محرِّكات الباخرة. نهض جميعنا ومضينا إلى الدَّرابزين لنشهد لحظة الرحيل، وقلعتنا تنزلق ببطء بعيدًا عن خطِّ الأضواء الرقيق عائدةً إلى الظلام الدَّامس.

حرسنا الكلب تلك الليلة. لقد كان مذعورًا من تحرُّكنا المفاجئ إلى أن تمكَّن رام الدِّين من إحضاره إلى سريره وخلد إلى النوم بين ذراعيه. عندما استيقظ ثلاثتنا صباح اليوم التالي كنَّا قد ولجنا البحر الأحمر، وفي أثناء هذا العبور، في اليوم الأوَّل من إبحارنا شمالًا حدث شيء مباغت.

طالما كان من العسير اختراق الحاجز الذي يفصلنا عن الدرجة الأولى. كان هناك مضيفان مهذَّبان وحازمان، إمَّا أنهما يتيحان لك الدخول وإمَّا أنهما يصرفانك. بيْد أنهما لم يتمكنَّا حتى من إيقاف كلب رام الدِّين الصغير. لقد قفز من بين ذراعي كاسْيَس واندفع خارجًا من المقصورة. أخذنا نجري ذهابًا وإيابًا في الأروقة بحثًا عنه. وفي غضون دقائق لا بد أنَّ الرفيق الصغير ظهر في ضوء الشمس على السطح (ب) وأخذ يجري قرب الدَّرابزين، ولعلَّه ركض في صالة الحفلات السُّفليَّة، صاعدًا سلالمها المذهَّبة عابرًا أمام المضيفيْن إلى الدرجة الأولى. تمكَّنوا من الإمساك به، ولكنَّه سرعان ما تحرَّر مرَّةً أخرى. لم يأكل شيئًا من الطعام الذي قدَّمناه له واختطفناه من قاعة الطعام في جيوب سراويلنا، فلعلَّه كان يبحث عن شيء يأكله.

لم يتمكَّن أحد من محاصرته. رآه المسافرون لحظة خاطفة وحسب. لم يَبدُ مهتمًّا بالبشر على الإطلاق. انحنت نساء متأنِّقات ورحن يطلقن تحيَّات مصطنعة عالية النبرة، لكنَّه انطلق أمامهن جميعًا دون توقُّف ثم دخل فجوة المكتبة المصنوعة من خشب الكرز واختفى في مكان ما وراءها. من يدري عمَّا كان يبحث؟ أو ما الذي كان يحسُّه في ذلك القلب الخافق بشدَّة دون شك؟ كان كلبًا جائعًا أو خائفًا وحسب على هذه الباخرة التي أصابته برهاب الاحتجاز والتي أصبحت مَجَاوِزُها الضَّيِّقة بغتةً طريقًا مسدودًا وهو يركض أبعد وأبعد عن أي إشارة لضوء النهار. وفي نهاية المطاف شقَّ المخلوق طريقه خابًّا في قاعة مكسوَّة جدرانها بخشب الماهوغاني ومفروشة بالسَّجَّاد، وانسلَّ عبر باب نصف مفتوح إلى جناح رئيس، تركه أحدهم مفتوحًا وهو يحمل صينية عامرةً بالطعام. قفز الكلب إلى سرير ضخم حيث يرقد السّير هكتور دو سِلفا وعضَّه عضًّا عميقًا في حنجرته.

كانت الأُورُونسَي تستريح طوال الليل بين مياه البحر الأحمر المحميَّة. مع انبلاج الفجر مررنا بجُزُر جازان الصغيرة، وقُيِّض لنا رؤية الوجود المضبَّب لواحة مدينة أبْها في البعيد، وقد كشف نور الشمس وميضًا من قطعة زجاج أو حائط أبيض. ثم ذابت المدينة تحت الشمس واختفت عن أنظارنا.

بحلول وقت الإفطار كان نبأ موت السّير هكتور قد ذاع في أرجاء الباخرة، وأعقبه سريعًا همسٌ بأنَّه سيُوارى البحر. ولكن، بدا أنَّه ليس من الممكن إعداد جنازة في مياه المحيط، ولهذا سينتظر الجثمان الفضاء المفتوح في البحر الأبيض المتوسط. ثمَّ بلغتنا أكثر الأنباء ترويعًا عن كيفية موته، إثر القصة التي سمعناها من الأيروفيدي عن السِّحر الذي أصابه به الكاهن البوذي. ومن ثمَّ فكر رام الدِّين أنَّ القدر هو الذي قتله، ولسنا نحن لأننا جلبنا الكلب إلى متن الباخرة. ولأننا لم نرَ المخلوق الصغير مرَّةً أخرى، فقد انتهينا إلى الاعتقاد بأنَّ الكلب المهرَّب كان طيفًا.

كانت معظم الأسئلة في أثناء الغداء تدور حول كيف كان لكلب أن يصعد إلى سطح الباخرة. وأين هو الآن؟ لقد كانت الآنسة

لاسْكِتِي على يقين من أنَّ القبطان في ورطة كبيرة. قد تُرفع عليه دعوى قضائية لإهماله. ثم أتت إِمِلِي إلى مائدتنا وطلبت أن تعرف ما إذا كنَّا نحن من جلبنا الكلب إلى الباخرة، فأجبنا بمحاولة إظهار نظرة رعب على وجوهنا جعلتها تضحك. الشخص الوحيد الذي لم يُبدِ أيَّ اهتمام بالآراء حوله كان السيد مازابا الذي جلس يتأمَّل حساء ذيل الثور الخاص به. أصابعه التي كانت موسيقيَّة ذات يوم ما تزال تستريح على مفرش المائدة. بدا بغتةً وحيدًا وعاجزًا عن الكلام، فغدا شغلي الشاغل في أثناء تناولنا الوجبة وحديثنا وحدسنا في أمر السّير هكتور. لاحظت أنَّ الآنسة لاسْكِتِي كانت تنظر إليه أيضًا، وقد طأطأت رأسها وراحت تحملق إليه من خلال رموشها. وفي لحظة من اللحظات وضعت يدها حتى فوق تلك الأصابع الساكنة، بيْد أنَّه سحب يده. كلَّا، لم يكن وجودنا بين الحدود الصارمة للبحر الأحمر يسيرًا لبعض الجالسين إلى مائدتنا. لعلَّنا شعرنا من الناحية العاطفية بأننا محاصرون باليابسة بعد تلك الحُرِّيَّة التي أتت مع المحيطات الجامحة التي عبرناها. وهناك موت على أيَّة حال، أو فكرة عن القدر أكثر تعقيدًا. بدا أنَّ الأبواب كانت تُغلَق في سفرنا المحفوف بالمخاطر.

صحوت في صباح اليوم التالي من دون رغبتي المعتادة في لقاء صديقيَّ. سمعت طرق رام الدِّين المعهود، بيْد أنني لم أُجِب. وبدلًا من ذلك قضيت الوقت أرتدي ملابسي، ثم صعدت إلى السطح وحدي. كان ضوء الصحراء قد لاح منذ ساعات، ومررنا بجِدَّة في حوالي الثامنة والنصف. على الجانب الآخر من الباخرة كان المسافرون بمناظيرهم يحاولون اقتناص لمحة من النِّيل في مكان ما عميقٍ في الداخل. كانوا جميعًا كبارًا على السطح، ما من أحد أعرفه، وشعرت أنني بلا رابط. حاولت تذكُّر رقم مقصورة إمِلِي التي لم تكن تصحو باكرًا قطُّ، ومضيت إلى هناك.

كنت أكثر ما أُغرَم بإمِلِي عندما لا نكون محاطَين بآخرِين. في هذه اللحظات، دائمًا ما أحس بأني أتعلَّم منها. طرقت الباب مرَّاتٍ عدَّة قبل أن تفتح، ملتفَّةً بمنامتها. كانت الساعة التاسعة، كنت قد استيقظت منذ ساعات، ولكنَّها كانت ما تزال في فراشها.

"أوه، مايكل."

"هل لي بالدخول؟"

"أجل."

وتراجعت إلى الوراء وانزلقت تحت الملاءات، وفي الوقت ذاته تخلَّصتْ من المنامة، بدا أنَّ كلاهما حَدَثَ بالحركة نفسها.

"ما زلنا في البحر الأحمر."

"أعلم."

"لقد مررنا بجِدَّة، رأيتها."

"إن كنت ستبقى أَعِدَّ لي بعض القهوة، هلَّا فعلت...؟"

"أتريدين سيجارة؟"

"ليس بعد."

"عندما تريدين، هل لي بإشعالها؟"

جلست معها الصباح كلَّه. لا أعلم لِمَ كنت مشوَّشًا حيال الأشياء. كنت في الحادية عشرة. لا يعرف المرء الكثير حينها. أخبرتها عن الكلب، كيف جلبناه إلى الباخرة. كنت مستلقيًا إلى جانبها على الفراش حاملًا إحدى سجائرها غير المُشعَلة، متظاهرًا بالتدخين، ومدَّت يديها وأدارت رأسي نحوها.

قالت: "لا تفعل، أعني، لا تخبر أحدًا آخر عن هذا الأمر، عمَّا قلته لي الآن."

أجبت: "نعتقد أنه قد يكون شبحًا، الشبح المسحور."

"لا يهمُّني. يجب أن لا تذكره ثانية. عِدني."

قلت أنني لن أذكره.

بدأنا تقليدًا بيننا. أن أخبر إمِلي في لحظات بعينها في حياتي بالأشياء التي لا أخبر بها الآخرين. وفي ما بعد في حياتنا، بعد ذلك بكثير، ستخبرني عمَّا مرَّت به. طوال حياتي كلِّها، ستبقى إمِلي مختلفة

عن أيِّ شخص عرفته.

لمست قمَّة رأسي بإشارة تمكَّنت عبرها أن تقول: "أوه، لننس الأمر. لا تقلق." لكنني لم أشح بوجهي وبقيت أراقبها.

"ما الأمر؟" رفعت حاجبها.

"لا أعرف، أحسُّ بالغرابة. أن أكون هنا. ما الذي سيحدث عندما أذهب إلى إنكلترا؟ هل ستكونين معي؟"

"تعلم أنني لن أكون."

"لكنني لا أعرف أحدًا هناك."

"وأمك؟"

"لكنني لا أعرفها كما أعرفك."

"بلى إنك تعرفها."

وضعت رأسي على المخدَّة ونظرت إلى الأعلى، ولم أعد أنظر إليها.

"يقول السيد مازابا أنني غريب الأطوار."

ضحكت. "لست غريب الأطوار يا مايكل. كما إن ذلك ليس سيئًا." مالت عليَّ وقبَّلتني. "والآن أَعِدَّ لي بعض القهوة. ذاك هو الكوب. يمكنك استخدام الماء الساخن من الصنبور." نهضت ونظرت حواليّ.

"ما من قهوة هنا."

"فلتطلبها إذن."

ضغطت زر الاتصال، وبينما كنت أنتظر رحت أفحص صورة ملكة إنكلترا وهي تنظر إلينا من الحائط.

قلت: "أجل، بعض القهوة للمقصورة ستة وثلاثين. الآنسة إمِلِي دو سارام."

عندما جاء المضيف قابلته عند الباب وحين انصرف جلبت لها الصينية. كانت نصف جالسة، ثم تذكَّرتُ المنامة وتناولتُها. بيْد أنَّ ما رأيتُه هزَّني في أعماق قلبي. كانت ثمَّة رعشة داخلي، شيء سيصبح طبيعيًّا لي في ما بعد، بيْد أنه كان في تلك اللحظة مزيجًا من الإثارة والدُّوار. فجأة كان هناك خليج واسع بين وجود إمِلي وبين وجودي، ولن يكون بإمكاني عبوره أبدًا.

إن كان ثمَّة من رغبة من نوع ما في داخلي، فمن أين أتت إذن؟ هل تعود إلى شخص آخر؟ أم أنها كانت جزءًا منِّي؟ كان الأمر وكأنَّ يدًا من الصحراء المحيطة بنا امتدَّت ولمستني. وستعاود الظهور في بقيَّة حياتي، بيْد أنها في مقصورة إمِلي كانت المسَّ الرَّفيق الأوَّل بتنوُّعه الطويل. ومع ذلك من أين أتت؟ وهل كانت فرحًا أم حزنًا، تلك الحياة داخلي؟ بدا الأمر بوجود هذه الرَّغبة وكأنني كنت أفتقد شيئًا أساسيًّا، كالماء. وضعتُ الصينية أرضًا وصعدت ثانية إلى سرير إمِلي المرتفع. شعرت في تلك اللحظة أنني كنت وحيدًا أعوامًا. لقد عشت بحذر شديد مع عائلتي، وكأنَّما كانت هناك شظايا من الزجاج تحيط بنا دومًا.

والآن كنت في طريقي إلى إنكلترا، حيث تعيش أمي منذ ثلاثة أعوام أو أربعة. لا أتذكَّر كم من الوقت كانت هناك. وحتى الآن، كل هذه الأعوام في ما بعد، لا أتذكَّر ذلك التفصيل المهم للغاية، فترة الانفصال، وكأنَّما كما هو الحال عند الحيوان، كانت هناك معرفة محدودة بانقضاء الزمن المفقود. ثلاثة أيام أو ثلاثة أسابيع هي المدَّة نفسها لكلب، كما يُقال. بيْد أنني كلَّما عدتُّ من أيَّة فترة غياب تلقاني كلبتي مدركةَ إيَّاي إدراكًا فوريًّا لطيفًا ونحن نتعانق

ونتصارع على الأرضية المفروشة بالسجاد في القاعة الأمامية، ولكن، عندما التقيت أمي أخيرًا على رصيف ميناء تِيلبُرِي كانت قد أصبحت "آخر"، غريبة، وأنا أعانقها بحذر. لم يكن ثمَّة عناق كعناق كلبتي أو صراع أو رائحة أليفة. وأحسب أنَّ هذا ربَّما بسبب ما حدث لي مع إمِلِي – ذواتنا القريبة على نحو بعيد – ذلك الصباح في تلك المقصورة التي كانت بلون المَغْرَة، بعيدًا عن التماع البحر الأحمر والصحراء الممتدة بعيدًا أميالًا.

جثوتُ فوق ذلك السرير على يديَّ وركبتيَّ ورحتُ أنشج. مالت إمِلِي وحضنتني بطريقة ناعمة جدًّا بالكاد شعرت أنها لمستني، وبيننا غشاء من هواء طليق. سالت دموعي الحارقة من ظلمة نفسي على الجزء العلوي من ذراعها الباردة.

"ما الخطب؟"

"لا أعلم." أيَّما كان ما أحطت به نفسي من دعائم صغيرة كوسيلة دفاع ضرورية تحتويني وتحميني وتميِّز حدودي، فإنه لم يعد هناك.

لعلَّنا تحدَّثنا حينها. لا أتذكَّر. لقد كنت واعيًا بالهدوء المنبسط المحيط بي، وأصبح تنفُّسي في نهاية المطاف يوازي سرعة تنفُّسها الهادئة ذاتها.

لا بدَّ أنني استسلمت للنوم بعضَ الوقت، وصحوت حين مدَّت إمِلِي يدها الأخرى فوق كتفها دون أن تبتعد عني لتتناول كوب القهوة. وما لبثتُ أن سمعت صوت الاحتساء السريع، وأذني على عنقها. يدها الأخرى كانت ما تزال تمسك يدي كما لم يفعل أحدٌ من قبل، تقنعني بسلام ربَّما ما كان موجودًا.

دائمًا ما يكون الكبار على استعداد للانحراف التَّدرُّجيِّ أو المفاجئ في قصَّة مقبلة. شأنه شأن البارون، غادر السيد مازابا الباخرة حين بلغنا بورسعيد واختفى من حياتنا. لقد هيمن عليه شيء ما في الأيام القليلة قبل بلوغنا عدن. وسيدرك السيد دانيَلْز أنَّ إمِلِي لا تُكِنُّ له أيَّ اهتمام ولا لعالم نباته. وكان موت المليونير من عضَّة الكلب الثانية أكثر مأساوية من كونه مثيرًا. حتى قبطاننا السَّيِّئ الحظ سيواصل رحلته ليجد مزيدًا من الفوضى في حمولته من البشر. لا بدَّ أنَّهم جميعًا كانوا محبوسين أو منكوبين بطريقة ما. أمَّا أنا، ففي تلك المقصورة، كانت المرة الأولى التي أنظر فيها إلى نفسي بعين بعيدة، تمامًا مثلما راقبتني عيون الملكة الشَّابَّة البعيدة طوال الصباح.

عندما غادرت مقصورة إمِلِي (ولم تتكرَّر هذه العلاقة الحميمة)، عرفت أنني سأبقى متصلًا بها دومًا عبر نهر تحت الأرض أو طبقة من الفحم أو الفضة، حسنًا، لنقل الفضة، لأنها طالما كانت مهمَّة لي. في البحر الأحمر، لا بدَّ أنني وقعت في حبِّها. مع أنني لمَّا انسحبتُ تلاشى مغناطيسه أو أيًّا ما كان ذاك.

كم من الوقت مضى على بقائي على ما شعرت أنه سرير سماء عالية مع إمِلِي؟ كلَّما التقينا لم نكن نذكر الأمر. لعلَّها لا تتذكَّر حتى كم من الألم أزاحت عني أو تشبَّثتْ به، أو كم من الوقت. لم أعرف قطُّ قبضةَ يد أخرى كيَدِها أو رائحةَ ذراع كذراعها التي برزت من النوم. لم أبكِ قطُّ إلى جانب شخص ما أثارني بطريقة لم يسعني تخيُّلها. ولكن، لا بدَّ أنَّ ثمَّة فهمًا ما فيها وهي تنظر إليَّ وفي إيماءاتها الودود الصغيرة.

وأنا أكتب هذا، لا أودُّ أن ينتهي الأمر حتى أفهمه على نحوٍ أفضل، على نحوٍ يُهدِّئ من رَوْعي حتى في هذه اللحظة، بعد هذه السنوات كلِّها. مثلًا، إلى أيِّ حدٍّ ذهب اتِّصالنا الحميم؟ لا أعلم. أعتقد أنه لم يكن بذي أهمية لإمِلِي. لعلَّه كان لطفًا عرضيًّا صادقًا منحتني إيَّاه، وقول هذا لا يلغي شيئًا من اهتمامها الطَّيِّب. "عليك أن تذهب الآن،" قالت، ونهضت من السرير ومضت إلى الحمام وأغلقت الباب وراءها.

أيُّها القلب المفطور، أنت

أيُّها المعجزة الخالدة

كم تبدو مكانًا صغيرًا.

"أحلامي،" تقول إمِلِي، وهي تميل إلى الأمام عبر المائدة التي تفصلنا. "إنك لا تودُّ معرفتها، إنَّها... إنَّني محاطةٌ بظلمتها، خطر متَّصل. غيوم يصدم بعضها بعضًا بصخب. أيحدث هذا لك؟"

كنَّا في لندن بعد بضع سنوات على ذلك.

أقول: "كلَّا، قلَّما أحلم. لا يبدو أنني أحلم. لعلَّها تبزغ كأحلام يقظة."

"كل ليلة أذهب إلى أحلامي فأصحو فزِعة."

ما كان غريبًا في هذا الخوف، في هذا الذَّنب تقريبًا، هو ارتياح إمِلِي مع الآخرين في أثناء النهار. بدا لي أنَّ ما من ظلمة فيها أبدًا، ثمَّة بدلًا من ذلك الرغبة في المواساة. مَن أو ما سبب هذه الظلمة بداخلها؟ بين حينٍ وآخر كان ثمَّة إحساس بالانفصال حين تيأس من العالم من حولها. وفي هذه الأوقات يبدو عليها وجه يتعذَّر الوصول إليه. ولذا يكون هناك حينًا "ابتعادها." بيْد أنها حين تعود إليك، يغدو ذلك هِبةً.

في البداية اعترفت بإيجادها لذَّة في الخطر. لقد كانت مُحِقَّةً في ذلك. إنه هناك مثل مهرِّج، شيء لم يكن يلائم طبيعتها مطلقًا.

كانت ثمَّة اكتشافات عنها دومًا، بعضها صغير كغمزة العين تلك على الرصيف البحري في عدن حين كانت تريدني أن أخمِّن شيئًا. بيْد أنَّ الجزء الأكبر في عالمها كما سأعرف في ما بعد، بعد مرور وقت طويل على رحلتنا على الأُورُونسَي، هو ما احتفظت به لنفسها، وقد بتُّ أدرك أنَّ دماثةَ مسلكها التي أتحدَّث عنها لا بدَّ أنَّها نَمَت على نحو طبيعي من حياة مُقنَّعة.

أَوْجِرة الكلاب

صحوت في صباح اليوم التالي لأجد السيد هَيْستِي لا يزال في فراشه يقرأ رواية. قال حين سمعني أقفز من سريري العلوي: "صباح الخير أيَّها الشاب، أستنطلق مع رفيقيك؟"

لم تكن هناك لعبة أوراق في الليلة الفائتة، وقد تملَّكني الفضول لأعرف السَّبب. مع أنَّه منذ موت المليونير تبدَّلت مواعيد وعادات عديدة. شرع السيد هَيْستِي يخبرني بأنه سُرِّح من أعماله. لم يعُد مسؤولًا عن أَوْجِرة الكلاب. كان القبطان يبحث عن شخص يلقي عليه اللَّوم وأصبح يعتقد أنَّ أحد الكلاب قد هرب من أَوْجِرة كلاب السيد هَيْستِي وانسلَّ إلى مقصورة درجة الإمبراطور وعضَّ هكتور دو سِلڤا حتى الموت. منذ وفاة الرجل وشيء مثير للفضول يحدث. بدا أنَّ لقب فروسية دو سِلڤا قد سقط، ولم يعُد يُذكَر. بدأ الناس ينعتونه بـ"الرجل الميِّت." لقد تبيَّن أنَّ لقب الفروسية فانٍ فَنَاءَ الجسد.

وقفت أمام السيد هَيْستِي أصغي بعطف إلى هذا الاتِّهام الباطل، بيْد أنني لم أنبس بكلمة. لم يُعثَر على الكَلب الهجين الصغير من عدن. كان إنزال رتبة السيد هَيْستِي يعني أنه سيؤدي عمل الدِّهان والطلاء تحت شمس النهار، في حين سيتولَّى مساعدُه في أَوْجِرة الكلاب

ورفيقه في لعب الورق السيد إنفيرنْيو مسؤولية الكلاب. تمتم السيد هَيْستِي: "أتعجَّب كيف تمضي الأمور بينه وبين (أونيل وايْمَرانر)؟"

لاحقًا في ذلك اليوم، بعد بحث عشوائي عن كلب رام الدِّين، مضى ثلاثتنا إلى أَوْجِرة الكلاب. في الخارج على السطح (ب) كانت هناك كلاب عدَّة تتحرَّك ببطء في الرواق الممتد عشرين ياردة، وكأنَّها مصابة بضربة شمس، ونظرات فارغة على وجوهها. صعدنا فوق الحاجز وسرنا إلى الأَوْجِرة حيث كان كلُّ كلب ينبح راغبًا في الخروج. كان إنفيرنْيو يحاول قراءة أحد كتب هَيْستِي في شِدَّة الضجيج. عرفني حين أقبلنا عليه، لأنَّه كان يراني وأنا أحدِّق إليه من سريري في الأعلى، وقدَّمته إلى كاسْيَس ورام الدِّين. وضع جانبًا كتاب "البهاغافاد غيتا"[37] وأخذ يتجوَّل حول الأَوْجِرة معنا وهو يلقي بقطع اللحم إلى كلابه المفضَّلة. ثم جلب كلب الوايْمَرَانر. أزال عنه الطَّوق وربت على الرأس الرَّمادي النَّاعم الشَّبيه بالبيضة، وأمر الكلب بالابتعاد عنه إلى الطرف القصيِّ من الغرفة المليئة بالغبار. لم يكن الكلب متحمِّسًا لترك رفقة إنفيرنْيو، ولكنَّه اتَّبع الأوامر، "اذهب! اذهب! اذهب! اذهب!" وابتعد بصمت، وقوائمه الطويلة تتحرَّك يمنة ويسرة. استدار الكلب إلى الطرف القصي من الأَوْجِرة وانتظر. (هُولا!) صاح إنفيرنْيو فاندفع الكلب نحوه يعدو برشاقة وحين أصبح على مقربة ياردتين منه قفز إلى رأسه. وضع جميع مخالبه الأربعة في الوقت ذاته على كتفي إنفيرنْيو وصدره، حتى كاد حارس الأَوْجِرة أن يسقط، وقد سيطر عليه الكلب بمخالبه المخربشة ونباحه العالي.

(37) الكتاب المقدَّس في الديانة الهندوسيَّة.

صارع إنفيرنْيو كي يكون فوق الحيوان ودمدم في أذن المخلوق.
ثم شرع يقبِّل الكلب الذي استجاب كامرأة تحبُّ مقبِّلَها ولكنها لا تودُّ أن تُقبَّل. تقلَّب أحدهما فوق الآخر مرَّات عدَّة. استغرق الوقت ثانية فقط لإدراك عاطفتهما. كان جليًّا أنَّ كلاهما سلب لُبَّ الآخر. كشفا عن أسنانهما. ضحكا ونبحا. نفخ إنفيرنْيو في أنف الكلب. صمتت جميع الكلاب المحبوسة وهي تنظر بحسد والاثنان يلعبان بخشونة فوق الغبار.

غادرنا في منتصف المنافسة ومضيت وحدي إلى السطح (ج) وبقيت هناك معظم الوقت. لقد ذكَّرني السيد إنفيرنْيو والكلب كثيرًا بطبَّاخنا غونبِالا وكنت أفتقده، وكيف كان دومًا محاطًا بفريق من كلاب الأرز المجنونة في أثناء الوجبات، وهي تنبح متَّحدةً إذ يلوِّح لها بقطعة لحم إلى الأمام وإلى الخلف قبل أن يلقيها أخيرًا في المنتصف بينها. كنت عندما أمضي إليه في الأصائل أجده نائمًا وهي بين ذراعيه. على الأقل، كان بإمكان غونبِالا النوم والكلاب مستلقية برقَّة إلى جانبه، يرقب بعضها بعضًا وتُرعِش حواجبها وترفعها.

استُئنِفَت نُزَهُ السَّجين اللَّيليَّة. لم نره بين الليلة السابقة لرسوِّنا في عدن والمساء الذي غادرنا فيه المدينة. لا بدَّ أنَّ سببًا ما جعلهم يبقونه في زنزانته. والآن ونحن نبحر شمالًا في البحر الأحمر رأينا أنَّ قيدًا آخر قد أُضيف ليربط الطَّوق الذي حول عنقه إلى دعامة مثبَّتة في سطح الباخرة على بعد اثنتي عشرة ياردة. رأيناه يجرُّ قدميه ذهابًا وإيابًا. قبل ذلك، كان يتحرَّك كرجل رشيق، بيْد أنَّه بدا الآن متردِّدًا وحذِرًا. لعلَّه أحسَّ بعالم مختلف هناك في الخارج، ذلك أنَّ المرء يمكنه تمييز السواحل اللَّيليَّة للصحراء على جانبي الباخرة: شبه الجزيرة العربية عن يميننا ومصر عن شمالنا.

همست لي إمِلي بأنَّ اسم السجين كان (نِيمَيِر)، أو شيئًا من هذا القبيل. لقد بدا اسمًا أوروبِّيًّا جدًّا، لأنه بدا جليًّا أنَّ السجين كان آسيويًّا. بدا مظهره خليطًا من العِرق السِّنهالي وشيء آخر. سمعناه مصادفةً يتحدَّث إلى أحد الحرَّاس. كان صوته عميقًا هادئًا وكان بطيئًا بكلماته. يحسب رام الدِّين أنه صوت بإمكانه أن ينوِّمك مغناطيسيًّا إن كنت وحدك معه في حجرة. لقد تخيَّل صديقي كلَّ ضروب المخاطر. بيْد أنَّ إمِلي أيضًا ذكرت صوته المميَّز. لقد أخبرها أحدهم بأنَّه كان

صوتًا "مُقْنِعًا" ولكنَّه "مخيف." بيْد أنني عندما سألتها عمَّن أخبرها امتنعت عن القول. كنت مدهوشًا. شعرت أنني شخص يمكن أن تثق به بما فيه الكفاية. ثم أضافت: "إنه سرُّ شخص آخر. ليس سرِّي. ليس بمستطاعي أن أخبرك به، هل اتفقنا؟"

على أيَّة حال، جعلتنا عودة نِيمَيِر إلى سطح الباخرة لأجل نُزَهِنا الليلية نشعر باستعادة بعض النظام. وبدأنا نخيِّم في أحد قوارب النَّجاة لكي ننظر إلى الأسفل إليه. كنَّا نصيخ السَّمع للسلاسل البغيضة وهي تخدش السطح. كان يقف في نهاية المجال الذي يصل إليه رَسَنُه وينظر في الليل وكأنَّ بإمكانه أن يحدِّد بجلاء ما الذي هناك، وكأنَّما هنالك شخص يبعد أميالًا في حُلْكة الصحراء يشهد كلَّ حركة من حركاته. ثم يستدير ويعود إلى المسار نفسه. وفي نهاية المطاف كانوا يخلعون الطوق الحديدي عن عنقه. كنَّا نسمع بعض الكلمات الهادئة تروح وتجيء بينه وبين الحرَّاس، ثم يقتادونه إلى الأسفل تحت السطح، إلى مكان لا يسعنا إلا أن نتخيَّله.

"انتباه، فريق النَّقَّالة، فريق النَّقَّالة، فليتقدَّم إلى ملعب تنس الريشة على السطح (أ)." أخذنا نجري إلى مصدر التَّنبيه. كان هذا النِّداء أحد أهم النداءات التي سمعناها من مكبِّرات الصوت حتى الآن. كانوا في الغالب يعلنون محاضرات الأصائل في قاعة (كلايد) عن "وضع حُزَم أسلاك ما تحت البحر بين عدن وبومبي،" أو يتحدَّث شخص يدعى السيد (بلاكر) عن "إعادة بناء حديث لبيانو موزارت." قبل عرض "الأرياش الثلاث" قدَّم قِسِّيس محاضرة بعنوان "الحملات الصليبية، إيجابياتها وسلبياتها: هل مضت إنكلترا بعيدًا؟" ذهب رام الدِّين والسيد فونسِكا إلى تلك المحاضرة وعادا ليخبرانا أنَّه يبدو أنَّ المتحدِّث رأى أنَّ إنكلترا لم تمضِ بعيدًا بما يكفي.

تسرَّبت شائعة جديدة تقول أنَّ جثمان هكتور دو سِلفا الذي بلغ من العمر أيَّامًا سيُوارى البحرَ قريبًا. أراد القبطان أن ينتظر إلى أن نصل إلى البحر الأبيض المتوسط، بيْد أنَّ أرملة دو سِلفا المتنفِّذة أخذت تلحُّ على أن يكون هناك دفن خاص سريع. ولذا، في غضون ساعة اكتشف الجميع موقع طقوس الدَّفن ووقتها. أحاط المضيفون بحبل جزءًا من مُؤخَّر الباخرة حيث سيكون القُدَّاس، ولكن، ما لبث أن اجتمع الحمقى خلف الحبل واحتشدوا على السُّلَّم المعدني، وراحوا ينظرون من السُّطوح العليا إلى الأسفل. وأخذ بعض الأشخاص الأقل تأثُّرًا ينظر عبر نوافذ قاعة التدخين. ونتيجة لذلك، كان على الجسد – في الواقع كانت الرؤية الأولى لمعظمنا لهكتور دو سِلفا – أن يُحمَل طَوالَ معبر ضيق جدًّا، أتاحه المجتمعون على مضض. تبعته أرملته وابنته وأطباؤه الثلاثة (أحدهم كان في زِيِّه القروي الفخم الكامل)، والقبطان.

لم أحضر جنازة من قبل قطُّ، فضلًا عن واحدة أتحمَّل مسؤوليتها جزئيًّا. رأيت إمِلي على بعد بضع ياردات وحدجتني بنظرة محذِّرة ومعها هزَّة رأس طفيفة. رأيت البارون يقف قريبًا جدًّا من

عائلة دو سِلفا. كلٌّ شخص من مائدة القط كان هناك. حتى السيد فونْسِكا غادر مقصورته وصعد ليرى الطقوس. وقف إلى جانبنا بسترته السوداء وربطة عنقه، شيء لعلَّه ابتاعه في (كوندانمالز) في حيّ فورت لإقامته الإنكليزية المؤقَّتة.

نظرنا أسفل إلى أشكال الحاشية الصغيرة وهي تحيط بقاعدة المائدة التي تحمل تمثال هكتور دو سِلفا النصفي وبعض الزهور. كنَّا بالكاد نسمع الطقوس الأخيرة. كان صوت الكاهن يترنَّح ويتلاشى في الريح المرتعدة الآتية من الصحراء. عندما دنت العائلة من الجسد المغطَّى بكفنه الأبيض مال جميعنا ليشهد أيًّا كان السِّرُّ الذي يُقال للميِّت. ثم انزلق هكتور دو سِلفا من الباخرة واختفى في البحر. لم يكن ثمَّة طلق بنادق أو نيران مدافع، كما وعد كاسْيَس. لا شيء آخر فُعِل أو قيل لإنهاء الطقوس. فقط تلا السيد فونْسِكا شيئًا بهدوء لأولئك الذين إلى جانبه. "من يرغب في البحر؟ في عزلته الأفخم من قصور الملوك." لقد ردَّد أبيات كيبلِنْغ بطريقة بدت جليلة وحكيمة لنا. لم ندرك سخريتها في سياق حياة هكتور دو سِلفا.

قُدِّمت محاضرة أخرى في وقت الشَّاي بعد بضع ساعات على إعدادنا لدخول قناة السويس: عن (دو لَسبْس)[38]، وعن الآف العمَّال الذين لقوا حتفهم بسبب الكوليرا في أثناء بناء القناة، وكذلك عن أهمية القناة بوصفها طريقًا تجاريًّا. ووصلت ورام الدِّين باكرًا، فنقَّبنا بين الموائد عن أفضل الفطائر التي كان مزمعًا أن تؤكل بعد انتهاء المحاضرة فقط. في منتصف المحاضرة صادفتُ فلافيا برِنْز

(38) Ferdinand de Lesseps: دبلوماسي فرنسي صاحب مشروع حفر قناة السويس.

ومعها اثنتان من رفيقاتها في لعب الورق، حين كنت أسير مبتعدًا عن موائد الطعام وبين يديَّ بضع فطائر تحاول الاتِّزان. تلقَّت الأمر برُمَّته بنظرات متردِّدة ومضت من دون أن تنبس بكلمة.

اقتربنا من القناة في الظلام، في منتصف الليل. كان بعض المسافرين المجتمعين على سطوح الباخرة ليَخْبُرُوا التجربة شبه نيام، بالكاد يدركون الرَّنين والأجراس التي أخذت تقود باخرتنا إلى العين الضيقة للإبرة المسمَّاة السويس. توقَّفنا لنحمل قبطان ميناء عربيًّا صعد من مركبه بواسطة سلَّم من الحبال. مشى ببطء نحو البُرْج متجاهلًا كل السلطة المحيطة به. إنَّ هذه ملكيته الآن. سيكون هو من سيقودنا في مياه أكثر ضحالة ويضبط زاوية الباخرة حتى يمكننا الانسلال إلى القناة الضيقة التي سنقطع عبرها 190 كيلومترًا صوب بورسعيد. كان بمستطاعنا رؤيته عبر نوافذ البُرْج الأفقيَّة المضاءة بنور ساطع وهو يقف إلى جانب القبطان وضابطيْن آخرين.

كانت ليلةً لم ننم فيها قطُّ.

في أقلِّ من نصف ساعة كنَّا نبحر بمحاذاة رصيف أسمنتي كُوِّمت عليه الصناديق مثل أهرامات ضخمة والرجال يجرون حاملين حُزَم الأسلاك الكهربائية وعرباتِ حمل الحقائب جنبًا إلى جنب مع الأُورُونسَي المتحرِّكة ببطء. في كل مكان كان هناك عمل سريع مكثَّف يجري تحت مَشَاكِي المصابيح الكبريتية. كان يمكننا سماع الصياح

والصفير، وفي إحدى الفترات سمعنا نباحًا جعل رام الدِّين يظن أنه نباح كلبه الذي جلبه من عدن، والذي يحاول الآن العودة إلى الشاطئ. تعلَّق ثلاثتنا بالدَّرابزين، ورحنا نرتشف الهواء ونَتنشَّقه. لقد تبيَّن أنَّ هذه الليلة كانت أكثر ذكرى حيَّة لنا عن الرحلة، تلك الفترة من الزَّمن التي أتعثَّر فيها بين حينٍ وآخر بحلم. لم نكن نشِطِين، بيْد أنَّه كان ثمَّة عالم ينزلق عابرًا باخرتنا دومًا، حيث الظلام مختلف ومفعم بالإيحاء. كانت هناك جرَّارات لا نراها تشحذ دعائم الجسر. أخذت الرَّافعات تنخفض، ثم تتوقَّف وكأنها على وشك التقاط أحدنا في أثناء عبورنا إلى جانبها. لقد عبرنا البحار المفتوحة بسرعة اثنتين وعشرين عقدة، وها هي باخرتنا تتحرَّك، وكأنَّها تَعْرُج، بسرعة دراجة بطيئة، وكأنَّها داخل لِفافة تنفتح شيئًا فشيئًا.

أُلقِيث حُزَمٌ من الحبال على مُقدَّم الباخرة. ثُبِّتَ حبلٌ بالدَّرابزين حتى يتمكَّن البحَّار من التَّرجُّح عليه والنُّزول إلى اليابسة لتوقيع أوراق إقليميَّة. رأيت لوحة فنِّيَّة تغادر الباخرة. لقد بدت لي في نظرتي الخاطفة لوحة مألوفة لعلَّني رأيتها في إحدى قاعات الدرجة الأولى. لِمَ تُنقل لوحة من الباخرة؟ لم يكن بإمكاني القول إن كان كلُّ ما يحدث هناك قانونيًّا ويتَّسم بالحذر أم أنَّه سُعارُ إجرام، ذلك أنَّ عددًا قليلًا فقط من الضُّبَّاط شاهد ما يحدث وكان جميع أضواء السطح مطفأً وكلُّ الأنشطة يحدث في الخفاء. كانت هناك فقط نوافذ البرج المضاءة، مع الصور الظِّلِّيَّة الثلاث الثابتة، وكأنَّ دمًى تقود الباخرة وتتبع توجيهات قبطان الميناء. خرج مرَّات عدَّة إلى السطح المفتوح وأطلق صافرته في الليل ليُرشد رجلًا رآه على الشاطئ. ردَّ عليه صفير مماثل فسمعنا صليل سلسلة تُلقَى واهتزَّ مُقدَّم الباخرة بغتةً،

ثم استقرت زاويته على جانب أو آخر. أخذ رام الدِّين يجري ذهابًا وإيابًا طوال الباخرة بحثًا عن كلبه. جثمتُ وكاسْيَس على نحوٍ متقلقل على درابزين مُقدَّم الباخرة حيث يمكننا رؤية المشاهد المتشظِّيَّة تحتنا؛ تاجر في كُشْكه الخاص ببيع الطعام، مهندسون يتبادلون الحديث عند مِشْعَل، نفاياتٌ تُفرَغ، هؤلاء جميعًا وهذا كلُّه، عرفنا أننا لن نراه ثانية أبدًا. ولذا أصبحنا نفهم ذلك الشيء الصغير والمهم، أنَّ حياتنا يمكن أن تكون رحْبةً مع غرباء مثيرين للاهتمام يعبرون بنا من دون مشاركة شخصية.

ما زلت أتذكَّر كيف تحرَّكنا في تلك القناة، رؤيتنا معدومة، وتلك الأصوات التي كانت رسائل من الشاطئ، وأولئك النائمين على السطح وقد فاتهم مَنْظَرُ النَّشاطِ الشَّاملُ هذا. لقد كنَّا نعلو ونهبط على الدَّرابزين. كان من الممكن أن نسقط ونفقد باخرتنا لنبدأ مصيرًا آخر، فقراء أو أمراء. كنَّا نهتف كلَّما كان شخص ما قريبًا كفايةً ليميِّز هيئاتنا الصغيرة: "يا عمّ!" "مرحى يا عمّ!" وكان الناس يلوِّحون ويبتسمون. كلُّ شخص شهد باخرتنا تنزلق هناك تلك الليلة كان عمًّا. أحدهم ألقى إلينا برتقالة. برتقالة من الصحراء! راح كاسْيَس يهتف طالبًا سجائر بِيدِي، بيْد أنهم لم يفهموه. رفع أحد عمَّال الرصيف البحري شيئًا، نبتة أو حيوانًا، لكنَّ الظلام أخفاه تمامًا.

لم تبحر باخرة أخرى تلك الليلة على مياه القناة المظلمة. كان الاتصال بالمذياع يجري منذ أكثر من يوم لكي ندخل القناة، كما فعلنا في تلك اللحظة في منتصف الليل. كان هناك في الأسفل على الشاطئ تحت فتيل متهزِّز من مصباح كهربائي رجلٌ يجلس إلى منضدة تنظيم نوبة العمل، يملأ ورقة بيانات يناولها شخصًا يجري ويلحق

بالباخرة ليلقي إليها الأوراق المثبَّتة بثقل معدني حتى تستقر عند قدمي أحد البحَّارة. لم نتوقَّف عن الحركة قطّ، مررنا بالشخص الذي كان يجري، وكذلك الرجل الجالس إلى المائدة وهو يسجِّل بعصبيَّة جداول التبديل، وكان هناك طاهٍ يقف إلى جوار نار مشتعلة يشوي عليها شيئًا بدت رائحته هِبَةً، أُمنيةً في الليل، إغراءً بهجر الباخرة بعد كل ذلك الطعام الأوروبي الذي كنَّا نتناوله أيَّامًا. قال كاشْيَس: "هكذا تبدو رائحة اللُّبان." وهكذا تقدَّمت باخرتنا يقودها هؤلاء الغرباء. لقد جمعنا من اليابسة ما كان طازجًا، وقايضنا بأشياء كانت تُلقَى إلينا على متن الباخرة. من يعلم أيَّ شيء تبادل الناس تلك الليلة، وأيَّ تفاعل حدث في الأثناء التي كانت أوراق الدخول والخروج الرَّسميَّة تُوقَّع وتُمرَّر في الأسفل إلى اليابسة، ونحن ندخل ونغادر عالم قناة السويس الموجَز والمؤقَّت.

انسابت باخرتنا في نور الصباح. سحب متكتِّلة بقَّعت السماء. لم نرَ غيومًا طوال رحلتنا، إلَّا كتلًا ضخمةً مظلمة منها تكوَّمت فوق باخرتنا وهبطت فوقنا في أثناء العاصفة. ثمَّ، وبينما كنَّا ندنو من بورسعيد إذ بعاصفة رمليَّة تهبُّ وتعلَق فوقنا، كانت آخر لهاث أطلقته الجزيرة العربية وسبَّب فوضًى شديدة في إشارات رادار الباخرة. كان هذا هو السبب الذي دفعهم إلى توقيت وصولنا إلى السويس بدقَّة في منتصف الليل؛ حتى نبلغ بورسعيد في النهار عندما يعتمد الإبحار ما يمكن رؤيته بالعين البشرية. وهكذا دخلنا البحر الأبيض المتوسط وعيوننا مفتوحة على اتِّساعها.

كانت هناك فترةٌ ما في أواخر العشرينيات من عمري عندما

تملَّكتني بغتةً رغبةٌ في لقاء كاسْيَس مرَّةً أخرى. بينما بقيت على اتصال برام الدِّين وعائلته وقضيت وقتًا معهم، لم أرَ كاسْيَس منذ اليوم الذي رست فيه باخرتنا في إنكلترا.

وفي أثناء فترة رغبتي في رؤيته قرأتُ مصادفةً إعلانًا في إحدى صحف لندن. كانت هناك صورة له. لم أكن لأعرف الوجه لولا وجود اسمه إلى جانب الصورة. كان أكبر سنًّا وأشدَّ سُمرة، ومختلفًا بقدر ما غدوتُ مختلفًا، ربَّما، عن الصبي الذي كنْتُه على متن تلك الباخرة في خمسينيات القرن العشرين. كان الإعلان لمعرض للوحاته. وهكذا مضيت إلى المدينة، إلى قاعة عرض في شارع (كورك). ذهبت إلى هناك ليس لأنني أردت رؤية فنِّه بقدر ما أردت الاتصال به، لكي، كما أمِلْتُ، نتناول وجبة وقتًا طويلًا معًا ونتحدَّث ونتحدَّث ونتحدَّث. لا أعرف إلَّا النَّزر اليسير عمَّا حدث له منذ تلك الأسابيع الثلاثة عندما كنَّا معًا، مع أنني أعرف أنه أصبح رسَّامًا معروفًا. لقد أدهشني ذلك. وتعجَّبت إن كان لا يزال بذلك الجموح. وهل ظلَّ مغامرًا مثلما بدا لي حين كنت فتى؟ ثمَّة بعضٌ من طباع كاسْيَس، على أيَّة حال، بقيت في سلوكي. نظرت مجدَّدًا إلى الإعلان الذي قصصتُه من الصحيفة، وإلى صورة له وهو يستند إلى حائط أبيض وعلى وجهه مسحة من عدوانيَّة.

بيْد أنَّ كاسْيَس لم يكن هناك. كان أصيلَ يومِ سبت. وصلت إلى قاعة العرض وأُخبِرت بأنَّ المعرض افتُتِح منذ عدَّة أماسي وأنَّ كاسْيَس كان موجودًا حينها. لم أكن أعرف الكثير عن تقاليد عالم الفن. كان ذلك مخيِّبًا للأمل، بيْد أنَّ غيابه لم يكن بالأمر المهم. ذلك أنَّ من رأيته في اللَّوحات كان كاسْيَس نفسه. كانت لوحات قماشية كبيرة ملأت الغرف الثلاث في قاعة عرض (وادِنْغتون). ما

يناهز خمس عشرة لوحة. كانت جميعها عن تلك الليلة في السويس. المصابيح الكبريتية نفسها في تلك الليلة التي ما زلت أتذكَّرها، أو أنني بدأت على الأقل أتذكَّرها في أصيل السبت ذاك. والنَّار المُضرَمة في الهواء الطَّلق. سِجِلُّ الباخرة العتيق المظهر الذي كان يملأه الكاتب على عجل على منضدة في هواء الليل المنعش. حسبت في البداية أنَّها لوحات تجريديَّة. كان ثمَّة إحساس فيها بأنَّ الأحداث كانت تقع على حافَّة الألوان أو خلفها تمامًا. بيْد أنني ما أن أدركت أين كنَّا حتى تبدَّل كلُّ شيء. لقد وجدت حتى كلب رام الدِّين الصغير يحدِّق إلى الباخرة. كلُّ هذا ملأني بالحبور، ولم أعرف لماذا. أخالُ أنه أوضح كيف كنت وكاسْيَس قريبًا كلٌّ منَّا من الآخر، أخوين حقيقيين. ذلك أنه هو أيضًا رأى الناس الذين رأيتهم تلك الليلة، الذين شعرنا معهم بانتماء غريب جدًّا، الذين لن نراهم ثانيةً أبدًا. هناك فقط. في مدينة اللَّيل تلك في عالم آخر. لم نتحدَّث عن هذا، ولكنَّه تبدَّى لكلينا. والآن ها هم هنا معنا.

مضيت إلى حيث يوجد كتاب الزُّوَّار، الذي يُتوقَّع أن يكتب فيه الناس ملاحظاتهم. كان بعضها فخمًا، ومتقِّفًا على نحو مفرط، وبعضها قال وحسب: "مبهج!" كلمات مُهلْهَلَة كُتِبت على صفحة بأكملها: "سيدة عجوز صغيرة بُتِرَت أطرافها في وقت متأخِّر من الليلة الماضية."[39] لا بدَّ أنَّ من كتبها أحد أصدقاء كاسْيَس الثَّمِلين. ما من أحد آخر كتب في تلك الصفحة وبرزت العبارة هناك وحيدة تمامًا. قلَّبت باقي الصفحات قليلًا وصادفت اسم الآنسة لاسْكِتِي مع ثناء جميل على فنِّ كاسْيَس. وضعتُ التاريخ وكتبت: "أفراد قبيلة

(39) مقطع من أغنية لمغنِّي الرُّوك الأمريكي وارن زيفون.

الأُورُونسَي، مستهترون وعنيفون." ثم أضفت: "أعتذر عن عدم لقائك. مَاينَا." لم أترك عنوانًا.

مضيت خارجًا، بيْد أنَّ شيئًا آخر أوقفني، فقرَّرت التَّجوال في قاعة العرض مرَّةً أخرى، وسرَّني أنَّه لم يكن أحد هناك هذه المرَّة. وعندما أدركت ما الذي جذبني إلى هناك، جُلْتُ في القاعة مرَّةً أخرى لأتيقَّن. لقد قرأت في مكان ما أنَّ الناس حين احتفوا أوَّل مرَّة بزاوية النظر المميَّزة في صور (لارتِيغ)[40] الفوتوغرافية الأولى، مضى بعض الوقت قبل أن يشير أحدهم إلى أنَّ تلك الزاوية كانت الزاوية الطبيعية التي يتَّخذها صبي صغير يحمل آلة تصوير وهو يرفع نظره إلى الكبار الذين يصوِّرهم. ما كنت أراه في ذلك المعرض كان زاوية الرؤية نفسها التي اتَّخذتُها وكاسُيَس في تلك الليلة من الدَّرابزين ونحن ننظر إلى الأسفل إلى الرجال العاملين تحت مَشَاكِي المصابيح تلك. كانت زاوية بمقدار خمس وأربعين درجة أو شيء من هذا القبيل. لقد كنت في ذلك الحين على الدَّرابزين، أنظر، حيث كان كاسُيَس ينظر من منظور عاطفي عندما رسم هذه اللوحات. الوداع، كنَّا نقول لهم جميعا. الوداع.

(40) مصوِّر ورسَّام فرنسي بدأ التصوير عندما كان في السابعة.

قلبُ رام الدِّين

معظم حياتي عرفت أنه ليس بإمكاني أن أمنح كاسْيَس شيئًا ذا قيمة. بيْد أنني شعرت أنه كان بمستطاعي أن أمنح رام الدِّين شيئًا. لقد منحني الحنان. كانت ثمَّة جاذبيَّة مريرة بشأن خصوصية حياة كاسْيَس. لقد رأيت ذلك حتى في لوحاته، بالرَّغم من استحضاره تلك الليلة في السويس. بيْد أنني طالما اعتقدت أنه كان باستطاعتي أن أقدِّم يد العون إلى رام الدِّين في موقف صعب. لو كنت أعرف. لو أنه جاء وتحدَّث إليَّ.

في أوائل السبعينيات حين كنت أعمل فترة قصيرة في شمال أمريكا تلقَّيت برقيَّة من أحد أقاربي البعيدين. أذكر أنه كان عيد ميلادي الثلاثين. تاركًا ما كنت أصنع، تدبَّرت أمري برحلة جويَّة إلى لندن، حيث نزلت في فندق ونمت بضع ساعات.

في الظهر أقلَّتني سيارة أجرة أوصلتني إلى مِلْ هِلْ قرب كنيسة صغيرة. لمحتُ، ماسِي، أخت رام الدِّين لمحة خاطفة، ثم لمحتها مرَّةً أخرى ما أن دخلنا وهي تسير في ممشى الكنيسة. منذ صداقتنا أيَّامَ المراهقة لم يرَ أيٌّ منَّا الآخر كثيرًا. في الواقع لم أرَ رام الدِّين أو أحدًا من عائلته منذ ثمانية أعوام. لقد خامرني الشك بأننا جميعًا أصبحنا

أشخاصًا مختلفين. كتب إليَّ رام الدِّين في إحدى رسائله الأخيرة بأنَّ ماسي "انتقلت مع زُمرَةٍ سريعة"، وتعمل في إذاعة بي بي سي في أحد عروضها الموسيقية وأنها كانت طموحًا وذكيَّة جدًّا. أحسب أنه ما من شيء كان ليفاجئني بشأن ماسي. كانت أصغر منَّا سنًّا وقدِمت إلى إنكلترا بعد سنة من قدومنا وسرعان ما تكيَّفت.

بمرور السنين صرت أعرف عائلتهما معرفة جيدة، أبوان لطيفان أنجبا ذلك الابن اللطيف جدًّا. كان الأب باحثًا في الأحياء وطالما تحدَّث عن خالي: "القاضي"، كلَّما وجد نفسه مُرغمًا على التَّحدُّث إليَّ عندما لا يكون أحد هناك. أظنُّ أنَّ خالي ووالد رام الدِّين كانا في المستوى المهني ذاته تقريبًا. مع أنَّ السيد رام الدِّين كان رجلًا غير كفء نوعًا ما فيما يخصُّ العالم الواقعي (البراغي، الإفطار، جدول المواعيد)، في حين كانت زوجته، الباحثة في الأحياء أيضًا، تنظِّم كل شيء وتبدو راضية وهي تقف في الظل الذي يلقيه عليها. لقد كانت حياتهما ومهنتهما ومنزلهما سُلَّمًا يرتقيه ابناهما. وفي مراهقتي كان يحلو لي قضاء أطول وقت ممكن في منزلهما المنظَّم والهادئ في مِلْ هِلْ. كنت هناك دومًا. مرضُ رام الدِّين ومشكلةُ قلبه جعلا منهم عائلةً أكثر حذرًا وهدوءًا من عائلتي. عاشوا تحت ناقوس زجاجي. كنت مطمئنًا معهم.

أمَّا الآن فقد عدتُّ إلى المكان نفسه. وجعلني سيري صوب منزل عائلة رام الدِّين بعد الجنازة أشعر وكأنني أسقط من الأغصان التي كنَّا نتسلَّقها منذ سنين خلت. عندما بلغت منزلهم بدا صغيرًا، وبدت السيدة رام الدِّين واهنة. خُصَلُ شعرها البيضاء جعلت وجهها المشدود أكثر جمالًا، أكثر تسامحًا، ذلك أنها كانت حازمة بقدر ما

كانت كريمة مع ابنها ومعي. لقد كانت ماسي وحدها من تستطيع التَّمرُّد على أوامر أمِّها مثلما فعلت طوال شطر كبير من حياتها.

"ابتعدت طويلًا يا مايكل. إنك تبتعد طوال الوقت." كانت كلمات الأم سهمًا صُوِّب نحوي بدقة، قبل أن تتقدَّم تُجاهي وأحيطها بذراعيَّ. بالكاد لمس أحدنا الآخر في الماضي. "سيدة ر." كنت هكذا أناديها طوال سِنِيْ مراهقتي.

وإذن دخلتُ مرَّةً أخرى منزلهم في شارع (تِراكوتا). كان هناك جمع من الناس يبلِّغ تعازيه الأبوين في الرواق الضيق ثم يتجه إلى قاعة المعيشة حيث كانت مجموعة من المناضد الجانبية واللوحات في أماكنها ذاتها كما عندما كنت أزورهم وأنا مراهق. كانت تلك كبسولة زمن صبانا؛ جهاز التلفاز الصغير، صور جدِّي رام الدِّين نفسها أمام منزلهم في (مُتوال). لن يتخلَّوا أبدًا عن الماضي الذي جلبته عائلته إلى هذه البلاد. ولكن أُضيفت الآن صورة إلى رفِّ الموقد لرام الدِّين في ثوب تخرُّجه في جامعة (ليدز). لم يناسبه الريش أو يخفيه. بدا وجهه نحيلًا وكأنه كان متوترًا.

مضيت قريبًا منها ورحت أحدِّق إليه. أحدهم أمسك بمرفقي، أصابعه تضغط عن قصد بشدَّة على لحمي، فالتفت. كانت ماسي، وبغتةً وعلى نحو سريع جدًّا تقريبًا بدا وكأن كلًّا منا قريب جدًّا من الآخر على نحو صادم. لقد رأيتها في الكنيسة عندما كانت تمشي بين أبويها لتجلس في الصف الأمامي وتطأطئ برأسها بسرعة. لم تكن في صف الاستقبال في الرَّدهة.

"لقد جئت يا مايكل، لم أحسب أنك ستأتي."

"ولِمَ لا؟" لمست يدها الدافئة الصغيرة وجهي ثم انصرفتُ إلى

الآخرين، لتتحدَّث وتومئ لما كان يُقال لها أو تمنح عناقًا لازمًا. كانت كل ما أنظر إليه. لقد كنت أبحث عن أيَّة إشارة إلى رام الدِّين فيها. لم يكن بينهما تشابه كبير قطُّ. كان كبير الحجم، ذا جسد ثقيل، في حين كانت أنيقة وسريعة. "زُمرَة سريعة" كَتَب. كان لهما لون الشعر ذاته، ذلك كل شيء. بيْد أنني شعرت أنَّها تحمل شيئًا منه الآن، شيئًا مُنِحت إيَّاه عند رحيله المباغِت. أخالُ أنني كنت بحاجة إلى حضور رام الدِّين، ولم يكن هنا.

كان أصيلًا طويلًا رأى فيه أحدنا الآخر فقط عبر الغرفة، ونحن نتحدَّث إلى أقارب عديدين. طوال الغداء الذي تناولناه وقوفًا، رأيتها تنتقل من شخص إلى آخر في هذا المجتمع المغترِب وهي تؤدي دور نحلة العائلة المطيعة، تنتقل من خالة عجوز منهكة إلى عمٍّ لا يزال مبتهجًا بحكم العادة، إلى ابن أخت لم يفهم لِمَ كان الجميع هادئًا، فقد كان يعبد رام الدِّين الذي كان يدرِّسه الحساب واعتاد أن يناقشه ليجتاز أيَّ مأزق. رأيتها تجلس مع ذلك الصبي على كرسي الردهة في الحديقة، ووددت أن أكون معهما هناك بدلًا من أكون تحت الأنظار الفضوليَّة لأصدقاء والديها. أحسب لأنَّ الصبي كان في العاشرة من عمره. وودت أن أعرف ما الذي كانت تقوله له، كيف لها أن تبرِّر ما كانت تقول أو لِمَ نسلك مسلك طائفة رابطة الجأش تتحدَّث همسًا فقط. ثم رأيت أنَّ من يبكي لم يكن الصبي، بل كانت ماسي.

تركت الرجل في منتصف حديثه وخرجت وجلست إلى جانبها ووضعت ذراعي حول جسدها المنتفض الذي لم يتوقَّف عن الرَّجْف، ولم يفكِّر أيٌّ أحد منا ثلاثتنا بالحديث. وعندما رفعت رأسي في ما بعد ناظرًا عبر الأبواب الزُّجاجيَّة إلى المنزل أدركت أنَّ جميع الكبار كانوا في

الداخل، وكنَّا نحن الأبناء في الحديقة.

بدأ المساء يظلم وفي هذه الأثناء، بدا منزل عائلة رام الدِّين المتواضع الذي كان مرَّةً ملاذًا لي، مثل سفينة هشَّة. كان الزُّوَّار الأخيرون يخرجون ببطء إلى شارع الضاحية غير المضاء. كنت أقف إلى جانب العائلة في الردهة على وشك المغادرة أيضًا، لألحق القطار العائد إلى وسط لندن.

قلت: "عليَّ أن ألحق طائرة أصيل الغد، ولكنني سأعود في غضون شهر، إن حالفني الحظ."

كانت ماسي ترقبني بحذر. كان هذا ما كان كلانا يقوم به طوال الأصيل، وكأننا نعيد التفكير في شخص عرفناه مرَّةً حقَّ المعرفة. كان وجهها عريضًا وكان سلوكها يختلف عن سلوكها حين كنَّا صغارًا. كنت أراقب تهذيبها الجديد الحذر مع والديها. هي التي كانت في صراع صاخب معهما طوال سنين مراهقتها. كنت أدرك هذه الاختلافات مثلما كنت أعرف أنها تفهمني على نحو جلي أكثر من أي شخص آخر بين أصدقائي الحديثين. كانت تستطيع أن تخرج ببعض الفهم مني عن ماضينا وتضعه إلى جانب ما تراه الآن. لقد كانت الرَّفيق لأخيها ولي في أثناء العطل المدرسية، حينما يتسكَّع ثلاثتنا في مدينة لم تكن مدينتنا، وينتابنا إحساس بأنها لم تكن مدينتنا؛ فقد كانت كونًا مطوَّقًا غريبًا نتحرَّك فيه، تقلُّنا الحافلة إلى حوض سباحة في (بروملي) أو إلى مكتبة (كرويدون) العامة، أو إلى إيرلز كورت لنشاهد عرض القوارب، أو عرض الكلاب، أو عرض الدراجات النارية. لا شك أننا ما نزال نحتفظ بالمعرفة نفسها عن مسارات الحافلات المحدَّدة

في عقولنا. لقد شهدتُ أطوار تبدُّلي كلَّها في سنين مراهقتي. كلُّ هذا كان داخلها.

ثم أتت فجوة ثماني سنوات.

"عليَّ أن ألحق طائرة أصيل الغد، ولكنني سأعود في غضون شهر، إن حالفني الحظ."

وقفت في الردهة تراقبني، تتجلَّى على وجهها صدمة فقد أخيها. كان صديقها الحميم إلى جانبها، ممسكًا بمرفقها. كنَّا قد تحدَّثنا سالفًا في المساء. إن لم يكن صديقها الحميم، فهو حتمًا يرجو ذلك.

قالت ماسي: "حسنًا، أخبرني عندما تعود."

"سأفعل."

قالت السيدة ر: "ماسي، لم لا تسيرين مع مايكل إلى المحطة؟ ينبغي أن تتحدَّثا أنتما الاثنان."

قلت: "أجل، تعالي معي، بهذه الطريقة سنقضي ساعة معًا."

قالت: "بل عُمْرًا."

تحيا ماسي في نصف العالم العَلَنيِّ الذي قلَّما دخله رام الدِّين. لم يكن ثمَّة من تردُّد فيها قطُّ. سأتقاسم وإيَّاها جزءًا عميقًا من حياتينا. وأيًا كان ما انبثق من علاقتنا، بحلوِها ومرِّها، فقد أصلح كلٌّ منَّا حال الآخر بقدر ما آذى أحدنا الآخر بالسرعة التي تعلَّمتُها جزئيًّا منها. لعلَّها كانت تشبه كاسْيَس أكثر مما تشبه أخاها. مع أنني أعلم الآن أنَّ العالم ليس مقسَّمًا بتلك السهولة إلى طبيعتيْن. بيْد أننا هكذا اعتقدنا في صِبانا.

"بل عُمْرًا." قالت. وفي تلك الساعة عدت بخُطايَ إلى الوراء

إلى حياة ماسي. مشينا إلى المحطة وكانت خطانا تتباطأ ونحن نتحدَّث. ولجنا ظلمة تامَّة حيث كان الطريق يحاذي ملعب كرة قدم، وبدا كأننا نهمس في زاوية غير مضاءة من مسرح. تحدَّثنا غالبًا عنها. لقد كانت تعرف عني ما يكفي، عن مهنتي القصيرة المفاجئة التي أخذتني إلى شمال أمريكا وأدَّت إلى تركي عالمها. ("لم أحسب أنك ستأتي." "إنك تبتعد طوال الوقت.") لقد كشفنا النقاب عن السنوات الضائعة. كنت بالكاد أتصل بها، وحتى برام الدِّين. كنت أرسل بطاقة بريدية بين حينٍ وآخر تخبر بمكاني، ولا شيء أكثر من ذلك. كان هناك الكثير ينبغي اكتشافه عمًّا كانت تفعل هي وأخوها.

سألتني: "أتعرف شخصًا يدعى (هِثَر- كَيْف؟)

"كلَّا. أينبغي أن أعرفها؟ من هي؟" تخيَّلتها شخصًا ربَّما قابلته مصادفة في أمريكا أو كندا.

"يبدو أنَّ رام الدِّين كان يعرفها."

مضت تقول أنه لم يكن هناك من تفسير مُقنِع بالظروف التي مات فيها رام الدِّين. لقد عُثِر عليه وقد توقَّف قلبه وإلى جانبه سكِّين. ذلك كلُّ شيء. كان يمشي في ظلام إحدى الحدائق العامَّة في المدينة قريبًا من شقَّة الفتاة. أخبرتني ماسي بأنه ربَّما كان مهووسًا بها، كان يُدرِّسها دروسًا خصوصية. بيْد أنَّ ماسي حين بحثت في الأمر، تبيَّن أنها كانت مجرَّد فتاة في الرابعة عشرة تُدعى هِثَر كَيْف كان يدرِّسها. إن كانت الفتاة نفسها المتيَّم بها رام الدِّين فإنَّه كان سيشعر بذنب طاغٍ يغمره كحبر أسود.

هزَّت رأسها وانصرفت عن الموضوع.

قالت أنها لم تعتقد أنَّ وجود أخيها في إنكلترا جعله سعيدًا،

شعرت بأنه كان سيسعد أكثر بوظيفة وبيت في كولومبو.

يبدو أنَّ في كل عائلة مهاجرة شخصًا لا ينتمي إلى البلاد الجديدة التي أتى إليها. يبدو الأمر مثل منفًى دائم لذلك الأخ أو الزوجة التي لا تحتمل مصيرًا صامتًا في بوسطن أو لندن أو ملبورن. لقد قابلت كثيرين ممن بقوا مسكونين بالشبح الملازم لمكان قديم. وصحيح أنَّ حياة رام الدِّين كان يمكنها أن تكون أكثر سعادة في عالم كولومبو الأكثر تحررًا من النظام والأقل عمومية. لم يكن لديه طموح مهني كما كانت ماسي وكما كنت أنا كما تشكُّ هي. كان الشخص الأكثر تدرُّجًا، الأكثر قلقًا، الذي تعلَّم ما كان مهمًّا على مهله. أخبرتها بأنني ما زلت أتعجَّب كيف احتملني وكاسْيَس في تلك الرحلة إلى إنكلترا. كانت تومئ برأسها، وتبتسم، ثم سألت: "هل رأيته؟ أقرأ عنه بين الحين والآخر."

"أتذكرين حين أخبرناك مرَّةً أنك ينبغي أن تبحثي عنه؟"

بدأنا نضحك. في إحدى المرَّات حاولت ورام الدِّين إقناع ماسي بأنَّ كاسْيَس سيكون الشخص المناسب لها للزواج.

"ربما ينبغي ذلك... لعلَّه ما زال يمكنني ذلك." كانت تركل أوراق النبات الرطبة أمامها وقد تأبَّطت ذراعي. فكَّرت في صديقي الآخر المفقود. كانت آخر مرة سمعت فيها عن كاسْيَس عندما قابلت ممثِّلة من سريلانكا كانت تعرفه حين كانا مراهقيْن في إنكلترا. تحدَّثت عنه عندما دعاها للخروج معه في موعد غرامي وأخذها في الصباح الباكر إلى ملعب غولف. جلب مجموعة من المضارب القديمة، وبضع كُرات، وقفزا فوق البوَّابة وتسكَّعا في الملعب، وكان كاسْيَس يدخِّن سيجارة حشيش ويلقي عليها محاضرة عن عظمة نيتشه قبل

محاولته إغراءها فوق إحدى البقع الخضراء.

في المحطة تيقّنّا من وقت القطار، ثم مضينا إلى المقهى الليلي تحت جسر سكّة الحديد وجلسنا هناك بالكاد نتحدّث، ينظر أحدنا إلى الآخر عبر مائدة (الفورمَيْكا)[41].

لم أصنِّف ماسي بصفتها أخت رام الدِّين قطُّ. يبدوان مختلفين تمامًا. كانت تتمتَّع بروح توَّاقة. إن ذكر أحدهم إمكانية ما فسرعان ما تُلبِّيها مثل السطر التالي في أغنية. كانت شخصًا سينعته الناس في عصر آخر بـ"مسدَّس." هكذا كان سيصفها السيد مازابا أو الآنسة لاسْكِتِي. بيْد أنها كانت مُنسحبةً ومتردِّدة هذه الليلة في المقهى الفارغ تقريبًا عند محطة القطار. كان هناك زوجان مُسنَّان كانا قد حضرا الجنازة والاستقبال كذلك، بيْد أنهما بقيا وحدهما. لقد كنت بحاجة إلى أن يكون رام الدِّين هناك معنا. كنت معتادًا ذلك. لعلَّ هدوء ماسي كان هو ما يتيح حضوره، ولعلَّها كانت تلك العاطفة الجديدة بيننا ما محا الأعوام سريعًا، بيْد أنه نهض مباشرة في قلبي وبدأت أبكي. كلُّ شيء يخصُّه كان هناك داخلي بغتة: خطاه البطيئة، حَرَجه أمام مزحة مُريبة، حبُّه لذلك الكلب في عدن وحاجته إليه، اعتناؤه الدقيق بقلبه ("قلب رام الدِّين")، العُقَد التي ربطها وكان فخورًا بأنها أنقذت حياتنا، كيف يبدو جسده وهو ينصرف عنك. والذكاء اللائق الذي رآه السيد فونْسِكا والذي لم أره أنا وكاسْيَس ولم نعترف به قطُّ، بيْد أنه كان دائمًا هناك. كم من الأشياء التي تخصُّ رام الدِّين حملتُها في نفسي، بالتَّذكُّر وحسب، بعد أن توقَّف كلٌّ منا عن رؤية الآخر؟

---

(41) مادة لدائنية تُكسَى بها الموائد والجدران وتُصنَع منها ضروب من الأثاث.

أنا شخص ذو قلب بارد. حين أَخْبَرُ أَلَمًا عظيمًا أضع حواجز حتى لا يتمكَّن الفقد من التغلغل عميقًا أو الذهاب بعيدًا. هناك جدار يبزغ فورًا ولا يتهاوى. لبروست هذه الكلمات: "نحسب أننا لا نعود نحبُّ موتانا، ولكن... ما أن نلمح بغتةً قفَّازًا قديمًا حتى ننفجر باكين." لا أعلم ما هو. لم يكن ثمَّة قُفَّاز. إن كنت صادقًا فعليَّ أن أعترف بأنني لم أفكِّر في رام الدِّين في الحقيقة كشخص كنت قريبًا منه حينًا من الوقت. في عشرينياتنا كنَّا مشغولين بأن نصبح أشخاصًا آخرين.

هل أحسستُ بالذنب لأنني لم أحبَّه حبًّا كافيًا؟ ذلك جزء من الأمر. بيْد أنها لم تكن مجرَّد فكرة تلك التي هدمت الجدار متيحةً له النفاذ إليَّ. لا بدَّ أنني بدأت أتذكَّر، وأنا أستعيد كل شظاياه الصغيرة التي كشفت ما يكنُّه لي من اهتمام. إيماءةٌ تشير إلى أنني أرَقْت شيئًا على قميصي، والتي حدثت في الواقع آخر مرَّة رأيته فيها. الطريقة التي حاول بها إشراكي في ما كان يتعلَّمه بحماسة. كيف حاد عن طريقه ومضى باحثًا عني ثم بقي صديقي في إنكلترا حين التحق بمدرسة وأنا بأخرى. لم يكن من العسير إيجادي في شبكة المغتربين، بيْد أنه بحث عني على أيَّة حال.

لا فكرة لديَّ عمَّا قد يكون مضى من الوقت وأنا جالس هكذا عند النافذة الزجاجية الألواح التي كانت تفصلني عن الشارع وماسي تجلسي قبالتي لا تنبس بكلمة، كانت يدها فقط تمتدُّ إليَّ وتفتح كفَّها التي لم أرها ومن ثمَّ لم أمدَّ يدي إليها. قيل لنا أننا نتَّسع بالدموع ولا نضيق بها. لقد تطلَّب الأمر مني وقتًا طويلًا. لم يسعني النظر إليها. نظرتُ وراء ضوء المطعم السَّاقط في الظلام.

"تعال، تعال معي،" قالت وصعدنا سلالم المحطة الحجرية انتظارًا للقطار. لم تزل هناك بضع دقائق فمضينا نقطع المنصَّة الطويلة ذهابًا وإيابًا إلى محيطها غير المُضاء، ما مِن كلمة واحدة بيننا. حين اقترب القطار كان هناك عناق، قُبلةٌ تقديرٍ وحزنٍ ستهدم الباب بيننا سنواتٍ قليلةً مقبلة. سمعنا طقطقة إعلان ثم رأينا ضوءًا يشعُّ فوقنا.

بعضُ الأحداث يستغرق عمرًا لتكشف ضرَرَه وأثرَه. أرى الآن أنني تزوَّجت ماسي لكي أبقى قريبًا من جماعة في طفولتي شعرت معها بالأمان، وأدركت أنني ما زلت أتمنَّى ذلك.

ظللتُ وماسي يرى أحدُنا الآخرَ على استحياء في البداية، ثم إلى حدٍّ ما لاستعادة ذينك الحبيبَين اللذين كُنَّاهما في مراهقتنا. كان هناك ألمُ وفاة رام الدِّين المشترَكُ بيننا. ثم كانت هناك طمأنينة العائلة. لقد رحَّب بي أبواها في منزلهما مرَّةً أخرى، فالصبي ما زال صبيًّا لهما، ذلك الذي كان أعزَّ أصدقاء ابنهما أعوامًا. وهكذا كنت كثيرًا ما أذهب إلى مِلْ هِلْ وأقيم في المنزل الذي هربت منه مرَّةً حين كنت مراهقًا، حيث اعتدت التَّسكُّع مع رام الدِّين وأخته عندما يكون والداهما في العمل، في غرفة المعيشة بتلفازها أو في غرفة الطابق العلوي والاخضرار يتراءى في الخارج. إنه مكان أقدر على السَّير فيه معصوب العينين. حتى الآن، تمتد ذراعاي لتقيسا عرض القاعة، وأتَّخذ خطوات عديدة لأدخل تلك الغرفة القريبة من الحديقة، ثم ثلاث خطوات أخرى صوب اليمين متجنِّبًا المنضدة المنخفضة، فأعرف عندما أرفع العِصابة عن عينيَّ أنني واقف أمام صورة تخرُّج رام الدِّين.

لم يكن ثمَّة من أحد آخر أو مكان آخر ألوذ به من خوائي.

بعد شهر من وفاته، تلقَّت عائلة رام الدِّين رسالة تعزية من السيد فونْسِكا وسمحت لي بقراءتها، لأنه كان يصف أيَّامنا على متن الأُورُونسَي. قال كلماتٍ مهذَّبةً عني (ولا شيء عن كاسْيَس)، وقال أنَّه كان يرى "فضولًا أكاديميًّا لامعًا" في رام الدِّين. كتب كيف ناقش كلاهما تاريخ الدول العديدة التي مررنا بها، وكلَّ الموانئ الطبيعية مقارنة بالموانئ الصناعية، وكيف أنَّ عدن كانت إحدى المدن الثلاث عشر العظيمة في فترة ما قبل الإسلام، وكيف عاش فيها أسلاف الجغرافيين المسلمين قبل عصر إمبراطوريات البارود. وهكذا مضت رسالة فونْسِكا بأسلوب ما زال مألوفًا لي بعد ما يناهز عشرين عامًا.

طالما أضاف فونْسِكا إلى شغفه بالمعرفة لذَّةَ مشاركتها. أحسب أنها الطريقة نفسها التي كان يعلِّم بها رام الدِّين ابن أخته ذا العشرة أعوام الذي قابلته في الجنازة. لم يكن السيد فونْسِكا يعلم أنني على اتصال بعائلة رام الدِّين، وأخالُ أنه كان باستطاعتي مفاجأته بالسفر إلى (شيفلد) بصحبة ماسي لزيارته. بيْد أنني لم أفعل ذلك قطُّ. كنت وإيَّاها في انشغال معظم عطل نهاية الأسبوع. كنَّا قد صرنا حبيبين مجدَّدًا وخطيبَين وملتزمَين بالأمور الشَّكليَّة التي تلحُّ عليها العائلات التي تقطن خارج بلادها. لقد سقط على كواهلنا عبءُ تقاليد المنفى. ومع ذلك، كان ينبغي أن نتجاهل ذلك كلَّه، ونكتري سيارة ونمضي إلى زيارته. بيْد أنني كنتُ خجِلًا منه في تلك المرحلة من حياتي. كنت كاتبًا شابًّا وخشيت رَدَّة فعله، حتى إن كنت على يقين من أنه سيكون كيِّسًا. على أيَّة حال، كان رام الدِّين مَن حسبه فونْسِكا

يتمتَّع بالحساسية الطبيعية والذكاء ليصبح فنَّانًا. لا أصدِّق أنَّ هذه شروطٌ ضروريَّة، ولكنني صدَّقتها جزئيًّا في ذلك الحين.

ما زلت مدهوشًا من أنني وكاسْيَس خرجنا من ذلك العالم وعشنا في عالم الفن. كاسْيَس بشخصيته العامة أصرَّ على أن يستخدم فقط اسمه الأوَّل المثير للجدل. كنت أكثر لطفًا، فقد نظَّفت أفعالي، وأمَّا كاسْيَس فقد مضى بأفعاله إلى الشارع، وراح يزدري ويستخفُّ بأصحاب المناصب في الفن والسُّلطة. بعد بضع سنوات حين أصبح ذائع الصيت، طلبت إليه مدرَستُه في إنكلترا، التي كان يمقتها وتمقته، أن يتبرَّع بلوحة. أبرق رادًّا: "طُزّ! يُتبَع برسالة قويَّة[42]." لقد كان دومًا أحد أولئك الأفظاظ. كنت كلَّما سمعت عن فعل شائن أو مثير أقدم عليه كاسْيَس أفكِّر في الوقت ذاته في فونْسِكا وهو يقرأ ذلك في الصحف ويتنهَّد متحسِّرًا على تلك الفجوة بين العدالة والفن.

كان يجدر بي أن أزوره، زعيمنا القديم في تدخين القُنَّب. لكان استطاع أن يكشف رام الدِّين بطريقة مختلفة عمَّا فعلت ماسي. بيْد أنَّ عائلتها كانت مفطورة القلب، وكنت أنا وهي حبل الوصل الذي سيشفيه، أو على الأقل الذي سيضع ضمادة على ظرف موته الملتبِس الذي تركهم جميعًا عاجزين عن مواجهة ألمهم. كما أنَّ رغباتنا غذَّاها وقت أقدم، منذ ذلك الصباح الباكر جدًّا في صِبانا عندما بدت وكأنَّ تلك الأغصان الخضراء المتحوِّلة قد لوَّنتها. ثمَّة في قلوبنا جميعًا عقدة نرجو فكَّها وحلَّ وثاقها.

(42) يُتبَع برسالة قوية تعبير كان يُستخدم في البرقيات في سبعينيات القرن العشرين للدلالة على غضب المُرسِل من المرسَل إليه واستخدام أقل قدر ممكن من الكلمات تقليلًا لتكلفة البرقية حسب الكلمة، على أن تُرسَل رسالة مفصَّلة في ما بعد.

لأني بلا أخت وبلا أخ فقد تصرَّفت مع رام الدِّين وماسي وكأنهما شقيقاي. لقد كانت ضربًا من العلاقة التي يحظى بها المرء في مراهقته، مقارنة بعلاقتنا بأولئك الذين نصادمهم ونحن كبار، الذين نكون معهم على الأرجح أكثر ميلًا إلى تغيير حياتنا.

هكذا حسبت.

معًا أمضينا نحن الثلاثة العطل الصيفية والشتوية، تلك الأوقات المثاليَّة والمجهولة المعالم في ما يبدو. كنَّا نتسلَّل في عالم مِلْ هِلْ. على مسار الدَّرَّاجات أعدْنا تمثيل سباقات عظيمة، مُتهادين فوق المنحدر، ثم مندفعين إلى أسفله وكأنَّ صورةً تُلتَقط لنا لمعرفة الفائز. وفي الأصيل كنَّا نختفي لمشاهدة فِلم في إحدى دور السينما في وسط لندن. وكان عالمنا يضم (باتَرسي باور ستيْشن) و(بليكن ستيْرز) في مقاطعة (وابينغ) المفضية إلى التيْمز، ومكتبة كرويدون، وحمامات السباحة العامة في (تشيلسي)، ومقاطعة (ستريتهام كومون)، لننحدر من الطريق السريع صوب الأشجار البعيدة. (هنا وجد رام الدِّين نفسه حينًا في آخر ليلة في حياته.) وشارع (كولنْيرز ووتر لَيْن) حيث عشتُ وماسي في نهاية المطاف. كل هذه الأماكن دخلناها أنا وهي ورام الدِّين مراهقين وخرجنا منها كبارًا. ولكن ما الذي نعرفه حقًّا، حتى بعضنا عن بعض؟ لم نكن نفكِّر في مستقبل قطُّ. نظامنا الشمسيُّ الصغير، إلى أين كان يتجه؟ وإلى متى سيبقى أحدنا يعني شيئًا للآخرين؟

أحيانًا نجد ذواتنا الحقيقية والفطريَّة في صِبانا. إنه إدراك شيء كان في البدء صغيرًا بداخلنا، وأننا سنكبر فيه بطريقة ما. كان لقبي على متن الباخرة (مَاينا.) إنَّه اسمي تقريبًا ولكن بخطوة في الهواء

ولمحة من شيء إضافي آخر، مثل الحركة الطفيفة في مشية الطيور حين تسافر بَرًّا. كما أنه اسم طائر غير رسمي وغير جدير بالثقة ولا يمكن الوثوق بصوته تمامًا بالرَّغم من امتداد مجاله. أحسب أنني كنت حينذاك مَاينا المجموعة، أكرِّر كلَّ ما كنت أسمعه مصادفةً للآخرين. منحني رام الدِّين اللَّقب مصادفة، وأمَّا كاشيَس، لإدراكه سهولة خروج اللَّقب من اسمي فبدأ يدعوني به.

لم يكن أحد يدعوني مَاينا إلا الصديقان اللذان عرفتهما في الباخرة. ما أن دخلت المدرسة في إنكلترا حتى عُرِفتُ بلقب عائلتي فقط. أمَّا عندما كنت أتلقَّى محادثة هاتفية ويقول شخص ما مَاينا فلا يكون إلَّا أحدهما.

أمَّا الاسم الأوَّل لرام الدِّين فقلَّما كنت أستخدمه، مع أنني أعرفه. هل تمنحني المعرفة الإذن بافتراض أنني أفهم معظم الأمور المتعلِّقة به؟ هل يحقُّ لي أن أتخيَّل عمليات التفكير التي كان يمرُّ بها كشخص راشد؟ كلَّا. ولكننا كفتية في تلك الرحلة إلى إنكلترا ينظرون إلى البحر الذي بدا لهم لا يحوي شيئًا، اعتدنا تخيُّل حَبْكٍ وقصص معقَّدة لأنفسنا.

قَلْبُ رام الدِّين. كَلبُ رام الدِّين. أختُ رام الدِّين. فتاةُ رام الدِّين. يمكنني الآن فقط أن أرى المعالم المتعدِّدة في حياتي التي ربطتنا نحن الاثنين. الكلب مثلًا. ما زلت أتذكَّر ونحن نلعب معه على السرير الضَّيِّق في أثناء الفترة الوجيزة التي قضاها معنا. وكيف في لحظة ما أقبل عليَّ بهدوء ووضع خطمه وفكَّيْه بين كتفي وعنقي مثل آلة كمان. دفئُه المذعور. ثمَّ مع ماسي، توافُقُنا أيضًا كان حذِرًا ومتوتِّرًا

في مراهقتنا، ثم أصبحنا سريعَين ومحمومَين في اكتشاف أحدنا الآخر بعد وفاة رام الدِّين التي عرفنا تقريبًا أننا ما كنَّا لنكون معًا لولاها.

ثم جاءت قصَّة فتاة رام الدِّين.

كان اسمها هِثَر كيْف. وقد أحبَّ كلَّ شيء فيها لم يكن مكتملًا بعد في عمر الرابعة عشرة. كأنَّما كان يستطيع أن يرى كلَّ ممكن، مع أنه لا بُد قد أحبَّ أيضًا ما كانته في تلك اللحظة، بالطريقة التي نعشق بها جَروًا، رضيعًا، صبيًّا جميلًا لم ينشط جنسيًّا بعد. كان يمضي إلى شقة عائلة كيْف في المدينة ليدرِّبها في الهندسة والجبر. كانا يجلسان إلى مائدة المطبخ. إذا كان الجو مشمسًا يدرسان أحيانًا في الحديقة المسيَّجة التي تحاذي المبنى. وفي أثناء نصف الساعة الأخير، كهديَّة صغيرة غير رسمية، كان يحثُّها على التَّحدُّث عن أشياء أخرى. كان مدهوشًا من أحكامها القاسية على والديها، والمعلمين الذين يضجرونها، وبعض "الأصدقاء" الذين حاولوا إغواءها. كان رام الدِّين يجلس هناك مشدوهًا. لقد كانت صغيرة ولكنها لم تكن ساذجة. من نواح عديدة، لعلَّها كانت أكثر خبرة بشؤون الحياة منه. وما كان هو؟ شابٌّ بريء جدًّا في الثلاثين من عمره، في شرنقة مجتمع المهاجرين الصغير ذاك في لندن. لم يكن نشطًا أو مطَّلِعًا على العالم من حوله. كان يراوح بين التدريس والدروس الخصوصية كذلك. لقد قرأ قدرًا كبيرًا في الجغرافيا والتاريخ. حافظ على اتصاله بالسيد فونْسِكا الذي كان يقيم في الشمال، ربما كانت ثمَّة ندرة في التَّراسل بينهما حسبما قالت أخته. ولذا كان يصغي إلى فتاة عائلة كيْف على المائدة متخيِّلًا الأجزاء المتعدِّدة لطبيعتها. ثم يعود إلى البيت.

لِمَ لمْ يَفُكَّ سحر ذلك التراسل المُنمَّق مع فونْسِكا بالإتيان

على ذكرها؟ بيْد أنه ما كان يمكنه أن يفعل ذلك. لكان فونْسِكا عرف قطعًا كيف يرُدُّه عنها. مع ذلك، كم تبدو نظرته واقعيَّة نحو الشَّخصيَّة المراهقة التي يمكنها أن تكون وحشيَّة تحت مظهرها الخادع؟ كلَّا، كان من الأجدى لو أنه أسرَّ إلى كاسْيَس. أو إليَّ.

كان في يومي الأربعاء والجمعة يذهب إلى شُقَّة عائلة كيْف. في يوم الجمعة كان جليًّا أنَّ الفتاة تكون نافدة الصبر، لأنها تخرج للقاء أصدقائها بعد انتهاء الدَّرس. ثم في يومٍ جمعةٍ وجدها تبكي. بدأت تتحدَّث، ولم تكن تريده أن يغادر، ولكن أن يقدِّم لها العون في حياتها. كانت في الرابعة عشرة وكل ما كانت تتمنَّاه هو فتًى يدعى راجيڤا، شخص قابله رام الدِّين ذات ليلة برفقتها. شخص مُريب، كما اعتقد. بيْد أنه كان على رام الدِّين أن يستمع إلى كل مناقب الفتى وما بدا عاطفة مشبوبة وعفويَّة جدًّا بينهما. كانت تتحدَّث ورام الدِّين يصغي. كان الفتى ينبذها باحتقار حينما يكون برفقة أصدقائه، ولذلك كانت تشعر بالهجْر. كانت تريد رام الدِّين أن يذهب إلى الفتى ويقول له شيئًا، أنَّ يمثِّلها بطريقة ما، كانت تعرف أنَّ بمستطاعه التَّحدُّث جيدًا، ولعلَّ ذلك سيعيد راجيڤا إليها.

كان هذا أوَّل شيء طلبته إليه.

قالت أنها تعرف أين سيكون راجيڤا. في حانة (كوكس). لن تذهب بنفسها ولن يكون بمستطاعها ذلك. سيكون راجيڤا مع أصدقائه وقد باتوا يتجاهلونها الآن.

وهكذا مضى رام الدِّين يبحث عن الفتى ليقنعه بالعودة إلى هِثَر. لقد دخل ذلك الجزء من المدينة – مكان ما كان ليذهب إليه مطلقًا – ومشى هناك مرتديًا معطفه الشتوي الأسود، ودون وشاح يقيه الطَّقس الإنكليزي.

يدخل حانة كوكس في سعيه كفارس. المكان صاخب؛ الموسيقى، الحديث العالي والدُّخان. يتقدَّم، آسيوي بدين مصاب بالرَّبو يبحث عن آسيوي آخر، ذلك أنَّ راجيفا من الشرق أيضًا، أو أنَّ عائلته على الأقل من هناك. بيْد أنَّ الجيل اللاحق يملك ثقة أكبر. يرى رام الدِّين راجيفا وسط أصدقائه. يقترب ويحاول أن يشرح لِمَ هو هناك، ولِمَ يتحدَّث إليه. ثمَّة أحاديث كثيرة تدور وهو يحاول إقناع راجيفا بمرافقته إلى الشُّقَّة حيث تنتظر هِثَر. يضحك راجيفا ويشيح بوجهه، ويسحب رام الدِّين الفتى من كتفه اليسرى نحوه فيُخرج هذا سكِّينًا مكشوفة. لا تلمسه الشَّفرة. تلمس فقط سترته السوداء فوق قلبه. القلب الذي أخذ رام الدِّين يحميه طوال حياته. هناك ضغط طفيف وحسب من سكِّين الفتى، لا تتعدَّى قوَّتُها مجرَّد دفع زرٍّ أو سحبه. بيْد أنَّ رام الدِّين يقف هناك منتفضًا في هذا المحيط الصاخب. يحاول ألا يستنشق الدُّخان. الفتى راجيفا، ما عمره؟ ستة عشر؟ سبعة عشر؟ يقترب بتينك العينين البنِّيَّتين الغامقتين ويُدخل السِّكِّين في جيب معطف رام الدِّين الأسود. يبدو الفعل صريحًا وكأنَّه يدسُّها في جسده.

يقول راجيفا: "يمكنك أن تعطيها إيَّاها." تلميحٌ خطِر ولكنه رسمي. ماذا يعني؟ ما الذي يقوله راجيفا؟

تسري قشعريرة لا تتوقَّف في قلب رام الدِّين. ينفجر أحدهم ضاحكًا، ويستدير "العاشق" منصرفًا مع عصبة أصدقائه. يخرج رام الدِّين من الحانة إلى هواء الليل ويبدأ المشي نحو شقة هِثَر ليخبرها بفشله. "كما أنه،" سيضيف قائلًا إثر عودته، "ليس مناسبًا لك." يُصاب بالإنهاك بغتةً. يلوِّح لسيارة أجرة ويركبها. سيقول... سيقول

لها... لن يتحدَّث عن الثقل الكبير الجاثم على قلبه... لا يسمع سؤال السائق في الدقائق الأولى القليلة آتيًا من جزء السيارة الأمامي. ينكِّس رأسه.

يدفع لسائق سيارة الأجرة. يضغط جرس شقتها، ينتظر، ثم يستدير وينصرف. يعبر الحديقة حيث يقدِّم لها الدرس الخصوصي مرَّةً أو مرتين عندما يكون الطقس مشمسًا. ما زال قلبه يخفق وكأنما لا يمكنه التباطؤ أو حتى التَّوقُّف. يرفع مزلاج البوابة ويلِج الظلمة الخضراء.

لقد قابلتُ الفتاة هِثَر كيْف. كان ذلك بعد بضعة أعوام من وفاة رام الدِّين، وكانت، على نحوٍ ما، الشيء الأخير الذي فعلتُه لأجل ماسي ووالديْها. كانت الفتاة تعيش وتعمل في (برروملي)، ليس بعيدًا عن المكان الذي التحقتُ فيه بالمدرسة. قابلتُها في (تايدي هيُر) حيث تعمل ودعوتُها إلى الغداء. كان من اللازم اختراع قصة ما لمقابلتها.

في البداية قالت أنها بالكاد تتذكَّره. لكنْ ونحن نستأنف الحديث كان بعض التفاصيل التي تذكَّرتْها صادمًا. مع أنها لم ترغب في أن تذهب في الحديث أبعد من قول أدلة رسمية وغير كافية على موته. قضينا ساعةً معًا، ثم عاد كلٌّ منَّا إلى حياته. لم تكن داهيةً ولا مغفَّلة. أشكُّ أنها لم "تتطوَّر" كما أراد لها رام الدِّين، بيْد أنَّ هِثَر كيْف تحيا حياةً اختارتها بنفسها. كانت لها سُلطة صغيرة عليها. وكانت تحترس وتحذر من مشاعري. عندما ذكرت اسم صديقي في البداية ألْهَتني بيُسر ببعض الأسئلة وأخذت تتحدَّث عن نفسها. شرعتُ في إخبارها عن رحلتنا بالباخرة. لذا حين سألتها مجدَّدًا أدركتُ مدى

ألفة علاقتنا ورسمت نسخة عنه أكثر لطفًا بصفته معلِّمها من تقديمها إلى شخص لا يعرفه.

"كيف بدا في تلك الأيام؟"

وصفتُ كِبَر حجمه المألوف، مشيته البطيئة، حتى تبسُّمَه السريع ذاك مرَّةً واحدة وحسب وهو ينصرف عنك. فكَّرْتُ، كم يبدو غريبًا التَّبسُّم مرَّةً واحدة وحسب لرجل شفوقٍ كهذا الرجل! بيْد أنَّ رام الدِّين ينصرف عنك دائمًا بتبسُّمِه الأصيل ذاك لكي يكون آخر ما تراه فيه.

أضافت بعد حين: "هل كان خجولًا دومًا؟"

"كان... حذِرًا. كان بقلب واهن عليه أن يحميه. لذلك كانت أمُّه تحبُّه حبًّا كبيرًا. لم تتوقَّع له حياة طويلة."

طاطأت برأسها: "فهمت، ما حدث في الحانة... ما سمعته أنه كان مجرَّد صَخَب، لم يكن ثمَّة عنف. راجيقا ليس هكذا. ما عدتُّ أراه، ولكنَّه لم يكن هكذا."

لقد كان ثمَّة نَزْرٌ يسير جدًّا مما يمكن أن نتشبَّث به في حديثنا. كنت أحاول القبض على حفنة من هواء. رام الدِّين الذي احتجتُ بشدَّة إلى أن أفهمه لكي أدفنه لم يكن ممكنًا القبض عليه. وفوق ذلك، أنَّى لتلك الفتاة ذات الأربعة عشر عامًا أن تفهم ما كان يحسُّ به من توْق وعذاب!

ثم قالت: "أعرف ما كان يريد. كان يمضي في الحديث عن ألغاز المثلَّثات والحساب تلك عن قطار يقطع ثلاثين ميلًا في الساعة... أو عن حوض استحمام يحوي ماءً كثيرًا ورجل يزن عشر صخرات يغطس فيه. تلك كانت الأمور التي نتعلَّمها. بيْد أنه أراد

شيئًا آخر. أراد أن ينقذَني. أن يدخلني إلى حياته وكأنَّما لم تكن لي حياتي الخاصة."

تستبدُّ بنا الرَّغبة في إنقاذ أولئك البُؤَّس في هذا العالم. إنها عادة ذكوريَّة، رغبة في تحقيق أمنية ما. مع ذلك، عرفت هِثَر كيْف حتى في مراهقتها ما كان يرجوه لها رام الدِّين. ومع ذلك، بالرَّغم من طلبها إليه أن يفعل شيئًا لأجلها تلك الليلة لم تتهم نفسها قطُّ بموته. لقد كان إسهامه في الأمر محكومًا بحاجاته.

"له أخت، أليس كذلك؟"

قلت: "بلى، أنا زوجها."

"إذن ألهذا جئت لتراني؟"

"كلَّا. لأنه كان أقرب صديق إليَّ، الماتشَانغ الخاص بي. أحد صديقيَّ المهمَّين في يوم من الأيام."

"فهمت. أنا آسفة." ثم أضافت: "أتذكَّر جيِّدًا تبَسُّمَه ذاك كلَّما غادر الشُّقَّة وأنا أغلق الباب. إن الأمر أشبه بشخص يقول وداعًا عبر الهاتف ويصبح الصوت حزينًا. أتعرف ذاك التَّبدُّل الذي ينتاب الصوت؟"

عندما نهضنا لنغادر، دارت حول المنضدة وعانقتني وكأنَّها تعلم أنَّ هذا كلَّه ليس من أجل رام الدِّين وإنَّما من أجلي.

ذات ليلة صيفيَّة، في شقتنا المفتوحة على حديقة في شارع كوليَرْز ووتر لين، بينما كنت أسير عائدًا إلى صالة المعيشة في أثناء حفلة، رأيت ماسي عبر الغرفة تدفع جسدها إلى الجدار لترقص مع شخص يعرفه كلانا جيِّدًا. كان كلٌّ منهما يرقص على مبعدة من الآخر كي يسعه رؤية وجهه، ورفعت بيدها اليمنى رباط كتف ثوبها الصيفي وحرَّكته قليلًا، كانت تنظر إلى الرِّباط كما كان هو ينظر إليه. وكانت تعرف أنه كان ينظر.

جميع أصدقائنا كانوا هناك. كان (رَيْ تشارلز) يُغنِّي: "ولكن من ناحية أخرى يا حبيبتي." كنت في منتصف الغرفة. ومن دون الحاجة إلى رؤية المزيد أو إلى سماع كلمة تُقال عرفت أنَّ ثمَّة بعض البهجة بينهما لم نعد نحن الاثنان نملكه.

يا لها من إشارة صغيرة يا ماسي! لكنَّنا حين نبحث عن مثال لما لا نعود نملكه فإننا نراه في كل مكان. وكانت بضع سنوات وحسب منذ أن أزحنا عن كاهلينا عبءَ فقد أخيك، شيئًا لم يكن أيٌّ منَّا قادرًا على مواجهته وحده.

عندما انفضَّت علاقتي بماسي كان الأمر في الحقيقة أشدَّ

وطأة على والديْها، في حين تمنَّينا نحن الاثنان أن نكون أكثر هدوءًا في علاقتنا من دون أداء دور الزوجين. ولكن تبيَّن أنه لن يرى أحدُنا الآخر ثانيةً أبدًا.

هل انصرمت الأعوام منذ أن رأيتها تُحرِّك رباط ثوبٍ صيفيٍّ لم يبلغ طوله أكثر من ربع إنش، ففسَّرتُه بأنه دعوة إلى ذلك الصديق المشترَك؟ وكأنَّما بدا الأمر أساسيًّا له على حين غِرَّة أن يرى ذلك الجزء الصغير من كتفها الذي لم يتعرَّض للشمس. أقول هذا بعد مرور وقت طويل من المرارة والتُّهَم والإنكار والجَدَل. ما الذي جعلني أدرك شيئًا في تلك الإشارة؟ مضيتُ إلى حديقتنا الضَّيِّقة ووقفت هناك أصغي لحركة المرور اللَّيليَّة تعبر شارع كوليَرْز ووتر ليْن التي جعلتني أفكِّر في صخب البحر المتصل، ثم دفعة واحدة في إمِلِي في ظلمة الأُورُونسَي، وهي تميل إلى الخلف متَّكِئةً على الدَّرابزين مع عاشقها، حين نظرتُ حينًا إلى كتفها العاري ثم عاليًا إلى النجوم، وتذكَّرتُ أيضًا العُقْدَة الجنسيَّة التي بدأت تتشكَّل بداخلي. كلُّ ذلك عن صبي في الحادية عشرة.

سأخبركم عن آخر مرَّة فكَّرت فيها في رام الدِّين. كنت في إيطاليا، وأثارني الفضول بشأن شعار النَّبالة، فسألتُ مرشدًا سياحيًّا في إحدى القلاع عن تفسير تلك الأقمار الهلاليَّة وأطرافها المتجهة إلى الأعلى. أُخبِرْت بأنَّ مجموعة الأقمار الهلاليَّة والسيف تعني أنَّ أفراد عائلةٍ شاركوا في الحروب الصَّليبيَّة. إذا شارك جيل واحد فقط، يكون في الشَّارة قمر هلالي واحد. ثم أضاف المرشد السياحي من دون أن أسأله أنَّ وجود شمس في شارتك يعني أنَّ ثمَّة

قدّيس في عائلتك. وفكّرتُ؛ رام الدّين. أجل، قفز كلُّه إلى أفكاري وكأنَّه قدّيس. ليس قدّيسًا بالمعنى الرَّسمي. إنَّه قدّيس بشري. لقد كان قدّيس عائلتنا السّرِّيَّة.

بورسعيد

في الأوَّل من سبتمبر من عام 1954 أكملت الأُورُونسَي رحلتها عبر قناة السويس ورأينا مدينة بورسعيد تدنو وتنزلق إلى جانب باخرتنا، وكانت السماء مسوَّدة بالرَّمل. بقينا مستيقظين طوال الليل نصغي إلى حركة المرور في الشارع، وجوقة الأبواق، ومذياع الشارع.

لم نغادر السَّطح إلَّا في الفجر وهبطنا طوابق عدَّة إلى غرفة المحرِّك الحارَّة ذات الإضاءة الشبيهة بإضاءة السجون. أصبحت هذه عادتنا كلَّ صباح. كان الرجال هنا يَنِزُّون عرقًا ونراهم يشربون ماءً فاترًا من دلاء إطفاء الحريق التي تُستخدم للطوارئ، في حين كانت حولهم آلات المُولِّد تدور وتدفع مكابحها بقوَّة. كان هناك ستة عشر مهندسًا على متن الأُورُونسَي. ثمانية في المناوبة الليلية وثمانية في المناوبة النهارية، يعتنون بالآلات البخارية العاملة بطاقة أربعين ألف حصان، التي تقود المراوح المزدوجة، كي يمكننا الإبحار فوق بحر هادئ أو مليء بالعواصف. حين نكون هناك في وقت باكر بما فيه الكفاية، مع انتهاء النوبة الليلية، نلحق بأفراد الطاقم عند خروجهم إلى ضوء الشمس حيث يقفون واحدًا تلو الآخر تحت كشك الاستحمام ثم يجفِّفون أجسادهم بريح البحر، وأصواتهم ترتفع وسط الصمت الجديد. كان

ذلك في المكان الذي وقفت فيه المتزلّجة الأسترالية تمامًا قبل ساعة.

ولكن الآن، ونحن نرسو في بورسعيد، توقّف جميع آلات المُولِّد والمحرِّكات، وبدا هناك غرض ومسلك مختلفان بين أفراد الطاقم. أصبح عملهم المجهول عامًّا. لقد أسفر عبور البحر الأحمر والقناة عن هبوب رمال صحراوية نسفت ملايين الشظايا من الطِّلاء الكناريّ الأصفر من جوانب الباخرة، ولذا، بينما كنَّا نُجوِّل يومًا واحدًا في ميناء البحر الأبيض المتوسط ذاك، راح البحارة يعلِّقون شباك الحبال، ويكشطون طلاء الهيكل الأصفر ويعيدون طليَه، وأخذ المهندسون والكهربائيون يعملون وَسْطَ المسافرين في الحرارة التي بلغت مئة درجة، لتأمين الباخرة لبلوغ مرسى رحلتها الأخير. وجعل الماسحون يزيلون الوحل من الأنابيب ويجمعون المادة السوداء الشبيهة بالبلغم في براميل. حالما تحرَّرت الباخرة من الميناء سُحِبت هذه البراميل إلى مؤخَّرها وأُلقيَت من فوقه على جوانبها.

في الوقت ذاته، أُفرِغت أقسام في العنبر. هطل مطر فترة وجيزة في الأصيل فبلغت مياهه ثلاثة طوابق سفلية واستمر حتى وصل إلى قاعدة العنبر فقام العمال المبلَّلون بالماء بدحرجة براميل بلغت زِنَتُها سبعمائة رطل إلى فم الرافعة المنتظِرة، وربطوا السلسلة وكلَّ برميل إلى دعامة لها شكل I. سحبوا صناديق شاي وسجاجيد من المطَّاط الخام ووجهوها إلى الفتحة. أكياس من (الأَسْبَسْتوس)[43] تفكَّكت في الهواء. كان عملًا غاضبًا محفوفًا بالمخاطر. إنْ فَقَد شخص سيطرة قبضته على حاوية فَقد تسقط إلى خمسين قدم في أعماق الظلام. إن قُتِل أحدهم، سيُجَذَّف الجسد إلى الميناء ويختفي هناك.

---

(43) مادة كيميائية مضّرة بالصحة.

بنفسجتان

بحلول هذا الوقت أصبح شأن السيدة فلافيا برِنْز في الأُورُونسَي مُهمًّا. لقد كانت ضيفة على مائدة القبطان ودُعيت مرتين إلى شاي الضُّبَّاط في البُرج. بيْد أنَّ ائتلاف الخالة فلافيا وصديقتِها ومهارتَهُنَّ في لعبة البْرِيدج هما ما منحها القوة في قاعات السطح (أ).

لقد مثَّلت البنفسجة (كوماراشْوامي) والبنفسجة (غرِنير)، "البنفسجتان"، كما يُطلِق عليهما الجميع، سِيلان في بطولات كثيرة في لعبة البْرِيدج من سنغافورة إلى بانكوك. ولذا تفوَّقتا على لاعبي الورق الفاتري الهمَّة عادَّة في أثناء الرحلة، وبعدم كشف وضعهما المهني أحدثت هاتان المرأتان أثرًا بمقامراتهما، إذ تبحثان في كل أصيل عن أعزبَ هشٍّ مختلفٍ وتجعلانه ينضم إليهما في عدد من المباريات.

كانت اللُّعبة في الواقع استجوابًا بطيئًا حسب تيسُّر وجود الرجل، مع وجود إمكانية المغازلة في البال، إذ صادف أنَّ الآنسة كوماراشْوامي، البنفسجة الصغرى، كانت تتصيَّد زوجًا لها. وهكذا، ومع أنها كانت أكثر اللاعبات الثلاث مكرًا، أخذت البنفسجة كوماراشْوامي تتظاهر بالحياء عند طاولات اللعب في قاعة دليلة، تعرض ثمنًا أقل وتتردَّد كلَّما هُيِّئ لها انتهاز الفرصة. إن حدث ولعبت

مرَّة أو مرَّتين الورقة الأقوى مثل عبقري، يتورَّد وجهها وتتباهى بحظها في لعب الورق، وللأسف ليس بحظها في الحب.

ما زلت أتخيَّل هؤلاء السيدات الثلاث وهن يُحِطْن برجال منعزلين ويُوقِعْنَهم في شِراكهن، رجال هم أعجز من أن يدركوا حتى أنهم يبحرون في مياه خطِرة. كانت الأساور والدبابيس المزخرفة ترنُّ وتتلألأ والبنفسجتان وفلافيا يضعن أوراقهن للاصطياد، أو يتشبَّثن بها باستحياء فوق صدورهنّ. طوال الرحلة في البحر الأحمر كان ثمَّة أمل أن يستسلم واحدٌ من مزارعي الشاي متوسطي العمر لسحر الصَّيَّادة الصغرى. بيْد أنَّه تبيَّن أنه أكثر حذَرًا مما اعتقدن، وفي أثناء رُسُوِّنا في بورسعيد بقيت البنفسجة كوماراشوامي في مقصورتها تبكي.

كان أكثر ما تمنَّيت مشاهدته هو لعبة الورق بين الخالة فلافيا ورفيقي في المقصورة، السيد هَيْستِي. كان لا يزال جزِعًا من استبعاده. افتقد كلابه وافتقد وقت الفراغ حيث يستطيع القراءة. كنت أتوق إلى إمكانية قيام مباراة بين هذين العالمين المنفصلين، وتعجَّبت إن كان سيُلحِق الهزيمة بالبنفسجتيْن في لعبة عادلة في قاعة دليلة، أو في مقصورتنا في منتصف الليل أو ربَّما في أفضل الأحوال على أرض محايدة في أعماق العنبر، على منضدة ورق مبسوطة تحت مصباحٍ عارٍ.

قَلْبَان

إنَّ خسارة السيد هَيْستِي عملَه كرئيس حرَّاس أَوْجِرة الكلاب تعني أنَّ لعب الورق الليلي لن يجري كثيرًا كالمعتاد. أوَّلًا، كان صعود السيد إنفيرنْيو إلى السلطة يعني مزيدًا من النِّزاع بين الصديقين. ثم إن السيد هَيْستِي بتعيينه الآن ليقوم بطلاء البُقَع المتَشظِّية تحت الشمس، لم تعد لديه الطاقة نفسها التي كانت عندما كان يشرف بيُسر على الكلاب ويقرأ أعمالًا صوفيَّة. في الماضي كان الاثنان يتقاسمان الإفطار عند الأوْجِرة، والويسكِي عادةً ثم ضربًا من عصيدة يتناولانها في مِيْلغ كلاب مغسول. وأمَّا الآن فبالكاد يرى أحدهما الآخر. بيْد أنَّه يحدث أحيانًا أن تكون هناك لعبة ورق في وقت متأخِّر، وكنت أشاهد الأربعة إلى أن أستسلم للنوم، حتى يوقظني السيد بابْستوك الذي كان يصرخ كلَّما خسر. في أثناء استراحتهما الليلية كمشغِّلَين لاسلكييْن، كان يأتي هو وتولرُوي للعب هذه اللعبة وهما مُنهكان. إنفيرنْيو الذي لديه الآن أيسر الأعمال، وحده الذي يكون نشيطًا ويصفِّق بيديه إثر كلِّ فوز صغير. كان يستمر في إثارة حنق السيد هَيْستِي برائحة الكلاب المُرقَّشة وكلاب التَّرْيَر التي تفوح منه.

عند مؤخَّر الباخرة كان هناك ضوء أصفر كالح. وفي الليالي

الحارَّة كان رفيقي في المقصورة يسحب غطاءه إلى هناك ويربطه إلى الدَّرابزين لكي ينام تحت النجوم. أدركت أنه ربَّما كان ينام هناك في تلك الأيام القليلة الأولى منذ خروجه من كولومبو. صادفناه أنا وكاسْيَس ورام الدِّين في أثناء إحدى جولاتنا الاستكشافية الليلية وشرح لنا أنه يقوم بذلك منذ أن عبر مضيق ماجلَّان حين كان شابًّا، عندما أحاطت بالباخرة التي كان على متنها جبال جليدية من كل لون. لقد كان هَيْستِي "مؤبَّدًا" في التجارة البحرية، يسافر إلى الأمريكتين، الفلبين، الشرق الأقصى، وقد تغيَّر بفضل الرجال والنساء الذين قابلهم. "أتذكَّر الفتيات، الحرير.. لا أتذكَّر العمل مطلقًا. لقد اخترت مغامرات شاقَّة. كانت الكتب كلمات وحسب آنذاك." في هواء الليل المتأخِّر كان السيد هَيْستِي متحدِّثًا لا يتوقَّف. وما أخبرنا به حين كنَّا نزوره تحت مصباحه الأصفر في بعض تلك الليالي أثار الخوف في قلوبنا. لقد عمل في باخرة (دولار) التي عبرت قناة بنَما؛ وأَهْوِسَة[44] (بيدرو ميغل)، وأَهْوِسَة (ميرافلورز)، و(غِيلاَرْد كَت). كان ذلك، كما قال، عالم الرّومانسيَّة! أخذ يصف الحُفَر التي صنعها الإنسان، ومدن الموانئ عند طرف كل قناة، ثم (بَالبُوا)، حيث أغوته جميلة محلِّيَّة، وثَمِل، وفاتته باخرته، فتزوَّج المرأة ليهرب بعد خمسة أيام ويسجِّل في الباخرة الإيطالية التالية.

كان السيد هَيْستِي يتحدَّث بصوته الجاف البطيء، والسيجارة تتدلَّى من شفتيه، ويهمس الكلمات بتواضع من خلل الدُّخان. لقد صدَّقنا كلَّ شيء أخبرنا به. سألناه أن يرينا صورة لـ"زوجته" التي قال

---

(44) جمع هَوِيس: قنطرة على نهر أو ترعة ذات حاجز آلي يحجز الماء الأعلى عن الأدنى حتى تُنقَل السفن من أحد الماءَيْن إلى الآخر.

عنها أنها استمرت تلاحقه من ميناء إلى آخر، ولم تيأس، ووعد أن "يكشف صورتها" مع أنه لم يفعل قطُّ. لقد تخيَّلناها فائقة الجمال، بعينين متَّقدتين، وتمتطي فرسًا. ذلك أنَّ السيد هَيْستِي حين سجَّل ليلتحق بالباخرة الإيطالية خارجًا من بالبُوا قرأت (أنابِلا فِيغرُوا) رسالته المفعمة بلوم الذات ولكن الرافضة أيضًا، في وقت متأخِّر جدًّا كي تلحق بالباخرة. جمعت فرسَيْن ومضت دون توقُّف ثم أقلَّها مركب إلى أَهْوِسَة بيدرو ميغل وهناك ركبت الباخرة كمسافرة من الدرجة الأولى كي يقدِّم إليها هو وجبة مرتديًا سترة المضيف، ولم تُلقِ بالًا إلى وجهه المدهوش أو حضوره الذليل ولا بكلمة أو نظرة، حتى ذلك المساء حين دخلت المقصورة الصغيرة التي كان يقاسمها اثنين من أفراد الطاقم وقفزت بين ذراعيه . كانت أحلامنا محتشدة تلك الليلة.

وتوالت قصص أخرى تحت الضوء الأصفر الكالح. لأنه عندما كان رفيق مقصورتي بعد حينٍ من الوقت على متن باخرة أخرى وبعد أن أفصح عن تردُّدِه مرَّةً أخرى إزاء علاقتهما، كان يتأمَّل قمرًا له من العمر أربعة أيام، فأقبلت هي عليه بصمت وطعنته بسكِّين طعنتين في ضلوعه، قريبًا من قلبه بمقدار "عرض قطعة صغيرة من الخبز المقدَّس." كان الهواء البارد هو ما أبقاه حاضر الوعي. لقد كان على يقين بأنَّها لو كانت امرأة ضخمة الجثَّة بخلاف المرأة الأمريكية الجنوبية الصغيرة الحجم، لَرَفعته فوق الدَّرابزين وألقت به في اليَمّ. استلقى هناك وأخذ يجأر، لعلَّ صراخه كان عاليًا بسبب سكون الليل. لحسن الحظ سمعه أحد الحرَّاس. أُلقي القبض على أنابِلا فِيغرُوا وسُجِنت أسبوعًا فقط. شرح السيد هَيْستِي قائلًا: "إنَّه يأس المرأة، هناك كلمة واحدة لذلك في القانون الجنائي في أمريكا الجنوبية. إنها

مرادفة لـ"القيادة تحت تأثير التنويم المغناطيسي. وهذا هو ما يعنيه الحب، أو على الأقل ما كان يعنيه الحب في تلك الأيام...."

حاول أن يشرح لثلاثتنا: "ثمَّة جنون في النساء، عليك أن تقترب منهن باحتراس. قد يكنَّ ظِرَافًا ومتردِّدات كأيائِل بريَّة. وإن رغبت في النوم معهن فامض وتناول الشراب معهن. ولكن إن تركتهن فالأمر يشبه السقوط في حفرة لَغَمٍ لا علم لك بوجودها في طبيعتهن... الطعن لا يُعَدُّ شيئًا. لا يُعَدُّ شيئًا. كنت أستطيع النجاة من ذلك. ولكنها كانت هناك مرَّة أخرى في (فالباريزو)، وقد أُطلِق سراحها. اصطادتني في فندق (هومَن). لحسن الحظ أنني أصبت بحمى التَّيْفُود، ربَّما في المشفى ذاته الذي أُخِذت إليه مطعونًا بالسِّكِّين، ولحسن الحظ أنَّها كانت تخاف خوفًا غير معقول من المرض، إذ أخبرتها قارئة حظ بأنَّها قد تموت بسببه، فتركتني إلى الأبد. وهكذا أنقذني الطعن قريبًا من قلبي الأيسر من مصير أبديٍّ معها. لم أرها مرَّة ثانية قطُّ. قلتُ قلبي الأيسر لأنَّ للرجال اثنين. قلبَيْن. كُليتَيْن. طريقيْن للحياة. إننا مخلوقات متماثلة. نحن متَّزنون في عواطفنا..."

سنواتٍ صدَّقت هذا كلَّه.

"على أيَّة حال، في المشفى، بينما كنت أصارع التَّيْفُود علَّمني بعض الأطباء لعب البريدج. وبدأت القراءة أيضًا. حين كنت صغيرًا لم تغزُ الكتب روحي قطُّ. أتعرفون ما أقصد؟ لو قرأتُ هذا الكتاب "الأوبانيشاد"[45] عندما كنت في العشرين لما تقبَّلتُه. لقد كان عقلي مشغولًا جدًّا آنذاك. بيْد أنَّ الأمر تأمُّل. إنه يساعدني الآن. أخالُ أنني سأقدِّرها هي أيضًا الآن حقَّ التقدير بيُسر أكبر."

---

(45) أحد الكتب المقدَّسة الهندوسية القديمة.

كنت أقف مع فلافيا برِنْز ذات أصيل نتحدَّث بفتور. حينما نظرتُ إلى أسفل جانب الباخرة رأيتُ السيد هَيْستِي راكبًا فوق مرساة مرفوعة يطلي الهيكل. كان هناك بحَّارة آخرون على سلالم الحبال حوله، بيْد أنني تمكَّنت من معرفة رأسه الأصلع الذي كنت أراه كلَّما نظرت إلى الأسفل في أثناء لعب الورق. كان قد خلع قميصه وبدا جذعه مسفوعًا بالشمس. أشَّرْتُ للخالة عليه.

قلت لها: "يقولون أنَّ ذاك الرجل أعظم لاعبي البريدج على متن الباخرة، لقد حصد بطولات في أماكن بعيدة مثل بنَمَا..."

رفعت عينيها عنه ناظرة إلى الأفق. "أتعجَّب ما الذي يفعله هنا إذن."

قلتُ: "إنه نبيهٌ جدًّا، ولكنَّه يلعب باحتراف كلَّ ليلة مع السيد بابْستوك والسيد تولرُوي والسيد إنفيرنْيو الذي أصبح الآن مسؤولًا عن الكلاب في الباخرة. جميعهم أبطال دوليُّون!"

"أتعجَّب..." قالت ونظرت إلى أظافرها.

ابتعدت عنها ومضيت إلى سطح في الأسفل حيث كان هناك رام الدِّين وكاسْيَس. أخذنا نشاهد السيد هَيْستِي وهو يعمل حتى صادف أن رفع نظره وحينها لوَّحنا له. رفع نظارته الواقية فوق جبهته، عرفنا وأجاب ملوِّحًا. تمنيت لو كانت راعيَتي ما تزال حيث تركتها لتشهد هذه اللحظة. استأنف ثلاثتنا المشي وكان ثمَّة خيلاء في خطانا. لن يعلم السيد هَيْستِي أبدًا ما عَنَته لنا إيماءة التقدير تلك.

لعلَّ السبب كان نجاحها الاجتماعي المتنامي، أو لعلَّها شهادتي

الكاذبة بعد العاصفة، بيْد أنَّ فلافيا برِنْز بدت أقلَّ اهتمامًا بكونها راعيتي. إنها تودُّ الآن أن تكون لقاءاتنا وجيزة على سطح مفتوح حيث تطرح سؤالين أو ثلاثة مثل ضابط المراقبة.

"هل تجد مقصورتك مريحة؟"

أطلتُ الصمت دقيقة. "أجل يا خالة."

أشارت إليَّ بالاقتراب، وقد أثارها الفضول بشأن شيء ما.

"ما الذي تفعله طوال اليوم؟"

لم أذكر زياراتي إلى غرفة المحرِّك، ولا إثارة رؤية الثياب المبتلَّة على جسد الأسترالية حين تستحمّ.

قالت مجيبة عن صمتي: "لحسن الحظ، أنني استطعت النوم معظمَ الوقت في أثناء عبورنا القناة. الحرُّ شديد جدًّا..."

أخذت تلمس جواهرها بأصابعها مجدَّدًا، وباغتتني فكرة أن أبلغ البارون برقم مقصورة راعيتي.

بيْد أنَّ البارون كان قد غادر الباخرة. ترجَّل في بورسعيد وقد رافقته ابنة هكتور دو سِلفا. لقد سمعتُ أحدهم يعلِّق قائلًا أنه كان يواسيها، ولذا حسبت أنه تملَّقها كي تنضمَّ إليه في جرائم مهذَّبة أخرى ويطعمها الكعك إلى جانب الشاي اللذيذ في خلوة حجرته. كان يحمل حقيبة مسطَّحة لعلَّها حوت أوراقًا قيِّمة وربَّما حتى صورة الآنسة دو سِلفا نفسها، التي كنت أعرف أنها بحوزته. أومأ إليَّ إيماءة وداع من أعلى مِعْبَر الباخرة ولكزني كاسْيَس، كنت قد أخبرته عن تورُّطي في السرقات، مُهوِّلًا أهمية دوري. تحرَّكت وريثة دو سِلفا بقربه في غلاف من الصمت. لعلَّ ذلك كان الألم. أو هل نوَّمها سحرُ البارون

مغناطيسيًّا؟

نحن أنفسنا لم نذهب إلى الشاطئ في بورسعيد. بقينا لنشاهد الرجل المشعوذ ورأيناه من درابزين الأُوزُونسَي يصل بقارب وبدأ بسحب الدَّجاج من كُمَّيْه وسرواله ومن تحت قبعته. عطس، وسحب طائر كناري من أنفه وأطلقه في هواء الميناء. كان القارب يترجَّح على الماء تحتنا والرجل يقفز عاليًا وسافلًا من الألم، حين كشف ديك رأسه الممشَّط من مقدِّمة سرواله. ثم دعانا إلى مشاهدة ثعابين تسقط من كُمَّيْه. أخذت تلتفُّ في دائرتين مكتملتين حول قدميه دونما انزعاج والقطع المعدنية تتساقط على القارب.

غادرنا بورسعيد باكرًا في الصباح التالي. قاد قبطان زورقًا بخاريًّا، صعد إلى ظهر الباخرة وراح يوجِّهنا إلى خارج الميناء. بمسلكه اللَّامبالي كان شبيهًا بالرجل الذي قادنا عبر القناة بصفيره وصياحه. لقد تخيَّلتهما توأمين، أو أخوين على الأقل. بعد أن أنجز القبطان مهمته، ابتعد عن البرج، وخُفَّاه اللذان يساويان روبيتين يفرقعان تحت كعبيْه، ونزل إلى زورقه الذي رافقنا خارجًا. من الآن فصاعدًا سيصبح قباطنة الموانئ أكثر احتفاءً. في مرسيليا ركب أحدهم متن الباخرة وعليه قميص طويل الكمين وسروال أبيض وحذاء مُبيَّض. كان بالكاد يحرِّك شفتيه وهو يهمس بالتعليمات لجلب الباخرة إلى الميناء. كان القباطنة الذين ألِفْتُهم يرتدون سراويل قصيرة وقلَّما كانوا يخرجون أيديهم من جيوب سراويلهم. كان طلبهم الأول عادة شرابًا منبِّهًا وفطيرة طازجة. سأفتقد روح تسكُّعهم، الطريقة التي يبدون فيها مثل مهرِّجين أساسيين يشعرون أنَّ بإمكانهم التَّنزُّهَ بأمان والتَّصرُّفَ كما يحلو لهم ساعة أو ساعتين في بلاط ملك أجنبي. بيْد

أننا الآن ولجنا المياه الأوروبية.

في بورسعيد أيضًا تَرَكَنا السيد مازابا. انتظرتُ عودته على مِعْبَر الباخرة، حتى بعد طيِّه وإبعاده. كانت الآنسة لاسْكِتِي إلى جانبنا أيضًا، بيْد أنها انسلَّت بصمت حين بدأ ناقوس المغادرة يقرع بلا نهاية، مثل طفل لحوح. ثم فُصِل المِعْبَر عن الرصيف.

أدركتُ متأخِّرًا فقط أنَّ السيد مازابا والآنسة لاسْكِتِي كانا صغيرين في السِّنّ. لا بد أنهما كانا في ثلاثينيَّاتهما ذلك العام حين اختفى من باخرتنا. كان ماكس مازابا أكثر أشخاص مائدة القط جَذَلًا إلى أن حان موعد مغادرتنا عدن. لقد جَمَعَنا حول المائدة بفظاظة مرِحة مُصرًّا على أن تَضُجَّ بالأصوات. كان صريحًا حتى عندما يهمس بشيء مريب. لقد أرانا أنَّ المرح يوجد في الكبار كذلك، مع أنني كنت أعرف أنَّ المستقبل لن يكون أبدًا دراميًّا وبهيجًا ومخاتلًا مثلما صوَّره وغنَّاه لي ولكاسْيَس ورام الدِّين. كان هُوْمَرِيًّا بقائمة مفاتنه الأنثوية، وكذلك بعيوبه، وبأفضل مقطوعات البيانو وأغاني الحُب غير المتبادَل، والأفعال غير القانونية، والخيانات، وطلقات النار من موسيقيين يدافعون عن شرف عزفهم الذي لا عيب فيه، مع إمكانيته أداء رقص كامل في حلبة الرقص والصياح بكلمة "بصل!"[46] في أثناء فاصلة موجزة في مقطوعة جاز يؤدِّيها سِدني بيشَيْه. وسيكون هناك دومًا رجال يتهجَّون اسم (إيجبت)[47]. يا لها من حياة رسمها لنا في لوحة!

وإذن، لم نفهم ولم يسعنا أن نفهم ما الذي كان يجتاحه سرًّا. بدا أنَّ شيئًا مظلمًا اخترق حياة مُناصِر بيشَيْه العظيم. ما الذي

---

(46) Onions أغنية لسِدني بيشَيْه.

(47) Egypt: Ever Grasping Your Precious Tits

لم أفهمه في السيد مازابا؟ أوَلم أشعر بدقة بالصداقة النامية بينه وبين الآنسة لاسْكِتِي؟ في أثناء نقاشنا في غرفة المُولِّد اخترعنا قصَّة حُبٍّ عظيمة؛ طريقة اعتذارهما المهذَّبة بين أشواط تناول العشاء واختفائهما على ظهر الباخرة للتدخين. يكون هناك ضوء في الخارج، ولذا يكون بإمكاننا رؤيتهما متكئَيْن على الدَّرابزين الخشبي، يتبادلان ما تيسَّر لهما من حِكَم يعرفانها عن العالم. مرَّةً غطَّى كتفيها العاريين بِسُترته. قال عنها: "في البداية حسبتها من السيدات المُتثاقِفات."

بعد يوم أو يومين من ترك مازابا الأُورُونسَي كانت هناك إعادة تقييم له. لِمَ كان بحاجة إلى اسمَيْن مثلًا؟ وأُثير مجدَّدًا موضوعُ أنَّ له أبناءً. (أحدهم أثار على مائدتنا "حديث رضاعة الثدي.") ولذا بدأت أتعجَّب إن كان هؤلاء الأبناء قد سمعوا النِّكات والنصائح نفسها التي أُسمِعنا إيَّاها. كما أوحى بأنَّه قد يكون رجلًا من الصنف الذي لا يكون مرِحًا إلا عندما يكون حُرًّا، بين هذه النقطة وتلك على اليابسة. أضافت الآنسة لاسْكِتِي قائلة بهدوء: "أو لعلَّه تزوج مرَّاتٍ عدَّة، وعندما يفارق الحياة ستكون هناك أرامل عديدات في الوقت ذاته." تعلَّقنا بالصمت الذي أعقب تعليقها متعجِّبين إن كان قد عرض عليها الزواج أيضًا.

توقَّعتُ أن يصيبها الانهيار بسبب رحيل السيد مازابا وأن تبدو شاحبة عند جلوسها إلى مائدتنا. بيْد أنَّ الآنسة لاسْكِتِي أصبحت مع تقدُّم الرحلة أكثر الأشخاص غموضًا وإدهاشًا بين رفاقنا. كنَّا نرى دعابة خبيثة في تعليقاتها وأقبلت علينا وواستنا على افتقادنا السيد مازابا قائلة أنها تفتقده أيضًا. لقد كانت كلمة "أيضًا" ما جعلنا نشعر بأهميتنا. أدركتُ أننا بحاجة إلى الأسطورة المستمرة عن صديقنا

الغائب، وأخبرتنا ذات أصيل وهي تحاكي صوت السيد مازابا بأنَّ زواجه الأوَّل انتهى حقًّا بخيانة. كان عائدًا إلى المنزل على نحو غير متوقَّع ليجد زوجته مع موسيقي، وأسرَّ إلى الآنسة لاسْكِتِي قائلًا: "لو كنت أحمل مسدسًا لأطلقت عليه النار في قلبه، بيْد أنَّ كلَّ ما كان هناك في الحجرة قيثارته." ضحكتُ من القصة، ولكننا لم نفعل.

أردفت: "لقد كنت مغرمة بمسلكه الصِّقِلِّيِّ، حتى طريقته في إشعال سيجارتي، الامتداد الطويل لذراعه، وكأنما يشعل فتيلًا. لقد خالَه بعضهم مفترسًا، ولكنَّه كان رجلًا لطيفًا. تكمن الموهبة في اختياره الكلمات، وفي إيقاعها. أعرف أقنعة وشخصيات. إنني اختصاصيَّة فيها. لقد كان ألطف مما بدا." حين سمعنا هذا الحديث منها حسبنا مجدَّدًا أنَّ ثمَّة عاطفة بينهما. كانا توأمَي روحٍ قطعًا، طريقتها في الحديث عنه، بالرَّغم ممَّا قالته عن "أرامِله العديدات في الوقت ذاته" أو حتى بسبب ذلك. لعلَّهما سيستأنفان الاتصال عبر خدمة البرقيَّات في الباخرة، وقد سجَّلتُ ملحوظة لأسأل السيد تولرُوي عن ذلك. كما أنَّ المسافة من بورسعيد إلى لندن لم تكن بعيدة جدًّا.

وبعد ذلك لم يكن ثمَّة مزيد من الحديث عن السيد مازابا. حتى من جانبها. احتفظت بذلك لنفسها. معظم الأصائل كنت ألمحها لمحًا خاطفًا في ظلال السطح (ب)، على مقعد من مقاعده. كان دومًا بحوزتها نسخة من "الجبل السِّحريّ"[48]، ولكن ما من أحد رآها تقرأها. كانت الآنسة لاسْكِتِي تستهلك في الأغلب روايات الجرائم التي بدت أنها دومًا تصيبها بخيبة أمل. أشكُّ أنَّ العالم في نظرها عَرَضِيٌّ أكثر من حبكة أيِّ كتاب. مرَّتين رأيتها منزعجة جدًّا من لغز

---

(48) رواية للكاتب الألماني تومَس مان.

جعلها تنهض شبه واقفة من مقعدها المظلَّل وتلقي بالكتاب من فوق الدَّرابزين إلى البحر.

سَنِل، صاحب العقل الحيدر آبادي، الذي كان جزءًا من فرقة جانكُلا، أصبح كثيرًا ما يُرى الآن برفقة إمِلِي. أحسب أنَّ ذاته الراشدة هي ما فتن قريبتي وأغراها. لقد كنت أستطيع دائمًا معرفة سَنِل من مسافة؛ نحوله، مشيته البهلوانية. عندما كنت أرقبهما كنت أرى يده تتحرَّك صاعدةً فوق ذراعها لتختفي تحت كُمِّها فيمسكها بطريقة متحكِّمة طوال الوقت وهو يتحدَّث عن تعقيدات عالم لا بدَّ أنها رغبت فيه.

ولكن بحلول الوقت الذي انزلقت فيه باخرتنا على جانب ميناء بورسعيد لم يبدُ أن كلًّا منهما كان مرتاحًا لرفقة الآخر. كان يتحدَّث إليها وهما يسيران وذراعه النحيلة القويَّة تومئ لإقناعها بشيء ما، ثم، يحاول، على نحو زائف، جعلها تضحك عندما يرى غياب اهتمامها. إنَّ صبيًّا في الحادية عشرة، يمكنه كأيِّ كلب خبير، قراءة إيماءات أولئك الذين حوله، باستطاعته رؤية السُّلطة في علاقة ما وهي تروح وتجيء. كانت السُّلطةَ الوحيدةَ التي تتمتَّع بها إمِلِي جمالُها، شبابُها، في ما أظن، وربما شيءٌ لم تكن تدرك حتى إنه بحوزتها. وكان هو يحاول القبض على هذه الأشياء بالجدال، أو إن فشل، يقوم بتحريك الأجسام القريبة على نحوٍ بهلواني أو بالوقوف على ذراع واحدة.

حتى إن لم تكن إمِلِي برفقته لكنت فضوليًّا إزاءه.

جلستُ على بعدٍ متساوٍ من ثلاث موائد في صالة الطعام. كان هناك زوجان فارعا الطول مع طفل صغير جالسين إلى إحداها، وإلى الثانية جلست نسوة يتهامسن، وفي مكان آخر كان هناك رجلان عابسان. كنت مطرقًا، كنت أتظاهر بالقراءة. أصخت السمع. تخيَّلت أذنيَّ تشيران إلى الزوجين والطفل. كانت المرأة تخبر الرجل عن آلام في صدرها. ثم سألَته كيف كان نومه. وأجاب: "لا فكرة لديّ." وعند المائدة الثانية قالت إحدى النساء الهامسات: "لذلك سألته: كيف يكون مثيرًا للشهوة الجنسية ومُلَيِّنًا؟ وقال: حسنًا، كل شيء يكمن في التوقيت." وعند المائدة الثالثة لم يكن يحدث شيء. أصغيت من جديد إلى الزوجين الفارعي الطول مع الطفل، طبيب وزوجته. كان يعدِّد بعض المساحيق التي يمكنها استخدامها.

حيثما أكون أفعل ذلك، منذ أن قالت الآنسة لاسْكِتي: "عليك أن تبقي عينيك وأذنيك مفتوحة. هنالك علمٌ في الخارج." وواصلت تعبئة دفتر الامتحان من مدرسة القدِّيس تومَس بأشياء سمعتُها.

دفتر الامتحان: أحاديث سُمِعت خِلسةً،

من اليوم الثاني عشر إلى الثامن عشر

"ثِق بي، يمكنك ابتلاع الإسترِكنين دون مضغه."

"جاسبر ماسكلين، المشعوذ، أعدَّ كل العمل "الهُراء" في الصحراء في أثناء الحرب. لقد صار في الواقع مشعوذًا بعد انتهاء الحرب."

"يُمنَع منعًا باتًّا إلقاء أي شيء من الباخرة يا سيدتي."

"إنه أحد المفترسين الجنسيين على الباخرة. ندعوه "الباب الدَّوَّار."

"لا يمكننا الحصول على المفتاح من (غِفْز)..." "علينا الحصول عليه من (بِريرا) إذن." "ولكن من هو بِريرا؟"

ظلَّ أولئك المجتمعون إلى مائدة القط جزِعين على رحيل السيد مازابا، ولهذا السبب نظَّم السيد دانيَلْز عشاءً غير رسمي لأعضائها إضافةً إلى بعض الضيوف الآخرين. كان عليَّ أن أدعوَ إمِلي التي سألت إن كان يمكنها اصطحاب صديقتها أسونتا. بدت إمِلي تأخذ الفتاة الصَّمَّاء تحت جناحها أكثر فأكثر. كما دُعِيَ الأيروفيدي الذي بقي عاطلًا عن العمل منذ موت هكتور دو سِلفا. غالبًا ما نراه هو والسيد دانيَلز يتنزَّهان على أسطح الباخرة وينخرطان في حديث مفعم بالحيوية.

اجتمعنا كلُّنا في غرفة المُولِّد وسرعان ما أخذنا ننزل واحدًا تلو الآخر السُّلَّمَ المعدني المفضي إلى الظلام. كان فقط رام الدِّين وكاسْيَس وأنا والأيروفيدي من قام بالرحلة إلى "الحديقة"، بيْد أنَّ بقيَّة المجموعة لم تكن لدى أفرادها فكرة عن المكان الذي هي ذاهبة إليه وكان يتمتم بعضُهم لبعض. حين بلغنا الطابق السفلي أخذ السيد دانيَلْز يسرع مجدَّدًا نحو عالم العنبر الأجوف والغامض. كان هناك ضحك مكتوم ونحن نعبر الجداريَّة التي تصوِّر النساء العاريات. ومن هنا كان على كاسْيَس أن يعرفها حقَّ المعرفة. ذات يوم، بطريقة

ما، تمكَّن وحده من الدخول إلى العنبر، دفع صندوقًا أمام الجداريَّة وصعد فوقه بحيث أصبح في مستوى تلك الأجساد الضخمة. طوال الأصيل وقف هناك على ذاك النحو في شبه الظلمة.

وجَّهنا السيد دانيَلْز إلى الدخول، وحين انعطفنا رأينا أمامنا حديقته ومائدة مغطَّاة بالطعام. توقَّفت التمتمة كلُّها. حتى إن موسيقى كانت هناك في مكان ما. لقد استُعِير حاكي الفونوغراف الخاص بالآنسة كوين كاردِف مرَّةً أخرى، وهذه المرَّة من العمَّال المشتغلين في جانب الماء الذين كانوا يعملون في جانب آخر من العنبر، وهكذا بدأت إمِلِي تختار من كومة الأسطوانات تسجيلات عديدة ذات سرعة 78 دورة في الدقيقة. أُخبِرنا بأنَّ السيد مازابا ترك لنا بعضها. سار بعض الضيوفِ على المسارات المحدَّدة جنبًا إلى جنب مع السعف الأخضر، وكان الأيروفيدي يشرح – كأنَّما سرًّا، وكانت هذه طريقته في التَّحدُّث دائمًا – أنَّ حمض (الأُكزَليك) المستخرج من فاكهة النجمة كان يُستخدم لتلميع الأجسام النحاسية في المعابد. إمِلِي، التي كانت تتوق إلى الرَّقص، أخذت أسونتا الصامتة بين ذراعيها وراحت بثوبها الأصفر تميس مع الموسيقى وتتحرَّك في المعبر الضَّيِّق، وكأنها هي نفسها نجمة.

حينما أفكِّر في كل وجباتنا في الأُورُونسَي لا تكون الصورة الأولى قَطُّ قاعة الطعام الرسمية حيث وُضِعنا في مكان بعيد جدًّا عن القبطان في أكثر المواقع غير المرغوب فيها، بل تلك البقعة المستطيلة المضاءة في مكان ما من أحشاء الباخرة. قُدِّم لنا عصير التَّمر الهندي الذي ارتبت بوجود مقدار من الكحول فيه. كان مُضِيفُنا يدخِّن واحدة من سجائره الخاصة، ولاحظت أنَّ الآنسة لاسْكِتِي التي انحنت لتفحص نبتة بطول الرُّكبة قد رفعت رأسها واستنشقت الهواء.

تمتمت وهي تُقبِل على السيد دانيَلْز: "أنت رجل معقَّد، يمكنك أن تُسمِّم طاغية ببعض هذا النَّبات البريء المظهر." في ما بعد، عندما كان السيد دانيَلْز يصف فُلَيْفِلَةً مضادَّة للبكتيريا وشجرة بابايا يمكن استخدامها لتكسير الجلطات الدموية بعد الجراحة، وضعت يدها على كُمِّه وأضافت قائلة: "أو يمكن أن يستخدمك مستشفى (غايْز)[49]." الخيَّاط، السيد غُونِسْكِرا الهائم بيننا كشبح، أومأ موافقًا ولكنه كان يفعل ذلك عند كل تعليق يسمعه مصادفةً، لأنَّه ينقذه من الحديث. راح يراقب في حين وقف مضيفنا مع الأيروفيدي وأشار إلى العناقيَّة المدغشقرية[50] (للسكري وسرطان الدم، قال)، ثم قطف عددًا من الليمون الإندونيسي المُرّ، "الفاكهة المعجزة" كما أطلق عليها، التي سيقدِّمها لنا بعد قليل.

وهكذا جلسنا للأكل إلى مائدة قِطٍّ جديدة. كانت المصابيح المعلَّقة تترجَّح فوقنا، كان في ذلك المساء على نحوٍ ما نسيمٌ في العنبر، أم أنه كان موج البحر؟ خلفنا أوراق سوداء من نبات القَلَم وقَرْع أسود. على المائدة أوانٍ مائيَّة بها أزهار مقطوفة، وتجلس قبالتي قريبتي، يستريح ذراعاها على المائدة، وقد بدت ملامحها متحمِّسة في الضوء الوامض. جلس إلى جانب منها السيد نِفل. امتدَّت يداه الضخمتان اللتان فكَّكتا السفن في السابق إلى آنية وهزَّها برفق، فانقلبت أزهارها في الماء تحت الضوء المتمايل للمصباح. لقد كان مثلما هو دائمًا، مرتاحًا في صمته، غير مبال بأن لا أحد يتحدَّث إليه. مالت إمِلِي بعيدًا عنه لتهمس للفتاة الشريدة. فكَّرت الفتاة لحظة ثم

(49) أحد مستشفيات الخدمات الصحية الوطنية في وسط لندن.

(50) نوع من النبات المتعرِّش يستخدم عقارًا.

همست سرَّها في أذن إمِلِي.

كانت وجبة لم يتعجَّل فيها أيٌّ منَّا. بدا وجه كل منَّا مظلمًا ومهجورًا إلى أن مِلنا إلى الأمام واقتَنَصَنا الضوء. كان كلٌّ منَّا يتحرَّك ببطء وكأننا نصف نيام. أُعيد تشغيل الحاكي ومُرِّر الليمون الإندونيسي على المائدة.

قال السيد دانيَلْز بهدوء: "للسيد مازابا."

أجبنا: "وللمروج المشمسة."

حمل العنبر الكهفي كلماتِنا، ولم يتحرَّك أحد إلى حين. كان هناك فقط صوت موسيقى الحاكي المستمرة، وتنفُّس الساكسفون البطيء. غشاوة باهتة مضبوطة بعدَّاد في مكان ما، حطَّت عشر ثوان تقريبًا على النبات والمائدة، وعلى أذرعنا وأكتافنا. لم يَحْمِ أيٌّ منَّا نفسه منها. انتهى التسجيل وسمعنا الخدْش المتكرِّر للإبرة ينتظر أن يُرفَع. كانت الفتاتان أمامي تتهامسان جيئة وذهابًا ورحت أراقبهما وأصغي إليهما عن كثب. ركَّزتُ في فم قريبتي الملوَّن بأحمر الشِّفاه. استطعت أن أسمع كلمة من هنا وهناك. "لماذا؟ متى حدث؟" هزَّت الفتاة رأسها. أظن أنَّ الفتاة قالت: "تستطيعين مساعدتنا." أطرقت إمِلِي ولم تقل شيئًا حينًا من الوقت، مستغرقةً في التفكير. كان ثمَّة خندق الظلمة هذا بين جانب واحد من المائدة وبين الجانب الآخر، وكان يمكنني رؤيتهم من خلاله من الجانب الآخر. كان ثمَّة ضحك في مكان ما، لكنني كنت صامتًا. لاحظت السيد غُونِسْكِرا ينظر إلى الأمام أيضًا.

همست إمِلِي مفاجأةً: "أهوَ والدُكِ؟"

حرَّكت الفتاة رأسها موافقة.

أسونتا

لم تحدِّث أحدًا في الباخرة عمَّا فعله والدها. تمامًا مثلما فعلت عندما كانت صغيرة، لم تكن لتكشف أو تعلن مكانه أو ما كان يفعل. حتى عندما اعتُقِل واقْتِيْد إلى سجنه الأول. كان لصًّا وحسب حينذاك، رجلًا يعمل في تجارته، على حافَّة القانون. لقد تطوَّر من كونه شابًّا واثقًا مثيرَ متاعب.

كان نصفه آسيويًّا، ونصفه الآخر كان شيئًا آخر. لم يكن على يقين ممَّا كان نصفه الآخر. لعلَّه ورث الاسم نِيمَيِر أو سرقه أو ابتدعه. حينما أُخِذ إلى السجن لم يترك للزوجة والطفلة حتى روبيَّة واحدة. بدأت الزوجة تفقد عقلها، وسرعان ما وجدت الطفلة أنَّ أمَّها لم تعُد جديرة بالثقة. تبقى صامتة ولا يمكن التَّحدُّث إليها، أو أنها تصبُّ جام غضبها على أي شخص، حتى على الابنة الصغيرة. حاول الجيران إعانتهم بالقوت، بيْد أنها انقلبت على الجميع. بدأت تؤذي نفسها. كانت الفتاة في العاشرة من عمرها وحسب.

أقلَّها أحدهم ومضت إلى سجن (كالُوتارا). سُمِح لها بأن ترى أباها. تحدَّثا وأخبرها باسم أخته التي تعيش في المقاطعة الجنوبية. كان اسمها (باسيبيا). لم يَبدُ أنه كان ثمَّة شيء آخر يفعله الأب

للمساعدة. هذا الاسم وحسب. كان نِيمَيِر في السادسة والثلاثين حينها. رأته ابنته محاصرًا بزنزانة السجن، لا يزال رشيقًا، بيْد أنَّ جميع إيماءاته الطبيعية كانت ساكنة. لم يسعه معانقتها من خلل القضبان. القضبان التي كان سيدهنها بالزيت بنفسه كونه لصًّا كي يتمكَّن من الانزلاق عبرها. ولكنَّه ما زال قويًّا في نظرها، وهو يتحرَّك إلى الأمام والخلف بصمت فعَّال مثل صوته الهادئ ذاك الذي يبدو وكأنه سيقفز عبر الفضاء ويخترقك كهمْس.

بيْد أنَّه كان من الصعب على أسونتا الذهاب إلى المنزل. رحلتها كانت في أثناء حلول يوم ميلادها الحادي عشر. تذكَّرته بغتةً وهي تقطع الثلاثين ميلًا أو نحو ذلك من كالُوتارا. لم تكن أمُّها في الكوخ ولا في أي مكان في القرية. لقد تركت شيئًا صغيرًا، هديَّةً مغلَّفةً بورقة نبات، سِوارًا مزخرفًا جزئيًّا بالخَرَز ذا شريط جلدي بني. رأت الفتاة أمَّها تخيط الخرز عليه في الأسابيع الأخيرة القليلة المجنونة في بعض الأحيان. ربطته حول معصمها الأيسر. عندما أصبح معصمها أكبر منه أخذت تضعه على شعرها.

كلَّ ليلة كانت الفتاة تبقى وحيدة في البيت، تنتظر عودة أمِّها، بالكاد تشعل مصباحًا، فلم يكن هناك إلَّا ربع بوصة من الوقود. عندما يهبط الليل تنام، تستيقظ في الليل المتأخِّر وليس ثمَّة من شيء تفعله حتى شروق الشمس. كانت تضطجع على فراش القشِّ وترسم خريطة الرِّيف في رأسها وتخطِّط ذهابَها في اليوم التالي بحثًا عن أمِّها. يمكن أن تكون في أي مكان، مختبئةً في قرية مهجورة أو عند ضفة نهر حيث تتدلَّى الأشجار فوق الماء الجاري سريعًا. كان ممكنًا أن تكون أمُّها قد انزلقت إلى قاع النهر في غمرة كرْبها أو أنها أخفقت في محاولة

يائسة في خوض البحيرة. كانت الفتاة تخشى أيَّ تجمُّع للمياه، فتحت السطح يمكنك أن ترى الظلمة في الأسفل وهي تحاول بلوغ الضوء.

توقظها أصوات الطيور وتغادر الكوخ لتبحث عن أمِّها. طرح عليها الجيران أن يؤووها في بيوتهم، ولكنَّها دائمًا ما كانت في الليل تقفل إلى الكوخ. قالت لنفسها أنها ستستأنف البحث أسبوعين آخرين. ثم بقيت أسبوعًا آخر. كتبت أخيرًا رسالة على لوح علَّقته على الجدار فوق فراش أمِّها، وخرجت من بيتها الوحيد.

مضت نحو الداخل وجنوبًا، وعاشت تقتات على ما يسعها العثور عليه من فاكهة وخضروات. بيْد أنَّها كانت تتوق إلى تناول اللحم. تسوَّلت بعض الطعام مرَّات عدَّة من أحد البيوت وأُعطيت عَدَسًا. لم تخبرهم بقصتها، قالت فقط أنها كانت تسافر منذ أسبوع. مرَّت بنُسَّاك حاملين قصعاتهم المرفوعة، ومرَّت بمَزارع جوز الهند حيث يقف الحرَّاس عند المداخل ويجلب لهم الطعام شخصٌ ما يقود درَّاجة. وقفت قريبًا من هؤلاء الحرَّاس وأخذت تتحدَّث إليهم حتى تستنشق رائحة الطعام الذي كانوا يأكلونه مباشرة أمامها. في إحدى القرى تعقَّبت كلب صيد في الأزقة الخلفية لتحصل على بقايا طعام أُلقي به من باب مطبخ ما. وجدت فاكهة كاكايا مُقطَّعة، فراحت تأكل الكثير من تلك الفاكهة الشبيهة بالتويجة حتى أُتخِمت، ثم اجتاحتها حمًّى مباغتة. هبطت إلى ضفة نهر وبقيت متعلِّقة بغصن شجرة هناك كي تتخلَّص من حرارة الحُمَّى. كان قد مضى على ترحالها أكثر من ثمانية أيام عندما رأت أربعة رجال يحملون ترامْبُولين في الطريق. عرفت أين كانت. أخذت تتبعهم عن كثب إلى أن استداروا أخيرًا وسألوها عمَّن تكون. لم تقل شيئًا. أخذت تتوانى ولكنها لم تضيِّع

أثرهم حتى عندما بدأوا يعبرون حقلًا واختفوا فوق تلٍّ منخفض. وهكذا اكتشفت الخيام. سألت عن باسيبيا وقادها رجل نحيل إلى امرأة. تلك كانت أخت أبيها.

***

بطريقة ما بدت شبيهة به. كانت باسيبيا أيضًا تتحرَّك مثل حيوان. كانت فارعة الطول، وبدت أكثر غلظة من والد الفتاة في طريقة معاملتها الرجال والنساء حولها. كانت مسؤولة عن سِيرك ريفي صغير، وحافظت عليه متماسكًا بقواعد صارمة. مع ذلك، كانت معاملتها الفتاة مختلفة. لقد حملت أسونتا بين ذراعيها وانصرفت عن الممثِّلين بعيدًا صوب بعض الأشجار الشَّوكيَّة. أخذت تمرِّر أصابعها خلال شعر الفتاة مُنصتةً إلى ابنة أخيها وهي تخبرها عن لقائها أبيها في السجن، واختفاء الأم، واشتهائها اللحم أكثر من أي شيء آخر. لقد التقت باسيبيا الأمَّ مرَّات عدَّة، فأومأت، حذِرةً من أن تدع الفتاة تعرف ما كانت تفكِّر فيه. وأخيرًا، حين اعتقدت أنَّ كلَّ شيء على ما يرام أنزلت الفتاة.

أخذت أسونتا إلى كلِّ خيمة من الخيام. كانت جوانبها مطويَّة إلى الأعلى بسبب حرارة الأصيل، ورأت الفتاة البَهَالين نائمين تحت ضوء النهار مواجهين الريح الآتية من الساحل من خلال الجوانب المفتوحة. بالرَّغم من حقيقة أنها كانت ترتحل وحيدة أسبوعًا على الأقل، كانت ما تزال غير متيقِّنة من المكان الذي جاءت إليه. بيْد أنَّ العمَّة اعتقدت أنها لم تكن متوترة على نحو طبيعي. لقد كانت

ابنة أبيها، أليست كذلك؟ جلست الفتاة إلى جانب باسيبيا طوال الأيام الأولى مُعرقِلةً استعداداتها. سيكون هناك بعض العروض في الأيام القليلة القادمة في قرية (بِدِغاما). ثم ستتحرَّك الفرقة. قرية جديدة في المقاطعة الجنوبية كل أسبوع. وإلا افتُتِن عازفوها بالفتيات المحلِّيَّات وتركوا الفرقة. لم يكن لدى العازفين الكثير لفعله، بيْد أنَّ نفخهم بالأبواق أساسي في أيِّ سِيرك.

بسبب عرقلة الفتاة أخذت باسيبيا تتمرَّن قبل طلوع الشمس، وكان باستطاعة أي شخص مستيقظ سماع ارتداد الترمبولين ورؤية باسيبيا في الغبش وهي تتقلَّب في الهواء وتَحُطُّ على ظهرها أو ركبتيها، ثم تقفز عاليًا مرَّةً أخرى بعيدًا في الظلام. مع شروق الشمس تكون مغطَّاة بالعرق فتسير إلى بئر أحد المزارعين وتسحب الدلو المربوط إلى الحبل لتسكب الماء على جسدها مرارًا وتكرارًا. كانت ثمَّة دائمًا تلك المتعة الفريدة عند البئر. تمشي عائدة بزِيِّها المُبتلّ، الذي سيجفُّ في الشمس، إلى الخيمة حيث تكون الفتاة قد استيقظت. بدا أنَّ ما كانت تملكه باسيبيا من استقلال قد تلاشى. لم تتزوَّج قطُّ، ولا أطفال لها، ولكن هناك الآن هذه الفتاة التي عليها أن تتحمَّل مسؤوليتها إلى أن يعود أخوها.

ثمَّة قصَّة، دائمًا ما تسبقك. لا تكاد توجد. لا تربط نفسك بها ولا تُغَذِّها إلَّا شيئًا فشيئًا. إنك تكتشف القوقعة التي ستحتوي شخصيتك وتختبرها. بهذه الطريقة تعثر على مسار حياتك. وهكذا، في غضون أسابيع قليلة أصبح بإمكان المرء رؤية الفتاة أسونتا في الهواء، تحملها ذراع ممتدَّة، ثم تلقيها صوب قبضة يد أخرى، فتترجَّح

إلى الأسفل في الوقت ذاته من شجرة أخرى. لقد كانت لها عظام أبيها الخفيفة القوية، وهناك خلف مخاوفها الأولى طبيعة مكتفية بذاتها. كان عليها أن تتخفَّف من نفسها حتى تتيح مجالًا للثقة. باسيبيا ستساعدها. كانت باسيبيا أيضًا مفعمة بالاكتفاء بذاتها مرَّةً، حين كانت أحد أولئك الأطفال الذين يبدو عليهم الذُّهول ويحملون غضبًا بداخلهم، وقد أخاف ذلك أبويها وأصدقاءهما. بيْد أنَّ البَهَالين بحاجة دومًا إلى الثقة بالرفقة المحيطة بهم.

كان السّيرك يُقام على امتداد أيِّ طريق في القرى التي تحدُّها الأشجار. في الأصيل المتأخِّر حين لا يكون الطقس حارًّا جدًّا، كان القرويون يجلبون حُصُرَهم ويجلسون على الطريق المسفلت ولكن قبل أن تطول ظلال الأشجار فتربك رؤية المُمثِّلين. ثم ينبعث صوت أبواق، بعضه من أعماق الغابة، وبعضه على نحو سحري من فروع الأشجار العالية حيث يكون البوَّاق. وهناك رجل يبدو وكأنه يحترق، وجهه ملوَّن كوجه طائر، ينزلق إلى الأسفل على حبل، ناظرًا إلى رؤوس المشاهدين والدُّخان يترك أثرًا وراءه، يلتقط حبلًا آخر ويترجَّح بهذه الطريقة مبتعدًا على امتداد الطريق الممتلئ بالجمهور. هناك أصوات قيثار وصفير تصدر حتى يختفي الرجل الملوَّن في شجرة ولا يُرى مرَّة أخرى أبدًا.

ثم تخرج بقيَّتُهم، بثياب ملوَّنة مبقَّعة ورثَّة، ويقضون الساعة التالية قافزين من الأشجار إلى الفضاء المفتوح، فتمسك بهم أذرع الآخرين الذين يبدون وكأنهم قد سقطوا من مرتفعات أعلى. رجل مغطَّى بالطحين يسقط فوق الترمبولين الرئيس ثم ينهض وسط غبار الطحين الذي يخلِّفه وراءه. رجال يمشون على حبال مشدودة

تمتد من شجرة إلى أخرى، حاملين دلاء مترعة بالماء، ينزلقون في الهواء ويتعلَّقون بيد واحدة فقط ثم يسكبون المحتوى على الحشد. تارةً يكون ماءً وتارةً نملًا. في كل مرَّة يتقدَّم رجل على الحبل، يحذِّره الطَّبَّال من الخطر والمصاعب، ويزعق البوَّاق ويضحك مع الحشد. وفي نهاية المطاف يقع الرجل السائر على الحبل أرضًا. يلتفُّون على أجسادهم حين يقعون على الأسفلت، ويقفون. يكونون الوحيدين الواقفين حتى ينهض الحشد على قدميه. ينتهي العرض إلا من بهلوان واحد لا يزال في الأعلى، ولا يزال يصيح طالبًا المساعدة فيتدلَّى من حبل على قدم واحدة.

في البداية كانت باسيبيا فقط من يمسك بأسونتا. بيْد أنَّ هذه لم تكن ثقةً. أتى ذلك من الاعتقاد بأنَّه إن لم تتمكَّن هذه القريبة من الإمساك بها في الهواء بأمان، فقد تفقد حياتها بوقوعها على الأرض. أتى الاختبار الأكبر حين ابتعدت باسيبيا عن أسونتا التي كانت على غصن مرتفع، فأمرتها أن تلقي بنفسها إلى غصن آخر. ولأنها تعرف أنَّ الخوف سيشتدُّ بالتفكير والانتظار، تخطَّته أسونتا فورًا. لم يكن ثمَّة في الواقع وقت للقابض أن يتحرَّك إلى الأمام.

وهكذا دخلت الفتاة تلك القوقعة التي كانت بانتظارها. كانت قد أصبحت عضوًا في سيرك يتألَّف من سبعة أشخاص، قطع مقاطعات الساحل الجنوبي، وكانت تقيم في إحدى الخيام الأربع، وطالما حذَّرتها باسيبيا التي كانت تحترس من الموسيقيين الزُّناة. ذات يوم، في منتصف العرض، حين كانت تتعلَّق بالأشجار رأت أباها بين الجمهور المتفرِّق، وترجَّحت إلى الأسفل بيد واحدة إلى المستوى

الذي كان فيه وعانقته، ولم تترك جانبه في ما تبقَّى من العرض. بقي أيَّامًا عدَّة. في الواقع، لمَّا لم يكن ثمَّة شيء يفعله بدا مقلِقًا جدًّا لراحة أسونتا وباسيبيا. ما لبِث أن أدرك أنَّ ابنته كانت في أكثر مكان آمن ينبغي أن تكون فيه. ستكون لها حياتها في هذا السّيرك، مقارنة بالحياة التي عاشتها معه.

لم تفكِّر في المغادرة معه. ومنذ ذلك الحين، في اللقاءات العديدة بين الأب والابنة، بدا الأمر وكأنها الأكبر سنًّا وكأنها تراقبه وهو يتوغَّل في مستويات عميقة من الجريمة. كان يزورها مرَّةً حين يكون في قبضة إدمان تبدو له كأنَّها الجنان، وكانت أسونتا تتجاهله، وراقبته وهو يتَّخذ صديقًا من البهلوان سَنِل، صاحب الوجه الملوَّن كوجه الطائر، وراقبته وهو يضحك مع الشاب محاولًا سحرَه بذلك الصوت.

عجَّت القرية بالقصص عن نِيمَيِر في أثناء الثلاث سنوات التي نادرًا ما رأته فيها، لقد ذاع صيته بوصفه مجرمًا، وتقريبًا كمجرم محبوب. كانت هناك عصابة حوله، بعض أفرادها قتلة، من أولئك الذين كانوا يتردَّدون على عالم السياسة وينسلُّون داخلين إليه وخارجين منه. استمر في حمل ذلك الاسم الأجنبي مثل شارة، أو إهانة للمؤسسة. كان إرثًا سخيفًا ادَّعاه الرجل، لعلَّه أخذه من سلف أوروبي بعيد، ولعلَّه لم يفعل، وهكذا راح هذا "الوريث" يسخر من الاسم ويصرُّ عليه. لم تكن أسونتا ترجو حضوره إلا بين حين وآخر كراحة لها. كانت لديها مخاطرها. كونها بهلوانًا، كسرت أنفها مرَّةً ثم معصمها الذي ما تزال تضع عليه آخر هدية من أمِّها تلك المصنوعة من الجلد والخَرَز.

ثم، عندما أصبحت في السابعة عشرة ونما معها كل ما تحتاج

إليه من مهارة وثقة سقطت سقطة شنيعة. كانوا يتمرَّنون على حادث زائف. قفزت من غصن عال، انطلقت إلى الخارج من جذع شجرة وأضاءت قابضها المقصود فسقطت على الطريق واصطدم جانب رأسها بصخرة عليها لافتة الأميال. حينما استعادت وعيها لم تتمكَّن من سماع ما كانت تقوله لها باسيبيا بإلحاح. أخذت تومئ وتومئ بالرَّغم من الألم مُدَّعيةً فهم ما كانت تُسأل. الخوف الذي كان غائبًا أصبح هناك الآن. وهكذا لم تعُد مفيدة لأولئك الممثّلين الستة الآخرين الذين أصبحوا عائلتها. بعد أشهر، وهي ما زالت لا تسمع، انسلَّت خارجةً من العالم الذي اختارته.

***

عندما أدركت فرقة السّيرك أنها لن تعود أرسلت باسيبيا بحثًا عنها سَنِل الذي تلقَّفها أوَّل مرَّة حين كان عليها أن تضع ثقتها في شخص آخر غير باسيبيا، والذي أيضًا مدَّ يديه باهتياج ليتلقَّفها خلال وقوعها الأخير. دخل كولومبو واختفى. لم تسمع عنه باسيبيا مرَّة أخرى.

كان سَنِل حاضرًا جلسة ما قبل محاكمة نِيمَير عندما رأى أسونتا في صالة محكمة كولومبو المكتظَّة. حين انتهت الجلسة تبعها عن كثب على شارع ضيِّق بحواجز مائلة ثم إلى زقاق أصبح شارع الحدَّادين. شارع (تشيكو). كان مثل زقاق من العصور الوسطى مليء بالحيوية. تابعت المشي، ثم، في مكان ما من شارع (مَسِنْجَر) اختفت. وقف سَنِل ساكنًا تمامًا. عرف أنه حتى إن لم يستطع رؤيتها فقد كان باستطاعتها رؤيته. طالما كانت سريعة الإدراك لما يدور حولها، ولأنَّ

خوفها قد عاد، فإنَّ هذه المهارة تصبح أقوى. كما أنه أصبح ضائعًا الآن. لقد عاش معظم حياته في المقاطعة الجنوبية، لم يعرف المدينة في الواقع. أمسكت يد قويَّة بذراعه. سحبته إلى غرفة بحجم سجَّادة. لم يتكلَّم. عرف أنَّ صمَمَها يحرجها. جلس وكان ساكنًا.

تحدَّثت بصعوبة بكلمات لا تبِين. بدت في حال عديمة الجدوى، فموهبتها لم تعُد لها. بقي في غرفتها المساء كلَّه، لا يدعها تغيب عن ناظريه، وفي الصباح التالي أخذها كما كان مخطَّطًا إلى السجن حيث حُبِس أبوها. عندما سمحوا لها بالدخول لرؤيته انتظرها في الخارج.

مال أبوها إلى الأمام ولفظ اسمًا. قال: "أُورونْسَي." سَنِل وآخرون سيكونون على متن الباخرة نفسها للاعتناء بي. كانت الباخرة متَّجهة إلى إنكلترا وسوف يساعدونه على الهرب. ثم وضع وجهه بين القضبان تقريبًا وواصل التَّحدُّث إليها.

خارج السجن، رأت هيئة سَنِل النحيلة تنتظرها. ذهبت إليه، أمسكت ظهر عنقه وحدَّثته في أذنه، أخبرته بما شعرت أنها تودُّ فعله، وبأنَّ حياتها لم تعُد لها، وإنَّما لأبيها.

البحر الأبيض المتوسط

وقف رام الدِّين في الظلال.

ربضتُ وكاسْيَس في قارب نجاة متدلٍّ في الهواء. وعلى السطح تحتنا كانت إمِلي تهمس للرجل المدعُوِّ سَنِل. لقد حدسنا على نحو صحيح أين يمكن أن يكونا، واستطعنا سماع كلّ كلمة، كان همسهما يكبر في قوقعة قارب النجاة. أي صوت يصدرانه كان يملأ الظلام حولنا، في أثناء انتظارنا هناك في الحرّ الخانق.

"كلَّا، ليس هنا."

قال: "هنا."

صوت حفيف.

"إذن دَع..."

كان يقول: "فمك. حلوٌ جدًّا."

"أجل. الحليب."

"الحليب؟"

"أكلت خرشوفًا في أثناء العشاء. إذا أكلتَ خرشوفًا ثم شربت حليبًا، فإنَّ مذاق الحليب يصير حلوًا.... حتى إن كان هناك نبيذ فإنني أطلب الحليب. إن أكلت خرشوفًا."

لم نفهم ما الذي كانا يتحدَّثان عنه. لعلَّ الحديث كان برموز خاصة. حلَّ صمت طويل. ثم ضَحِك.

قال سَنِل: "عليَّ أن أعود قريبًا...."

أيُّ شيء كان يحدث لم يكن مفهومًا لنا. مال كاسْيَس عليَّ وهمس: "أين الخرشوف؟"

سمعت صوت إشعال كبريت وسرعان ما شممت دخان سيجارتها. بليَرْز نَيْفي كَت.

فجأةً، وكأنهما صارا غريبين بدأ بينهما حديث آخر أكثر احتراسًا. كان مربكًا. حوار الخرشوف تَرَكَنا في مكان مختلف. والآن كان الحديث عن جدول المواعيد، كم من المرَّات يحرس الحارس الليلي سطح التَّنزُّه، الساعة التي يتناول فيها السجين وجباته، ومتى يخرج للتَّنزُّه. "ثمَّة شيء أريدك أن تفعليه،" كان سَنِل يقول، ثم راحا يتهامسان بهدوء.

"هل يمكنه فعل شيء كهذا؟" أصبح صوت إمِلي جليًّا بغتة في الظلام. بدا أنها كانت مذعورة.

"إنه يعلم متى يكون الحرَّاس في راحة أو متعبين. بيْد أنه لا يزال ضعيفًا بسبب الضرب."

"أيُّ ضرب؟ متى حصل هذا؟"

"بعد الإعصار."

تذكَّرنا الآن عندما فوَّت السجين بعض نُزَهِهِ الليلية بعد وقت قصير من مغادرتنا عدن.

"لا بد أنهم اشتبهوا في شيء ما."

اشتبهوا في ماذا؟

كان الأمر وكأنني وكاسْيَس يسمع أحدنا الآخر في الظلام، كانت الآلة البطيئة لعقولنا الصغيرة تحاول التَّكيُّف مع المعلومات الفظَّة.

"يجب أن تكوني على يقين من أن يلقاك هنا. أخبرينا متى سنكون على أهبة الاستعداد."

كانت صامتة.

"سيكون توَّاقًا إليك." قال هذا وضحك. "يجب ألا تثنيه عن الأمر."

خِلْتُ أنني سمعته يذكر اسم السيد دانيَلْز، بيْد أنه بدأ بعد ذلك يتحدَّث عن رجل يدعى "بِريرا"، وبعد حين كنت بالكاد قادرًا على ترك عينيَّ مفتوحتين. عندما غادرا أردت النوم حيث كنت، لكنَّ كاسْيَس هزَّني وصعدنا خارجيْن من قارب النجاة.

السيد غِغْز

لقد كان وجود ضابط إنكليزي على متن الباخرة ذا أهمية ضئيلة للمسافرين في أثناء الجزء الأوَّل من الرحلة. كنَّا نراه يجول على أسطح الباخرة وحيدًا ثم يصعد إلى المِصطبة الضَّيِّقة أمام البُرج حيث يجلس على مقعد قماشي وكأنه مالك الباخرة. ولكن، شيئًا فشيئًا أصبحنا نعرف أنَّ السيد غِغْز كان ضابطًا عسكريًّا رفيع المستوى أُرسِل إلى كولومبو - هكذا تقول الإشاعة - جُمِع وشخصٌ من قسم التحقيقات الجنائية في كولومبو، وإنه يسافر الآن على نحو سِرِّيّ. كلاهما كان مسؤولًا عن مرافقة السجين نِيمَيِر ليخضع للمحاكمة في إنكلترا. وقد قيل أنَّ محقق كولومبو كان يأوي إلى مكان ما في الدرجة السياحية. لم تكن لدينا أيَّة فكرة عن مكان نوم الرجل الإنكليزي. قيل أنَّ له مقرًّا أكثر فخامة.

على مائدة القط أعلن السيد دانيَلْز أنَّ السيد غِغْز شوهد يتحدَّث بغضب إلى الحرَّاس يومًا ما بعد ضرْب نِيمَيِر ضربًا مبرحًا. لا أحد كان متيقِّنًا إن كان غِغْز يتَّهمهم بالوحشية أم أنه كان غاضبًا وحسب من انتشار نبأ الاعتداء. أو ربَّما، مثلما جادلت الآنسة لاسْكِتِي، أنَّ غِغْز كان غاضبًا بسبب أنَّ الهجوم قد يمنح السجين

مخرجًا، ثغرة، في إدانته وعقوبته الوشيكتيْن.

ما لاحظته أكثر في الضابط الإنكليزي كان ذراعيه اللتين كان عليهما شعر غليظ مجعَّد، واللتين وجدت النظر إليهما عسيرًا. كان يرتدي ثيابًا مكويَّة من قميص وسروال قصير وجوربين يصلان إلى ربلة الساق، بيْد أنَّ ذاك الشعر الأحمر كان مزعجًا لي، وفي إحدى حفلات الرقص في الباخرة عندما سعى إلى إمِلي وبدأ يرقص معها رقصة الفالْس استشطت غضبًا بطريقة أبويَّة تقريبًا. وفكَّرتُ أنَّه حتى السيد دانيَلْز كان يمكن أن يكون شخصًا أنسب لقريبتي الجميلة.

حاصرتُ الآنسة لاسْكِتي بأسئلتي عن علاقة السيد غِغْز بالسجين.

"إذا كان السجين قد قتل قاضيًا إنكليزيًّا فإنَّ الأمر جِدُّ خطير. لن يدعوه يخضع للمحاكمة في الجزيرة. عقدوا جلسة، وتنتقل القضية الآن إلى إنكلترا. لِمَ تهتم؟ على أيَّة حال، هذا الرجل غِغْز مسؤول عنه، جنبًا إلى جنب مع محقِّقٍ هو السيد بِريرا، للتيقُّن من وصوله إلى هناك حقًّا. يتمتَّع نِيمَيِر بموهبة الهرب، ربَّما. كان للزنزانة الأولى التي وضعوه فيها باب خشبي، وقد تمكَّن في الواقع من حرقها والهرب، مع أنه أُصيب بحروق في أثناء ذلك. قفز مرَّة من قطار مع حارس كان مقيدًا إليه وكان عليه أن يحمل الرجل المتعثِّر معه إلى أن وجد حدَّادًا. لعلَّه ليس الحلوى الألذّ في الصندوق."

"لِمَ قتل القاضي يا خالة؟"

"رجاء لا تدعوني خالة.... لا أعلم في الواقع. إنني أحاول معرفة ذلك."

"هل كان قاضيًا سيئًا؟"

"لا أعلم. هل هناك شيء من هذا القبيل؟ دعنا لا نفترض ذلك."

انصرفتُ عن هذا الحديث القصير، غير متيقِّن من كيفية افتراض وضع لما كان يحدث. رأيت الآنسة لاسْكِتي تغيِّر وجهتها بغتة وتدنو من السيد غِغْز، ورأيت أنها أثارت اهتمامه وانتباهه بأيِّ ما كان ما تقوله له.

في وجبتنا التالية أخبرتنا جميعًا بما عرفت. بدا أنَّ الباخرة بأكملها قد "فحصها" غِغْز وبِريرا حتى قبل أن يصعد أيٌّ منَّا إلى ظهرها. إنَّ مرافقة السجين تعني أيضًا مراقبة التفاصيل في كل مستوى من مستويات الباخرة. لقد أغلقا كلَّ مسار ممكن للهرب، وأبعدا أيَّ شيء خلاف الأجسام البريئة - دلو من الرمل لتمرين إطفاء الحريق، عمود معدني – من شأنه أن يتحوَّل إلى سلاح. لقد فحصا قائمة المسافرين بحثًا عن أيَّة مجموعة معروفة للسجين. استأجرا حرَّاسًا من جزر المالديف ممن لا صلة لهم بأيِّ شخص في سيلان. لقد قضيا يومين في بحث شامل في الباخرة. والآن أصبحا يقظَيْن إلى حدٍّ بعيد، وهذا كان سبب نقطة مراقبة السيد غِغْز أمام البُرج حيث يمكنه رؤية ما يحلو له من النشاط الدائر على ظهر الباخرة. كما أنَّه أخبر الآنسة لاسْكِتي بأنَّ خطورة الجريمة حكمت مستوى المرافقة: يُفترَض أنَّ السيد بِريرا هو أفضل رجل من مكتب التحقيقات الجنائية في كولومبو، والسيد غِغْز، مع أنه قال ذلك بنفسه، كان أفضل رجل متاح من بريطانيا. ولهذا كانا بمساعدة حرَّاس جزر المالديف يراقبان كل خطوة وإشارة من السجين المدعو نِيمَير.

بِريرا الأعمى

إن كان غِغْز قد أصبح الآن أكثر الأشخاص عرضة للنقاش والمشاهدة في الأُورُونسَي، فإنَّ شريكه في محاولته منع السجين من الهرب كان عرضة للنقاش أيضًا ولكن دونما دليل على الإطلاق. لم نرَ قطُّ السيد بِريرا، ضابط الشرطة الذي من سيلان. فضلًا عن ذلك، فقد كان بِريرا اسمًا شائعًا. كلُّ ما كنَّا نعرفه أنه بِريرا "الأعمى"، من ذلك الفرع العائلي المدعو بهذا الاسم لأنهم كانوا يتهجُّون الاسم دون الحرف "ي"، فقد كان هناك الاسمان بِريرا وبِريِيرا. كان جليًّا أنَّ قسم التحقيقات الجنائية قد عيَّن ضابطًا بثياب مدنيَّة، فإذا كان هناك متآمرون على متن الباخرة فلن يعرفوا أنَّ هناك شخصًا آخر يراقبهم. وهكذا عندما يختال غِغْز في المكان ثم يقف على نحو بارز قرب البرج، يكون نظيره الآسيوي العالي الرُّتبة غير مرئي. كلاهما صعد إلى الباخرة وقام ببحث شامل. ولكن في وقت صعودنا إلى متن الباخرة كان السيد بِريرا واحدًا من رفاقنا المسافرين وحسب، مجهولًا، ولعلَّه مسافرٌ تحت اسم آخر. حتى إنَّ بعضهم بدأ يصدِّق أنه قد يكون هناك شخصان متخفِّيَين تحت اسم بِريرا.

كثيرًا ما تحدَّثنا عن رجل قسم المخابرات الجنائية الغامض.

من كان؟ كيف بدا؟ قضيت وكاسْيَس أصيلًا كاملًا نتعقَّب أية شخصية تبدو غريبة المظهر في تلك الباخرة، باحثَين عن مسلك غير طبيعي. شرحت الآنسة لاسْكِتِي: "هناك ضربان من التَّخفِّي؛ اجتماعي وشخصي. إن كنت متخفِّيًا فإنك تتَّخذ أصدقاء على نحو سريع وإلزامي. تدخل حانة وتتعرَّف كلَّ نادل وساق. تبيع شخصيتك المبتدَعة بأسرع ما يمكن. تعرف الاسم الأول لكل شخص. يجب أن تكون لمَّاحًا وتفكِّر كمجرم. ولكن هناك العاملون المتخفُّون الآخرون الأكثر مراوغة. مثل بِريرا هذا ربَّما. لعلَّه يسعى كالحيَّة. إننا فقط لا نعرفه بعد. غِفْز هو الجانب العلني. وبِريرا، من يدري؟"

يبدو أنَّ هذا البِريرا غير المرئي و"الأعمى" كان سيِّد ما أُطلِق عليه لاحقًا "سيناريو الاصطدام." هذا يحدث عندما يربط شرطي متخفٌّ نفسه بمجرم، يصادقه وفي الوقت ذاته يزرع الخوف داخله بأن يكشف له أنه هو، الشرطي المتخفِّي، أكثر جنونًا وخطورة. تقول النَّميمة أنَّه كانت هناك حالة عندما سار بريرا هذا – في الواقع كان رجلًا عائليًّا دمثًا – مع عضو عصابة مشبوه إلى غابة ملكيَّة في كاندي وطلب إليه أن يحفر قبرًا. ألحَّ على أن يكون طوله أربعة أقدام وعمقه ثلاثة أقدام حتى يمكن طيُّ الجسد. سيكون هناك شنق، قال، باكرًا في الصباح التالي. وافترض عضو العصابة الشَّابُّ أنَّ بِريرا كان متورِّطًا على نحو معقَّد في جريمة ذات مستوى رفيع، فكان أن كشف علاقاته بالمجرمين.

هذا ما كان بِريرا يفترض أن يقوم به بالنسبة المتوسطة المقدرة لليوم أو الليلة لقسم التحقيقات الجنائية. بيْد أنَّنا لم نكن نعرف أيًّا من هذا حينذاك.

ما عمرك؟ ما اسمك؟

كلَّما اقتربنا على نحوٍ كافٍ من الحديث إلى السلطات نجد أن علينا قضاء وقتنا مجيبين عن الأسئلة. في أثناء الاستجواب بعد العاصفة حين كنَّا نرتعش من البرد أكثر من الخوف، أخذ القبطان يسألنا عن أعمارنا. وعندما نجيبه كان يسجِّل الإجابة، ينساها، ثم يعود إلى سؤالنا مرَّةً أخرى في ما بعد. حسبنا أنه كان بطيئًا جدًّا أو سريعًا جدًّا، لأنه كان ينتقل إلى السؤال التالي حتى قبل أن يسمع ردودنا. أخذنا ندرك شيئًا فشيئًا أنه كان يقول كلامه مع مسحة احتقار. أنَّ كلامه يحمل بداخله السؤال الخفيّ: أيُّ أحمقين أنتما؟

شعرنا بأننا أتينا عملًا بطوليًا وحسب. ألم تكن الساعات التي قضيناها ممدودَي الأيدي والأرجل في العاصفة تعادل قصة المذنب الذي أصابه العمى في طريقه إلى دمشق؟ أصبح مريحًا في ما بعد أن أكتشف في حياتي أنَّ الأبطال مثل (شاكلتون) ربَّما طُرِدوا من مدرستي لأسباب كهذه. "كم عمرك يا سيدي؟" صاح المدير في وجه ذاك الفتى الطموح والعاصي جدًّا.

كان جليًّا أنَّ القبطان لم يكن مغرمًا بحمولته الآسيوية. لياليَ عديدةً راح يردِّد ما وجده مقطعًا ظريفًا هو ذلك الذي كتبه

(أ.ب. هربرت)[51] عن القوميَّة النامية في الشرق، والذي ينتهي بـ:

والغربان كلُّها فوق الأشجار
صاحت: "بانيان للبَنْيانيِّين!"

كان القبطان فخورًا بهذا المقطع، وكان ذلك ربَّما الوقت الذي بدأ فيه انعدام ثقتي في السلطة وهيبة رؤساء الموائد. فضلًا عن ذلك، كان هناك ذاك الأصيل مع البارون حين كانت عيناي تقلِّبان النظر إلى الأمام وإلى الخلف بين تمثال هكتور دو سِلفا النصفي النبيل والجسد الذي بدا بلا حياة وهو راقد على السرير. وهكذا وجدتني بعد فترة وجيزة من جنازته أقترب من قاعدة المنضدة التي بقي عليها تمثال دو سِلفا النصفي وكأنَّما قد نُسي. تمكَّنت وكاسْيَس من رفعه (هو من الأذنين وأنا من الأنف) وقلبناه فوق حافَّة الدَّرابزين وتركنا الصورة المنحوتة تسقط في اليَمِّ لتتبع الجثة.

لعلَّنا تجاوزنا حينها فضولنا إزاء الجبروت. لقد كنَّا نفضِّل السيد دانيَلْز اللطيف على أيَّة حال، ذلك المهووس بالاعتناء بنباته، والهيئة الشاحبة للآنسة لاسْكِتِي التي تحمل الحمام في سترتها الملأى بجيوب مخدَّدة لنقل طيورها. سوف يكون هناك دائمًا في موائد القط العديدة في حياتي غرباءُ من أمثالهم ممن يغيِّرونني.

(51) فكاهي وروائي ومسرحي إنكليزي.

الخيَّاط

كان أكثر متناولي الطعام على مائدتنا تحفُّظًا هو السيد غُونِسْكِرا الخيَّاط. لقد قدَّم نفسه حين استقر بيننا منذ اليوم الأوَّل بأن ناولنا بطاقته وحسب. سُو غُونِسْكِرا. شارع (برنس). كاندي. بهذه الطريقة أعلن مهنته. في أثناء جميع وجباتنا بقي صامتًا مرتاح البال. كان يضحك حين يضحك بقيَّتُنا، حتى لا يكون هناك صمت غريب قطُّ من مجلسه لدى المائدة. ولكنني لا أعلم إن كان يفهم ما كان يُنَكَّتُ بشأنه. أشك أنَّه لا يفهم. مع ذلك، كان الأكثر كرمًا ودماثة بيننا، حتى عندما يجدنا صاخبين أحيانًا، ولا سيَّما عندما يصدح ضحك السيد مازابا مثل صوت حصان. كان هو أوَّل من يجلب مقعدًا للآنسة لاسْكِتِي، ويمرِّر الملح بمجرد قراءة إشاراتنا، ويهوِّي فمه محذِّرًا إيَّانا أنَّ الحساء ساخن. وكان دائمًا ما يبدو مهتمًّا بما يُقال. بيْد أن السيد غُونِسْكِرا إلى هذا الحد، في أثناء الرحلة كلِّها، لم ينبس بكلمة واحدة. حتى حين نتحدَّث إليه بالسِّنهالية يهزُّ كتفيه على نحو معقَّد ويُدير رأسه معتذرًا عن تملُّصه.

كان رجلًا رقيقًا نحيلًا. حينما يأكل كنت أراقب أصابعه الرشيقة التي بمستطاعها أن تثير عاصفةً في شارع برنس حيث لعلَّه

كان فَكِهًا مع رفقته المُصطفاة. ذات مساء في أثناء العشاء، أقبلت إمِلي على مائدتنا وكان قرب عينها ثمَّة كدمة مزرقَّة، فقد ضربها مضرب التنس ذلك الأصيل. وبدا الذعر على وجه السيد غُونِسْكِرا فتحرَّك من مقعده ومدَّ يده ليلمس الانتفاخ بتلك الأصابع الناعمة وكأنَّما يبحث عن سببه. إمِلي التي تأثَّرت بغتةً بذلك، وضعت يدها على كتفه ثم حملت تلك الأصابع بين يديها فترة وجيزة. كانت تلك اللحظة من أندر لحظات مائدتنا رِقَّةً.

أشار السيد نِفل في ما بعد إلى أنه قد يكون هناك جرح خطير على عنق السيد غُونِسْكِرا الذي كان يغطيه بلفاع قطني أحمر يرتديه دومًا. بين حين وآخر عندما ينزلق اللِّفاع نستطيع رؤية النَّدبة. بعد أن رأينا ذلك لم نزعج السيد غُونِسْكِرا بالأسئلة. لم نسأله قطُّ لِمَ كان ذاهبًا إلى إنكلترا، وإذا ما كان بسبب فقد قريب له أو لأجل علاج طبي محدَّد لحباله الصوتية. لقد بدا من غير المرجَّح أن يكون ذاهبًا إلى هناك لقضاء عطلة في ظرف لا يتَّصل بأيِّ شخص أو لا يسعه ذلك.

كلَّ صباح، حينما تكون الشمس بالكاد قد طلعت، ألحس الملح من درابزين الباخرة معتقدًا أنني بتُّ قادرًا على التمييز بين مذاق المحيط الهندي ومذاق البحر الأبيض المتوسط. أغطس في حوض السباحة وأسبح تحت السطح مثل ضفدع، ثمَّ أقفز عند نهاية المسافة وأعود تحت الماء مختبرًا حدود طاقة رئتيَّ وقَلْبي. رأيت الآنسة لاسْكِتِي وقد بدت منزعجة من الرواية البوليسية التي كانت تسرع في قراءتها، وتتهيَّأ لرميها في أي بحر نكون فيه. ومع الآخرين، كنت أشرب في حضور إمِلِي وهي تسير متَّئدة نحونا وتتحدَّث إلينا.

قال لي السيد مازابا ذات مرَّة: "يجب ألَّا تشعر أبدًا بأنك ضئيل في نظام الأشياء." أو لعلَّها كانت الآنسة لاسْكِتِي. ما عدتُ متيقِّنًا مَن كان، ذلك أنه بنهاية الرحلة تداخلت آراؤهما، ولم أعد متيقِّنًا مَن أفادني بالنُّصح، أو من اتَّخَذَنا أصدقاءَ له، أو من خَدَعَنا. وقد غرقت بعض الأحداث بعد وقت كثير.

من ذاك الذي، على سبيل المثال، وصف لنا قصر مالكي السفن في جنوا؟ أو ألعلَّها كانت ذكرى من ابتداعي لاحقًا عندما دخلت ذلك المبنى كشخص راشد وصعدت السلالم الحجرية إلى كل

طابق جديد؟ ذلك أنه ثمَّة شيء في الصورة التي تشبَّثت بها طوال هذه الأعوام وكأنَّما تشرح كيف ندنو من المستقبل أو ننظر إلى الماضي. يبدأ الشخص بالطابق السفلي لذلك القصر ناظرًا إلى بضع خرائط ساذجة عن الموانئ المحلية، والسواحل المجاورة، ثم حين يصعد إلى الأعلى من طابق إلى آخر يجد المزيد والمزيد من الخرائط التي توضِّح الجزر شبه المكتشفة، أو قارَّة متوقَّعة. عازف بيانو في مكان من الطابق الرئيس يعزف موسيقى (برامز). إنك تسمعها وأنت تهبط السلالم وتنظر حتى إلى البئر المركزية التي تنبعث منها الموسيقى. وإذن هناك برامز ولوحاتُ سُفُنٍ تَمِيس وهي تولَد من جديد ناهضةً من الأحواض في مُستَهَلِّ حُلُم من أحلام تاجر حيث أيُّ شيء يمكن أن يحدث؛ ثراء زاخر بالأحداث أو عاصفة مدمرة. كان أحد أسلافي يملك سبع سفن أُحرِقت بين الهند و(تابروبيْن). لم يكن يملك جدارًا من الخرائط، ولكنَّ مُلَّاك هذه السُّفن شأنهم شأنه، ليس بمستطاعهم أن يتوقَّعوا شيئًا عن المستقبل. لا توجد صور أناس في اللوحات التي تغطِّي الجدران في الطوابق القليلة الأولى. ولكنك في ما بعد عندما تصل إلى الطابق الرابع لقصر مُلَّاك السفينة في جنوا، تجد مجموعة من لوحات (مادونا)[52].

على مائدة القط كانوا يناقشون الفنَّ الإيطالي. الآنسة لاسْكِتِي التي عاشت في إيطاليا بضع سنوات كانت تتحدَّث. "المشكلة في لوحات مادونا أنَّ بها تلك النظرة على الوجوه، لأنهم يعلمون أنه سيموت صغيرًا... بالرَّغم من كلِّ تلك الملائكة الطائرة المحيطة

(52) لوحات تمثِّل مريم العذراء والمسيح وهو طفل.

بالطفل ودفق اللَّهب القليل من رؤوسها، الشبيه بالدَّم. في مكان ما في الحكمة التي وُهِبت مادونا، أمكنها أن ترى الخارطةَ المكتملة، نهايةَ حياته. بغضِّ النظر عن عدم استطاعة الفتاة المحلِّيَّة التي يستخدمها الفنَّان اتِّخاذَ تلك النظرة العالِمة. لعلَّ الفنان نفسه لا يستطيع تصويرها. لذا، نحن فقط، المشاهدون، من يمكننا قراءة ذلك الوجه كشخص يعرف المستقبل. لأنَّ ما حدث لابنها يتيحه التاريخ. إنَّ إدراك تلك الفاجعة يأتي من المُشاهد."

أعود بتفكيري إلى الوراء، ليس فقط إلى هذا الحديث في أثناء وجبة على متن الباخرة، وإنما أيضًا إلى أَمْسِيَة مراهقتي في مِلْ هِلْ. ماسي ورام الدِّين وأنا نأكل على عجل عشاء كاري في منزلهما ونسرع للحاق بقطار الساعة 7:05 المتجه إلى المدينة. نسمع عن نادي جاز. نحن في السادسة عشرة أو السابعة عشرة. هذه هي النظرة، النظرة البعيدة المدى نحو ابنها بقلبه الذي لم يكن في مأمن، تلك التي كنت أراها على وجه أمِّ رام الدِّين.

الليلة الماضية، كان حُلُمي الأوَّل بماسي. مضت أعوام منذ أن افترقنا. كنت بين بيوت على جبال شاهقة، كانت المساكن مرتفعة لأن الأرض المنخفضة كانت للحيوانات. لم أرها في حلم، فضلًا عن الحياة الحقيقية، منذ أمد بعيد.

كنت مختبئًا عندما ظهرت. كان شعرها قصيرًا وأسود، وهو ما ميَّزها عن الطريقة التي بدت بها عندما كانت تعيش معي. لقد جعل وجهها أكثر وضوحًا، كانت ثمَّة زوايا جديدة مثيرة للاهتمام. بدت في صحة جيدة. كنت أعرف أنه كان يمكنني الوقوع في حبِّها ثانية. في حين إنه ليس بمستطاعي الوقوع في حبِّها ثانية كما كانت في الماضي وهي محاطة بتاريخ مشترك ونظرة مألوفة.

ظهر رجل، ساعدها على الجلوس إلى مائدة، ورأيت أنها كانت في بداية حملها. سمعا شيئًا وجاءا نحوي. قفزت فوق سياج، وقعت على ركبتيَّ، ثم بدأت أعدو على طريق كان فيه تجَّار وحدَّادون ونجَّارون يعملون. بدا ضجيج أدواتهم كأنه ضجيج أسلحة. ثم أصبح موسيقى وأدركت بغتةً أنني لم أكن أعدو، كانت ماسي من يعدو بين الإيقاعات الخطيرة لسَنادين الحدَّادين وشِفار المناشير. كنت

منفصلًا، وما عدتُّ في المشهد، ما عدتُّ جزءًا من وجودها. لقد كانت هي، في حملها الحديث، مَن بدت مفعمة بالحياة للمسارعة بالهروب من الأخطار. ماسي، بشعرها الأسود القصير، أصرَّت على بلوغ شيء أبعد مما هي عليه الآن.

لا بدَّ أنني عُلِّمت أو تعلَّمت بطريقة ما في وقت مبكِّر من حياتي أن أبتعد بسهولة عن العلاقة الحميمة. حين انفصلت وماسي، بغضِّ النظر عن أيِّ ألم كان، لم أقاوم. انفصلنا على نحو عرضي تقريبًا. وهكذا، بعد وقت طويل من انتهاء علاقتي بها -ولكن ما زلت في الدُّوَّامة- وجدت نفسي أبحث عن شيء ما لأشرح الأمر أو أتَّخذه عذرًا. لقد اختصرتُ قصَّتنا إلى ما حسبتُ أنه الحقيقة الأساسية. بيْد أنها، بطبيعة الحال، لم تكن إلَّا جزءًا من الحقيقة. قالت ماسي أنني في بعض الأحيان حين تسيطر عليَّ الأشياء تكون لديَّ حيلة أو عادة: أحوِّل نفسي إلى شيء لا ينتمي إلى أي مكان. لا أثق في أي شيء يُقال لي، ولا حتى في ما أراه.

قالت أنَّ الأمر كان وكأنَّما كبُرتُ معتقدًا بأنَّ كل شيء محفوف بالمخاطر. لا بد أنَّ خداعًا فعل ذلك. "وهكذا تمنح صداقتك وموَدَّتك الحميمة فقط لأولئك البعيدين عنك." ثم سألتني، هل ما زلت أعتقد أنَّ قريبتي كانت متورِّطة في جريمة قتل؟ وأنني إن فتحت فمي وقلت الحقيقة عمَّا عرفتُ، فهل كانت ستظلُّ في خطر؟ "يا لقلبكَ الحذِر الملعون! من تلك التي أحببت وسبَّبت لك هذا؟"

"أحببتُكِ أنتِ."

"ماذا؟"

"قلت أحببتُكِ أنتِ."

"لا أعتقد ذلك. أحدٌ ما أضرَّ بك. أخبرني ما الذي حدث عندما أتيت إلى إنكلترا."

"ذهبت إلى المدرسة."

"كلَّا، حينما أتيت. لأنه لا بدَّ أنَّ شيئًا ما حدث. اعتقدت أنكَ كنت على ما يرام عندما رأيتُك مرَّةً أخرى بعد وفاة رام الدِّين. لكنني لا أعتقد ذلك. ماذا؟"

"قلت أنني أحببتُكِ."

"أجل، أحببت. إنك تهجر حياتي، أليس كذلك؟"

بهذه الطريقة، سواء كانت صالحة أم لا، أحرقنا ما تبقَّ من أشياء طيِّبة بيننا.

كلَّ أصيل، منذ أن غادرنا بورسعيد أخذ أعضاء الأوركسترا بثيابهم الخوخيَّة المألوفة يعزفون الفالْس على سطح التَّنزُّه، وخرج الجميع ليستمتع بشمس البحر الأبيض المتوسط المعتدلة. سار السيد غِغْز بيننا مصافحًا. وذاك هو السيد غُونِسْكِرا ولفاعه الأحمر حول عنقه، ينحني وهو يمرُّ. ارتدت الآنسة لاسْكِتِي سترة الحَمَام ذات الجيوب المخدَّدة العشرة، كل منها يُؤوي إمَّا حَمَامًا بهلوانيًّا وإمَّا يعقوبيًّا، وكان يخرج رؤوسه محدِّقًا وهي تخطو على السطح لتمنحه هواء البحر. بيْد أنَّ السيد مازابا لم يكن هناك. لقد تلاشى مزاحه الضَّاجُّ الجامح. كانت هناك أشياء قليلة فقط مثيرة للحماسة، أهمها كان الاعتقاد بأنَّ أُونيل وايْمَرانر قد قفز إلى البحر وسبح إلى الشاطئ في الوقت الذي غادرنا فيه ميناء بورسعيد. بيْد أننا كنَّا على يقين بأنَّ الكلب إن كان قد قفز من على ظهر الباخرة فإنَّ السيد إنفيرنْيو كان سيقفز وراءه إلى البحر. مع ذلك، كنَّا سعداء أنَّه باختفاء هذا الكلب الفائز مرَّتين في عَرْض (كرَفْتْس دوغ) ستكون لدى قبطاننا مشكلة أخرى بين يديه. حتى الآن لم تثبت هذه الرحلة بأنها أكثر رحلاته نجاحًا. مأزق آخر، قالت الآنسة لاسْكِتِي، ولعلَّه سيكون الأخير. في

مقصورتنا ألمح السيد هَيْستِي إلى أنَّ إنفيرنْيو قد خبَّأ الوايْمَرانر في مكان ما، لأنَّه بدا جليًّا أنَّ المخلوق سلب لُبَّه فلم يَبْدُ منزعجًا لاختفائه. قال السيد هَيْستِي أنه لن يتعجَّب إن شوهِدت السيدة إنفيرنْيو - إن كان هناك سيدة إنفيرنْيو - في غضون أسابيع وهي تُنزِّه الكلب الأصيل في حديقة باتِرسِي.

ذات ليلة قُدِّم حفل موسيقي في الهواء الطلق على سطح التَّنزُّه وصوت البحر يملأ آذاننا. كانت موسيقى كلاسيكية، شيء لم نسمع به أنا وكاسْيَس ورام الدِّين من قبل، ولمَّا كان ثلاثتنا قد حجز مقاعد في الصف الأمامي، فإنه لم يكن بمستطاعنا النهوض والمغادرة إلا إن تظاهرنا بالمرض. لم أكن أنصت في الواقع، بل حاولت اختراع طريقة دراميَّة للانسحاب من مقعدي بإحكام قبضتي على بطني. بيْد أنني كنت أسمع شيئًا مألوفًا بين حين وآخر. كانت الأصوات تنبعث من امرأة حمراء الشعر على المسرح، وكانت تقلِّب شعرها هنا وهناك وهي تعزف كمانها بنفسها، في حين كان الموسيقيون الآخرون هادئين. كان ثمَّة شيء مألوف جدًّا فيها. لعلَّني رأيتها في حوض السباحة. يد خلفي ضغطت على كتفي فالتفتّ.

همست الآنسة لاسْكِتِي في أذني: "أظنَّها يمكن أن تكون عازفة الكمان جارتك."

كنت قد اشتكيت إليها من الضجيج في المقصورة المجاورة في أثناء الأصائل. نظرتُ إلى البرنامج الذي تُرِك على مقعدي. ثم نظرت إلى المرأة وهي تدفع شعرها الجامح إلى الخلف كلَّما توقَّفت الموسيقى. إذن لم يكن وجهها هو المألوف، وإنَّما النَّغم والزَّعيق اللذان بدآ الآن يرتبطان بالموسيقى المنبعثة من الآخرين. بدا الأمر وكأنهما دخلا

مصادفة إلى لحن مشابه. لا بدَّ أنها شعرت أنَّ ذلك شيء رائع، بعد تلك الساعات البائسة كلِّها في الحرارة العالية في مقصورتها.

مدخلات دفتر الامتحان المدرسي # 30:

الجرائم التي ارتكبها (حتى الآن) قبطان الأُورُونسَي

1. حيوان عضَّ السيد دو سِلفا حتى الموت.
2. الغياب التام لسلامة الأطفال في أثناء عاصفة هوجاء.
3. لغة سيئة وفظَّة أمام الأطفال.
4. الطَّرد غير العادل للسيد هَيْنسِتِي، رئيس حرَّاس أوْجِرة الكلاب.
5. ترديد قصيدة مُهينة جدًّا في نهاية حفل عشاء.
6. الخطأ في وضع تمثال السيد دو سِلفا البرونزي الثمين.
7. ضياع كلب وايْمَرانر الفائز بجائزة.

الآنسة لاسْكِتِي: صورة ثانية

حضرتُ في الآونة الأخيرة محاضرة في فصل ماجستير قدَّمها صانع الأفلام (لُوك داردن). تحدَّث عن أنه لا ينبغي لمشاهدي أفلامه أن يفترضوا أنهم يفهمون كلَّ شيء عن الشخصيات. بصفتنا أفرادًا بين جمهور لا ينبغي أبدًا أن نظنَّ أنفسنا أكثر حكمة من الشخصيات، إننا لا نعرف عنها أكثر مما تعرفه عن أنفسها. ينبغي أن لا نشعر بالاطمئنان أو اليقين حيال دوافعها، وأن لا نزدريها. إنني أصدِّق هذا. أدرك هذا كمبدأ أوَّل من مبادئ الفن، بالرغم من أنَّ لديَّ شكوكًا قد لا تكون لدى كثيرين.

في انطباعنا الأوَّل عن الآنسة لاسْكِتِي بدت لنا عانسًا وحذِرة. لم تكن العوالم التي تتحدَّث عنها لتثير اهتمامنا. كانت تتحمَّس للوحات التَّذكاريَّة النُّحاسيَّة والسَّجَّاد المُزدان بالصور. بيْد أنها كشفت في ما بعد أنها مسؤولة عن أربع وعشرين حمامةً من الحمام الزاجل تؤويها في مكان ما في تلك الباخرة، وقد "جلبتها لشخص متنفِّذ،" جارٍ لها في (كارمارثنشاير). كنَّا نتعجَّب: ما عسى شخص متنفِّذ يريد بالحمام؟ "صمتٌ لاسلكي،" قالت على نحو غامض. عندما سمعنا في ما بعد عن صِلتها بالحكومة البريطانية، أصبحت علاقتها بالحمام

أكثر جلاءً. لقد كان الشخص المتنفِّذ خَيَالًا.

بيْد أننا كنَّا في ذلك الحين أكثر اهتمامًا بما بدا ميلًا عاطفيًا إلى السيد مازابا. لقد كنَّا أقلَّ إدراكًا لفضولها المتنامي إزاء السجين والضَّابطَيْن (أحدهما لا يزال غير مرئي) اللذين يرافقان نِيمَيِر إلى إنكلترا. "حقيبة سفري هي السَّجين وحسب،" علَّق السيد غِغْز أمام مجموعة من مُعجبيه في أثناء العشاء مُدَّعيًا دوره السُّلطوي بتواضع زائف. ولكن، ما كانت "حقيبة سفر" الآنسة لاسْكِتِي؟ لم نكن نعرف. أكانت شيئًا يمكن أن أكون قد رأيته في أثناء زيارتي إيَّاها في مقصورتها في وقت باكر من الرحلة حين أرادت أن تناقش علاقتي بالبارون؟ ذلك أنه إن كانت هناك لحظة غير عاديَّة في تعاملي مع الآنسة لاسْكِتِي فقد حدثت ذات أصيل عندما طلبت إليَّ أن آتي إلى مقصورتها في أثناء وقت الشاي.

وهكذا اتَّخذت طريقي على مسار منسيٍّ تقريبًا إلى ذلك الأصيل المتعذَّر محوه. دُهِشتُ حين رأيت إمِلِي معها، وكأنَّ الآنسة لاسْكِتِي قد دعتها للانضمام إلينا حتى تناقش أمرًا مهمًّا معي. كان هناك شاي وبسكويت على المنضدة. جلست وإمِلِي مستقيمي الظهر على المقاعد الوحيدة في المقصورة، في حين جلست الآنسة لاسْكِتِي عند قدم السرير مائلة إلى الأمام لتتحدَّث. لقد كانت المقصورة أكبر من مقصورتي بكثير ومليئة بأشياء غير عاديَّة. كان ثمَّة شيء يشبه سجادًا ثقيلًا إلى جوارها. قيل لي فيما بعد أنَّها بساط حائط مزخرف.

"كنت أخبر إمِلِي أنَّ اسمي الأول هو (برينِتا). أحسب أنه نوع من التفاح الذي يوجد في هولندا." تمتمت الاسم لنفسها مرَّة أخرى، وكأنه لم يكن يستخدم حواليها على نحوٍ كافٍ. ثم بدأت تتحدَّث. عن

نفسها حين كانت صغيرة، عن حبِّها للُّغات، وكيف وقعت في المتاعب في الأيام الأولى، "إلى أن وقع شيء أتاح لي إنقاذ نفسي." وعندما سألتها إمِلِي عنه قالت: "سأخبرك بذلك في وقت آخر."

حين أتذكَّر، أجد أنَّ وصفها هذا لماضيها لا بد أنها قدَّمته لتُيسِّر لنفسها تحذيري من مأزقي مع البارون، الذي عرفتْ عنه بطريقة ما. إلى جانبها، بدت نظرة إمِلِي الجادَّة وإيماءتها المستمرة تؤكِّدان أنَّ هذا أمر مهم. بيْد أنني كنت بالكاد أصغي. لقد رأيت عين وجه آخر في زاوية من المقصورة. كانت تعود إلى تمثال يشبه عارضة أزياء وعليه بعض ثياب الآنسة لاسْكِتِي معلَّقةٌ فوق كتفيه وذراعيه العارية. بينما استأنفت حديثها لاحظتُ نَدْبة على البطن المرمري بدت وكأنَّ يدًا رسمتها أو لوَّنتها حديثًا. بيْد أنَّ الوجه هو الذي كان يبحث عني وينظر إليَّ صراحةً وكأنه بلا دفاع. لقد بدا نسخة شابَّة وأقل سطوةً من الآنسة لاسْكِتِي، ولكنَّ به جرحًا بالطبع. الآن وحسب وأنا أكتب هذا أدرك أنه قد يكون تمثال (بوذِيساتفا)[53]. أتعَّجب من ذلك الوجه الدنيوي الرَّاضي... استأنفت الآنسة لاسْكِتِي الحديث. إن كان تحديقي قد تحوَّل عنها ذاك الأصيل وهي تتحدَّث عن علاقتي بالبارون فلم يكن ذلك إلا لأنني انشغلت بتلك النظرة الفاهِمة. لعلَّها جلست على السرير بتعمُّد حتى يومئ التمثال إليَّ من ورائها.

في ما بعد، حين أوشكنا على الانصراف، اجتذبتني إلى ما كان يشغلني، وحرَّكت قطعة الثياب الشَّفَّافة تقريبًا التي كانت تغطِّي جرح الجسد.

---

(53) لقب يُطلَق على أي شخص يشعر برغبة كبيرة في تحقيق البوذية لصالح جميع الكائنات.

"أترى هذا؟ إنك تجتاز أمورًا كهذه مع الوقت. تتعلَّم كيف تغيِّر حياتك."

لم تعنِ العبارة شيئًا لي، بيْد أنني ما زلت أتذكَّر كلماتها. ورأيت الجرح الحقيقي عن كثب لحظةً قبل أن تسقط عليه قطعة القماش. بدا كلُّ شيء في مشهد واضح.

***

كانت الآنسة لاسْكِتِي تتمتَّع بسلطة لم أرْتَب في أمرها. حين أعود بذاكرتي إلى الوراء، أظن أنها لا بدَّ وقد أقنعت البارون بأن يغادر الباخرة في بورسعيد محذِّرة إيَّاه من أنَّ أمره سيُكشَف إذا ما بقي. ثم كانت هناك لحظة أشبه بالهلوسة كان يمكن في الواقع تذكُّرها وكأنها حلم، حين كان كاسْيَس يمشي، أو أنا أمشي، نحوها ذات ليلة. كان الوقت غسقًا، وأيًّا كان منَّا هناك، فقد خال أنه رآها تنظِّف بطرف قميصها ما كان أشبه بمسدَّس صغير. لم يكن هذا إلا ذرَّة رمل لا يمكن تصديقها تمامًا في الصورة التي رسمناها عنها. بصفتنا أطفالًا كنَّا نتخيَّل كلَّ صنوف الأشياء ونقبلها. كنَّا نعرف أنها كانت مولعة بنا. لقد قضت بضعة أصائل مع كاسْيَس الذي أصبح مهتمًّا بدفتر رسمها. كان من اليسير التَّحدُّث إليها.

كان هناك حدث آخر ارتبط في أذهاننا بذلك المسدَّس المتوقَّع. في أحد الأصائل التي قضاها كاسْيَس مع الآنسة لاسْكِتِي أعارته قلم حبر. لقد نسيه تمامًا حتى أحسَّ به في جيب سرواله بعد العشاء. أقبل عليها وهي مستغرقة في حديث مع أحدهم عند إحدى الموائد،

وكانت حقيبتها اليدوية على المقعد بجوارها. مال لكي يُسقط القلم في الحقيبة دون إزعاجها، بيْد أنَّ ذراعها العارية امتدت سريعًا وأمسكت بيده التي حملت القلم وأخذته منه. حتى إنها لم تلتفت برأسها لتنظر إليه. "شكرًا لك يا كاسْيَس، حصلت عليه،" قالت واستأنفت حديثها.

كان هذا دليلًا آخر لنا.

بالرَّغم من آرائها كلِّها، لم تكن تتعجَّل إطلاق الأحكام. أظنُّ أنَّ أكثر شخص كان يزعجها باستمرار هو السيد غِفْز، ولأنها كانت تجده متبجِّحًا كذلك. قالت أنه دائمًا ما كان يتحدَّث عن مهارته كرامٍ، رامٍ جيد. أمَّا حقيقة أنَّ الآنسة لاسْكِتِي كانت أيضًا "رامية جيدة" فقد أتت لاحقًا، حين اكتشفنا صورة لبرينِتا لاسْكِتِي وهي صغيرة، إذ تخطو مبتعدةً بعد تحقيق هدف مثالي في مسابقات (بِزْلِي) للرماية، وتضحك مع بطل الحرب البولندية (يوليوس غرُوسزا) الذي مثَّل إنكلترا في ما بعد في فئة الرماية بالبندقية بسرعة 50 مترًا في ألعاب الإمبراطورية. وقد ذُكِرت شجاعة الآنسة لاسْكِتِي في مقال كُتِب عن غرُوسزا، مع أنَّ مساحة أكبر أُفرِدت للحديث عن علاقة حُبٍّ ممكنة بين الاثنين في الصورة. كانت ترتدي معطفًا ذا أشكال رباعيَّة، وقد لمعت أشعة الشمس على شعرها الأشقر، وإذن أصبح لدينا الآن تصوُّر بديل للعانس الشاحبة التي ترسم رُسُومًا على متن الأُورُونسَي وبين الحين والآخر تُلقي الكتب فوق الدَّرابزين.

لقد كان رام الدِّين هو مَن وجد المقال والصورة مصادفةً حين كان كلانا يقيم في إنكلترا. اكتشفهما في نسخة قديمة من مجلة "ذي إلستريْتِد لندن نيوز". كان كلانا يتسكَّع في مكتبة كرويدون العامة، وما كنَّا لنعرف الآنسة لاسْكِتِي لولا اسمها في العنوان الفرعي. وقتَ

قرأنا المقال في أواخر الخمسينيات كان رفيقها في الصورة، يوليوس غرُوسنزا، قد أصبح أحد المشاهير الوطنيين الحاصلين على الميدالية الأولمبية، فضلًا عن كونه متنفِّذًا في الحكومة البريطانية حيث كان يفترض أن تكون للآنسة لاسْكِتِي علاقات هناك. لو كنت ورام الذّين نعرف كيف نصل إلى كاسْيَس لأعددنا نسخة من مجلة ما قبل الألعاب الأولمبية هذه وأرسلناها إليه.

لم تَبْدُ في عيوننا امرأةً جميلة. إن كنَّا قد وجدناها جذَّابة، فذلك بسبب الجوانب المتعددة التي كنَّا نكتشفها فيها. لقد كانت متحفِّظة في البداية بسبب حياء يتَّسم بالحذر وحسب. ثم بات الأمر وكأنك صادفت صندوقًا يحوي ثعالب صغيرة في سوقٍ ريفيَّة. أوحى الاسم لاسْكِتِي ببعض الخلفيَّة الأوروبية، بيْد أنَّه طاب لها المقام إلى جوار تلك السلالة الخاصة من الأرستقراطيين بين الإنكليز.

كانت تعرف قَطْعًا التَّنوُّع بين الإنكليز. لقد أربكتنا على سبيل المثال معلوماتٌ أدلت لنا بها على مائدة القط في أثناء نقاش يتعلق بالمشي مدَّعية أنها تعرف مشَّائين بعينهم (أحدهم كان قريبًا لها من الدرجة الثانية) حين يخرجون للمشي عبر البلاد في عطلة نهاية الأسبوع، لم يكونوا يرتدون سوى جواربهم وأحذيتهم، وحقائب ظهر على أكتافهم. كانوا يقطعون الغابات والحقول المفتوحة ويخوضون الينابيع الممتلئة بسمك السَّلمون على هذه الحال. إن حدث ومررت بهم فإنهم يتجاهلونك وكأنك غير مرئي، كما يفترضون أن تفعل معهم الشيء نفسه. حينما يقتربون من إحدى القرى في الغسق يرتدون ثيابهم على حدودها، يدخلون حانة، يأكلون وجبة وحيدة ويكترون غرفة لقضاء الليلة.

هذه المعلومات الزَّاخرة بالصور التي أدلت بها الآنسة لاسْكِتِي

غمرت مائدتنا بالصمت. كان معظم المسافرين من الآسيويين الواسعي الاطلاع الذين لم يسعهم ربط تصوُّرِهم عن الحياة الإنكليزية المستوحى من روايات (جيْن أوستن) و(أغاثا كرِستي) بهؤلاء المشّائين الغُراة. لقد كانت هذه النَّادرة الشَّكِسة وغير المبرَّرة الشيء الأوَّل الذي حوَّل الآنسة لاشْكِتِي من المسلك الشبيه بورق الحائط الباهت الذي قدَّمته إلينا عن نفسها في البداية. لقد أخرست قصَّةُ المشّائين مائدتنا إلى أن قفز السيد مازابا عائدًا بنا إلى وجوه مادونا غير القابلة للتفسير التي تحدَّثت عنها الآنسة لاشْكِتِي سالفًا في أثناء تناولنا الوجبة.

قال: "إنَّ المشكلة في صور مادونا كلِّها أنَّ هناك طفلًا بحاجة إلى الغذاء وتُخرج الأمهات أثداءً تبدو مثل مثانات لها شكل شطيرة (البانينو). لا عجب أن يبدو الأطفال مثل كبار ساخطين. لقد رأيت صورة واحدة فقط يبدو فيها الطفل يتغذَّى جيِّدًا وراضيًا عن الحليب الذي شربه. كانت في (لا غرانجا)، القصر الصيفي القريب من (سيغوفيا)، على بساط حائط صغير جدًّا، ولم تكن مادونا تتطلَّع إلى المستقبل. كانت تنظر إلى المسيح الطفل وهو يتلذَّذ بالرضاعة من الثدي."

قال له أحد الجالسين إلى المائدة: "إنك تتحدَّث وكأنك تعرف عن الرضاعة، ألك أطفال؟"

ران صمت قصير ثم قال مازابا: "أجل، قطعًا."

"يسعدني كثيرا أنك تحب بُسُط الحائط المزخرفة يا سيد مازابا،" قالت الآنسة لاشْكِتِي لتُوائم الصمتَ الجديد الذي أعقب هذه المعلومة. السيد مازابا لم يقل المزيد. لا عن كم له من الأبناء ولا عن أسمائهم. "أتعجَّب من كان صانع ذلك البساط المزخرف؟ لعلَّها كانت

امرأة من التراث المُدجَّن. ذلك هو الأمر، إن كان البساط مصنوعًا في القرن الخامس عشر. سأبحث عنه عندما أكون في لندن. لقد عملت بعض الوقت مع سيِّد كان يجمع أشياء كهذه. كان له ذوق رفيع ولكنه صلبٌ كالأظافر، مع أنه علَّمني تقدير فنّ النسيج. إنَّه لأمر مدهش أن تتعلَّم هذه الأشياء من الرجال."

احتفظنا بهذه الاعترافات. من كان "السيد الصَّلب كالأظافر"؟ والقريب المشَّاء؟ بدا أنَّ عانسنا لا تتمتَّع بالمعرفة عن حياة الحمام والرَّسم وحسب.

منذ أعوام خلت، في حياتي الحاضرة، تلقَّيت حزمة أُرسِلت بالبريد من (ويتلَنْد) في كارمارثنشاير ثم أرسلها إليَّ ناشري الإنكليزي. كانت تضم نسخًا ملوَّنة عديدة من الرُّسوم إلى جانب رسالة من برِينِتا لاسكِتِي. لقد كتبتْ الرسالة بعد أن سمعتني أتحدَّث في إذاعة بي بي سي عن موضوع "الشباب،" الذي ذكرت فيه بإيجاز رحلتي إلى إنكلترا على متن باخرة.

نظرتُ إلى الرُّسوم أوَّلًا. رأيتني وأنا صغير ونحيل، ورسمًا لكاسْيَس وهو يدخِّن، وآخر جميل لإِمِلِي مرتدية قبَّعة ريش زرقاء. تلك الإِمِلِي التي اختفت من حياتي منذ ذلك الحين. أخيرًا بدأت أعرف وجوهًا أخرى كوجه ضابط المحاسبة، والسيد نِفل، وأماكن مدفونة عميقًا في ماضيّ: شاشة السينما في مؤخَّر الباخرة، البيانو في صالة الحفلات مع هيئة ملطَّخة لشخص جالس هناك، البحَّارة بعد تمرين إطفاء الحريق، وهذا وذاك. جميعها تصوِّر رحلة باخرتنا في عام 1954 من كولومبو إلى تِيلْبرِي.

ويتلَنْد

كارمارثنشاير

عزيزي مايكل،

أرجـو أن تعذرنـي علـى مخاطبتـك خطابًـا غيـر رسـمي، لكننـي أعرفـك، آه منـذ سنوات خلـت، كصبـي. لقـد سـمعتك تلـك الليلـة تتحـدَّث في المذيـاع. وعنـد نقطـة مـا حـين ذكـرتَ مجيئـك إلـى إنكلتـرا علـى مـتن الأورُونسَـي، سـارعتُ في التركيـز في مـا كان يُقـال، ذلـك أنني أنـا أيضًـا كنـت علـى مـتن تلـك الباخـرة في عـام 1954. ولـذا واصلـت الإصغـاء، بيْـد أنني لـم أعـرف مـن تكـون. لـم أتمكَّـن مـن ربـط الصـوت في المذيـاع والوظيفـة التي تمتهنُهـا بالشـخص الـذي كان في الباخـرة، إلـى أن ذكـرتَ لقبـك، "ماينَـا." وبعدهـا تذكَّرتكـم أنتـم الثلاثـة، ولا سـيَّما كاسْـيَس، ذاك الصبـي المترصِّـد دومًـا. وتذكَّـرت إمِلِـي.

ذات أصيـل دعوتـك وإمِلـي إلـى تنـاول الشـاي. لا أخـالُ أنـك تتذكَّـر هـذا. ومـا الـذي يجعلـك تتذكَّـر. لقـد كنـت فضوليَّـة إزاءكـم جميعًـا. أظـنُّ أنَّ الحكومـة البريطانيـة في داخلـي جعلتنـي فضوليَّـة. لـم يكـن ثمَّـة الكثيـر يحـدث في أثنـاء رحلتنـا في البحـر إلا وقوعكـم أنتـم الثلاثـة في المتاعـب باسـتمرار... ولكـن دعنـي أتابـع سـرد سببي الآخـر لهـذه الرسـالة فضـلًا عـن إرسـال تحيَّاتـي البهيجـة إليـك.

لقـد كانـت أمنيتـي منـذ وقـت طويـل أن أتصـل بإمِلِـي. كثيـرًا مـا أفكِّـر فيهـا. ذلـك أن هنـاك شيئًا رغبـت أن أقولـه لهـا في أثنـاء الرحلـة ولكننـي لـم أفعـل. لقـد فكَّـرت في ذلـك الأصيـل أن أنتزعـك مـن بـين براثـن البـارون وحسـب. بيْـد أنهـا إمِلِـي مـن كان ينبغـي أن أنقـذ. فقـد لقيتهـا مصادفـةً مـرَّاتٍ عـدَّة مـع رجـل فرقـة جانـكْلا وبـدت علاقتهـا بـه مثقلـة ومحفوفـة بالمخاطـر. كان هنـاك أيضًـا شـيء وعـدت نفسـي أن أعطيهـا إيَّـاه قـد يكـون ذا فائـدة لهـا ليعينهـا علـى الخـروج، بيْـد أنني أيضًـا لـم أفعـل ذلـك قـطُّ. لـم يكـن الوقـت ملائمًـا. لقـد كانـت، لنقـل، حقيقـة مسـتقبليَّة، مـع أنهـا كانـت قصَّـة منـذ أعـوام خلـت مـن شبابي. ولـذا فقـد أرفقـت بهـذه الحزمـة تلـك الرسـالة الخطيَّة

الأصلية لتُرسلها إلى قريبتك. لم أكن أعرف إمِلِي حقَّ المعرفة، ولكنني فوجئت بأنها بالرَّغم من سماحة نفسها كانت بحاجة إلى الحماية. سوف أكون شاكرة إن أرسلت إليها هذه الحزمة المرفقة.

لقد أعددت نسخًا من بعض الرُّسوم التي أنجزتها عن تلك الرحلة، لعلَّك ستبتهج بها.

مع الوُدّ

برِيتا

كانت رسالة من صفحتين، بيْد أنَّ الحزمة التي أرادت أن أرسلها وعليها اسم إمِلِي كانت ثقيلة، وحائلة إلى الاصفرار قليلًا.

فتحتُها. إنَّ الكُتَّاب وقحون. ولكن، دعوني أقول فقط أنني لم أرَ إمِلِي منذ أعوام ولا فكرة لدي أين كانت. كانت آخر مرَّة تحدَّثنا فيها في حفل زواجها من رجل يدعى (دِزموند)، قبل سفرهما إلى الخارج بقليل. لم أستطع حتى أن أتذكَّر إلى أيِّ بلاد. بعد بعض التَّردُّد فتحت حزمة إمِلِي وبدأت أقرأ الصفحات الكثيرة المكتوبة بخط سَلِس صغير، وكأنه يؤكِّد خصوصية الرسالة واهتمامها الحميم. وبينما كنت أقرأ شعرت بأنَّ هذا كان عن تلك الواقعة في ماضي الآنسة لاسْكِتِي التي أشارت إليها في ذلك الأصيل عندما ذهبتُ إلى مقصورتها ووجدتُ إمِلِي هناك. عند نقطة ما سألت إمِلِي الآنسة لاسْكِتِي إلامَ كانت تُلمِح في لحظة سابقة في حياتها أتاحت لها إنقاذ نفسها. وقالت الآنسة لاسْكِتِي: "سأخبركِ بذلك في وقت آخر."

في عشرينيات عمري ذهبتُ إلى إيطاليا لتعلُّم اللغة. لقد كنت مَرِنة في تعلُّم اللغات وكانت الإيطالية أحبَّها إليَّ. اقترح أحدهم أن

أتقدَّم بطلب عمل إلى فيلا (أورتنسيا). ابتاعها زوجان أمريكيان ثريَّان، (هوراس وروز جونسون)، وكانا يسعيان إلى تحويلها إلى أرشيف فني كبير. لقد قابلاني مرتين ثم وظَّفاني مترجمة مراسلات إلى جانب البحث والفهرسة. كلَّ يوم كنت أقود دراجة للذهاب إلى العمل، أصل إلى الفيلا لأعمل ست ساعات، ثم أقود الدراجة عائدة إلى غرفة صغيرة جدًّا كنت قد اكتريتها في المدينة.

كان للمالكَيْن ابن في السابعة من عمره. كان صبيًّا لطيفًا ومُسلِّيًا. كان يحلو له أن يراقبني وأنا أصل على دراجتي، مرتبكة، لأنني طالما كنت أصل متأخِّرةً تقريبًا. كان يقف قرب البوابة الحجرية في نهاية طريق الفيلا الطويل الذي تَحُدُّه أشجار السَّرو. كل يوم في التاسعة تمامًا أو بعدها بقليل آتي على الدَّرب البالغ أربعمائة ياردة فيلوِّح هو بذراعيه ثم يتظاهر بالنظر إلى ساعة على معصمه الصغير وكأنه يحسب لي الوقت.

وقد لاحظت ذات يوم أنه لم يكن الوحيد الذي كان يراقبني وأنا أقود الدراجة ولِفاعٌ أخضر طويلٌ حول عنقي وحقيبةٌ على كتفي. غير مرئيَّة من الصبي في طابق أعلى في البناية التي وراءه، كانت هناك هيئة شخص في النافذة، وإذ أصل إلى البوابة الحجرية تختفي. لم أستطع القول من كان. في اليوم التالي، رأيته مرَّة أخرى، ذلك الشبح الفريد، ولذا لوَّحتُ له. وبعد ذلك لم أرَه في النافذة مجدَّدًا.

كان عملًا كثيرًا وشاقًا في المعهد. كانت اللوحات والبُسُط المزخرفة والمنحوتات تصل بسرعة كبيرة، جميعها بحاجة إلى أن تُفهرَس. كان هناك أيضًا عمل ينبغي إنجازه في إعادة تنظيم الحدائق، مع السيدة جونسون وهي تحاول إعادتها إلى طرازها (المديشي)[54] الأصلي. ولذا كان هناك عَدوٌ كثير بين الرَّدَه والشُرَف وجدال كبير بين عمَّال الحديقة الذين جُلِبوا من الحقول من سائر أرجاء أوروبا، وهكذا كنَّا نحن المترجمين نسارع إلى المساعدة في نقل الآراء والمضايقات.

بين حين وآخر كان هوراس وروز جونسون يظهران مثل إلهين.

(54) نسبة إلى آل مديشي، إحدى أشهر عائلات فلورنسا المعروفة برعايتها للفن والفنانين بين القرنين الخامس عشر والثامن عشر.

كانا إمَّا يُجَوِّلان في المكاتب وإمَّا يسافران بغتةً إلى نابلس أو حتى إلى الشرق الأقصى. لقد كانا يأتيان إلى أماكن عملنا بطريقة مختلفة تمامًا عن طريقة زيارة ابنهما (كلايف)، فقد كان دخوله مثل صَدَفة صغيرة تتدحرج مصادفة، ويمكث هناك حينًا من الوقت حتَّى قبل أن ندرك وجوده. ذات مرَّة كنت أهبط السلالم إلى القاعة الكبرى المستديرة ورأيته منحنيًا يمشط بالفرشاة صورة كلب في الأجَمَة في النصف السفلي من أحد البُسُط المعلَّقة، كان يُطلق عليها: "فِردورا مع كلب". من (فلاندرز)[55] القرن السادس عشر. لقد أحببتُ القطعة. كانت تُدْفئ القاعة الدائرية الكبيرة وتُؤْنسُها. على أيَّة حال، أمسك الصبي بفرشاة كلب وراح برفق بالغ يمشط معطف الكلب. كان بساطًا ناعمًا، قطعة كلاسيكية بحياكة ريفية من هولندا.

قلتُ: "كن لطيفًا جدًا يا كلايف، إنها ثمينة."

قال: "إنني كذلك."

كان الوقت صيفًا، ولم يكن للصبي كلب في هذه الفيلا، حتى في هذه الطوابق الشاسعة. كان الأبوان مسافرين، أحدهما كان يحاول الوصول إلى الخرطوم، مَن يعلم لِمَ، أو عن أيَّة قطعة فنيَّة يبحث. فكَّرت أنَّ غياب أبٍ عن صبي في السابعة يبدو كأنه قرون، وتعجَّبت ماذا يعني له المكان المحيطُ. طفل ينظر إلى مشهد أو لوحة ويرى شيئًا مختلفًا تمامًا عمَّا يراه الأب. لقد رأى الصبي كلبًا لا يملكه. هذا كلُّ شيء.

كان معظم البُسُط في الفيلا رمزيًا، الدينية منها كانت مثقلة بالأيقونات والأمثال. أما الدنيوية (التي كانت بينها فِردورا مع كلب) فكانت نسخًا من الفردوس الأرضي أو قوى الحب الخطِرة أو الخيِّرة، مصوَّرة عادة في مشاهد صيد. وإذن كان الكلب في البساط المزخرف في الحقيقة صائدَ الخنزير البرِّيّ. لوحة أخرى تُظهر صقرًا ينقضُّ على حمامة عاليًا في سماء زرقاء صافية؛ مثال على "الاحتلال" الذي يأتي مع الحب. الحب بوصفه قتلًا آنذاك، أو إبادة الطرف الأضعف. ولكنَّكِ حين ترين

(55) منطقة يتحدَّث أهلها الهولندية، تقع في الجزء الشمالي من بلجيكا، اشتهرت منذ القرون الوسطى بإنتاج البُسُط.

هـذه الأعمـال معلَّقـة في القاعـة المستديرة أو في الغـرف الواسـعة ولكـن البـاردة، تريـن غرضهـا الحقيقـي، وهـو جلـب حديقـة إلـى منـزل حجـري عـار. تلـك كانـت بُسُـط مزخرفـة حِيكَـت في عَلالِـيّ بـاردةٍ في قريـة شـمالية مـا، في أماكـن لعلَّهـا لـم تشـهد قـطّ خنزيـرًا بريًّـا أو حمامـة أو تلـك النباتـات المُورِقـة التـي تظهـر علـى البُسُـط. لقـد كانـت جميلـة في هـذا السـياق الجديـد. لهـا بهـاءٌ. كانـت الألـوان المسـتخدمة متواضعـة، ألوانًـا خلفيَّـة، فـإذا مشـت جميلـة فلورنسـية بضـع خطـوات أمـام أحدهـا فقـد تبـدو بـارزة بسـببها. أو أنَّ البُسُـط تبـدو في بعـض الأحيـان سياسـية لعلاقتهـا بالملكيـة أو المكانـة. إنَّهـا تُبـرز الشِّـعار المِدِيْشِيّ، بِكُـرات النظـام الشمسـي الخمـس الحمـراء، وكذلـك الكُـرة الزرقـاء التـي أُضيفـت بعـد أن تحالفـت العائلتـان المِدِيْشِـيَّةُ والفرنسـية.

"هذا الفن يمنح إحساسًا بالأمان، أليس كذلك؟"

كنـت وهـوراس في غرفـة (كابـون) محاطَيْن بلوحاتهـا الجِصِّيَّة حـين أدركـتُ أنـه كان يخاطبنـي مباشـرة. كنـت أعمـل هنـاك منـذ شـهر ولـم يعتـرف بوجـودي قـطُّ. امتـدَّت يـده وكأنَّمـا لتقطـف طائـرًا ملوَّنًـا مـن سـماء اللوحـة الزرقـاء.

"لكـنَّ الفـن غيـرُ آمِـن أبـدًا. إنَّ هـذا كلَّـه ليـس إلَّا غرفـة صغيـرة واحـدة في حيـاة." لرجـل يفتـرض أنـه يحـب الفـن، شـعرتُ أنـه يحتقـره.

"تعالَـيْ معـي." وأمسـك مرفقـي بحـذر، بدِقَّـة، وكأنَّمـا هـو المكان الوحيـد في علـم التشـريح الـذي يُقبَـل لَمْسُـه اجتماعيًـا ومـن ثـمَّ تملُّكه. سـار بي في الردهـة إلـى أن صرنـا في القاعـة المسـتديرة، حيـث عُلِّـق بسـاط يبلـغ طولـه سـتين قدمًـا. رفـع إحـدى زوايـاه وأبقاهـا مرفوعـة حتـى يمكنني النظـر أسـفلها حيـث كانـت الألـوان بغتـةً برَّاقـة وقويَّـة.

"هنا تكمن القوة، أترين. في الأسفل."

ابتعـد عـن البسـاط إلـى مركـز القاعـة الدائريـة وهـو يعـرف أنَّ صوتـه سـيصل إلـى المحيـط وكذلـك عاليًـا نحـو السـقف البعيـد.

"لعـلَّ أكثـر مـن مائـة امـرأة اشـتغلن بهـذا عامًـا. صـارعـن ليحظَيْن

بفرصة الاشتغال به. إنَّ هذا الشيء كان يطعمهن. هذا الشيء أبقاهنَّ على قيد الحياة في عام 1530 في أثناء شتاء فلاندرز. ذلك ما يمنح هذه اللوحة الحسَّاسة الحقيقة والعمق."

انتظر بصمت إلى أن انضممت إليه.

"إذن أخبريني يا برِيتا، برِيتا، أصحيح؟ من صنع هذا؟ مائة امرأة بأيديهن الباردة المتشقِّقة؟ الرجل الذي تخيَّل هذا المشهد؟ إنَّ ما صنع هذا كان ببساطةٍ عامًا واحدًا ومكانًا وحسب. لقد كان زمنًا الطريقةُ الوحيدة فيه لمعرفة فنَّان كانت بتحديد المكان الذي أتى منه أو المكان الذي انتهى إلى العمل فيه. إنَّ المدن تدَّعي حقَّها في نصف فنِّ أوروبا العظيم. انظري هنا، يمكنك أن ترَيْ علامة مدينة (أَوُدْنارْدا). ولكن بطبيعة الحال، يجب أن يضع المرء في الاعتبار أيضًا أيًا من المِديْشيِّين ابتاعها لتكون ثروة صغيرة للأمة، ونقلها إلى إيطاليا وحماها الحرَّاس وقطَّاع الطرق آلاف الأميال. . . ."

حينما تحدَّث على هذا النحو كان بمستطاعي أن أنزلق بسهولة إلى جيبه المُطَمْئِن. لقد كنت صغيرة جدًا حين تحدَّث إليَّ أوَّل مرَّة. الحقيقة أنَّ ذاك الرجل بذلك الضرب من القوة التي تأتي مع المال والمعرفة، قد ساد الكون. ذلك يتيح لهم حكمةً يسيرة. بيْد أنَّ أشخاصًا كهؤلاء يغلقون الأبواب في وجهك. داخل عالم كهذا العالم هناك رموز، غرف يجب أن لا تدخليها. في حياتهم اليومية ثمَّة دومًا كوب دم في مكان ما. كان يدرك ذلك. لقد عرف هوراس جونسون أيَّ صنف من الحيوانات كان يمتطي. ثمَّة وحشيَّة تأتي مع معرفة كهذه. لم أعرفها حينها. ليس في ذلك الأصيل حينما قادني إلى القاعة المستديرة ممسكًا بمرفقي فقط، وبتلك اليد نفسها رافعًا زاوية البساط وكأنها تنُّورة خادمة ليكشف الأسفل البرَّاق.

واصلت العيش في ذلك العالم ثلاثة مواسم، وفي نهاية المطاف

اكتشفت أنني لم أتحكّم في أيٍّ مسار من المسارات التي حسبت أنني اخترتها بِحُرِّيَّة. كنت أجهل الأبواب الخفيَّة والخنادق بين الأثرياء. كنت أجهل أنَّ رجلًا كهوراس كان يعامِل حتى من يحبهم وأولئك الذين كان يرغب في وجودهم بحضوره بالطريقة نفسها التي لا بدَّ أنَّه عامَل بها أعداءه، واضعًا إيَّاهم في وضع لا مجال فيه للمعاملة بالمثل.

في (سِيينا)، إذا ذهبتِ إلى زاوية (ڤِيا دِل مورو) و(ڤِيا سالُوسْتيو باندينى) ونظرتِ عاليًا، فيمكنكِ أن تقرئي أبيات دانتي عن "المَطْهَر":

"فأجاب: إنَّه بروفنتزان سالفاني

وهو هنا لأنه ادَّعى ذات يوم

أنه سيضع سيينا بكاملها بين يديه"[56]

وعلى قمَّة (ڤِيا ڤالِروزي) حيث تلاقي (ڤِيا مونتانيني)، تجدين مكتوبًا على الحجر الأصفر:

"ما كنتُ حكيمة مع أنَّ الاسم الذي أُعطيتُ

هو سابيا؛ فلقد كنت أكثر سعادة

برزايا الغير ممَّا بحظوظي."[57]

في أعظم مراكز القوة تجدين أنَّ التنافس لا يقوم كثيرًا على الفوز، وإنَّما على منع عدوك من تحقيق ما يريده حقًّا.

* * *

في أحد أعياد الميلاد كان هناك حفل تنكُّريٌّ للموظفين، وفي أثنائه شعرت به بغتة وهو يحيط بي في الباحة المرصوفة شبه الفارغة. لقد أتيت

(56) دانتي ألغييري، الكوميديا الإلهيَّة، ترجمة كاظم جهاد، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 2002، الطبعة الأولى، ص 625.

(57) المصدر السابق، ص 245.

بوصفي (مارسيل بروست)، شعري الأشقر مخبّأ وألصقتُ شاربًا رفيعًا، ووضعت قبعة. أكان هذا ما أثار اهتمامه؟ هل أتاح له هذا إخفاء نيّاته؟

سأل إن كنت أريده أن يحضر إليّ شيئًا. أجبتُ: "لا شيء."

"هل تودّين الرّقص في شوارع مدن أوروبا العظيمة؟"

ضحكتُ. قلتُ: "لديَّ غرفتي الصغيرة المبطّنة بالفلّين، لعلَّ ذلك كاف."

"فهمت. إذن دعيني أرسمك. كما أنت الآن. هل رسمك أحد من قبل؟"

قلت أنه لم يرسمني أحد.

"تستطيعين ارتداء لفاعك الأخضر ذاك."

وهكذا بدأ الأمر، بي أنا أخطو إلى وعيه مرتدية ثياب رجل. وينبغي أن أخبركِ بأنه ربّما ما تزال هناك صورة رسمها لي في إحدى خزائن قبو تلك الفيلا. في تلك الصورة غير المكتملة ربّما كنت بثيابي كلّها، ولكن بعد المضاجعة. مع أنني بدوت محتشمة المظهر، مثل وريثة ريفيّة صغيرة خرقاء، أو كابنة صديق بريئة.

كان بطبيعة الحال هو الشبح الذي كان يراقبني من النوافذ العلوية وأنا أقود دراجتي إلى العمل كلَّ صباح. لقد تأنّى باحثًا عني. ثم استمر في ذلك بالحركة البطيئة نفسها. كان يتخلّل رسمه أحاديث لا تنتهي: معرفته بالأصباغ، فنّ التصوير الجِصّيّ، فضائل المرمر. وأنا، لكي أتردّد في بداية هذه المغازلة، كنت أضع في الأيام القليلة الأولى شاربي البروستيّ، فإذا رحّب بي في المرسم كان عليه أن يعانقني ويقبّلني والشارب بيننا. لقد ارتديته في بعض الأيام وأنا برفقته ناسيةً أني أضعه في أثناء حديثنا وفي أثناء مشاطرتي

إيَّاه قصص صِباي. كلَّ تلك المعلومات قدَّمتها لفضوله الكبير وأنا ناعسة.

لقد كان حكيمًا بقدر ما كان ذكيًا. اتَّخذني صديقة له. كان أكبر سنًّا، ومهارات الأكبر سنًّا مختلفة، تبدو أكثر أناقة ربَّما. ولم يكن لي عاشق أصغر سنًّا لأقارنه به، أو في الواقع بأيٍّ عاشق. كل شيء كان يحدث بين مدٍّ وجزر، بقدر ما يكون الحديث يكون الكشف الجسدي. كان يزيح اللِّفاع الأخضر عن عنقي ما أن أدخل المرسم، ثم ذات أصيل، حين كان يومًا حارقًا من أيام أغسطس تقدَّم أكثر. خطوة صغيرة واحدة. لعلَّه كان سحر كلماته، أو تعليمي. اكتشفت كيف أنثني ظهري العاري فوقه، كيف أذهب إلى أبعد مما بدا في البدء مجرَّد ألم، إلى أن أصبح حتى ذلك عادة من عادات رغبتنا.

أعلم قطعًا أنَّ ثمَّة طقسًا لذلك. بيْد أنَّ البلاد كانت في نظري آسِرة، هذيانيَّة، صادمة، زاخرة بالأذواق التي ينبغي تقبُّلها وإرضاؤها. أخذت أتنقَّل في ما بعد بين جنبات ذلك المرسم المؤنَّث تأثيثًا فاخرًا، بَشَرَتي، "أصباغي"، يحييها الهواء المتسلِّل عبر الكُوَى. مرتديةً جوربين وحسب، كنت أسير في المكان وألمس بظلٍّ يدي تلك الرسوم المحتشمة السالفة التي أنجزها عني. كثيرًا ما كنت أشعر أنني وحيدة تمامًا في الغرفة، وكأنه لم يكن هناك يراقبني ويبتلع حضوري، إنَّه شيء فُضَّ للمرة الأولى في هذه الغرفة. لقد كنت أتعثَّر في ذلك المزيج من المعرفة والرَّغبة. ثقل ذراعه، ثقله كاملًا، أصواتي مقابل صوت عاشقي، يا له من ضوءٍ شحيحٍ تطلَّبه الأمر للسقوط على كتف شخص في لوحة إيحاءً بالألم أو الكتمان! كم كان دانيًا كأس (كارافاجيو)[58] الموضوع على حافَّة المائدة ليوحي بتوتُّر السقوط!

---

(58) رسَّام إيطالي شهير.

أخذت أقرأ رسالة برِينِتا لاسْكِتِي حتى الأصيل، قابضًا لهب زمن آخر، تفاصيل ماضٍ لا يزال مشتعلًا في ذاكرتها. رسالة خاصة وكثيفة للغاية، بصوت يختلف عن ذاك الصوت الذي توقَّعت، فشعرت أنها كُتبت لقارئ متخيَّل.

كان ذلك حين نَمَت روحي، في مرسمه في (ڤِيا بانيكال)، حيث بدت أجراس المدينة نداءً لإعادة النظام في أثناء ساعة اقترافنا جُرمنا. نظر إليَّ وأنا منحنية فوقه. نظر فوق كتفي العاري وأنا أتصفَّح أحد كتبه الثقيلة عن الفن. حين رفعت ناظري رأيت لوحتنا المنعكسة في المرآة وتذكَّرت لحظة مشابهة عن ابنه وهو يقرأ على أريكة كبيرة في غرفة كابون، في حين كان هوراس — كأب هذه المرة — يقف خلف الصبي ناظرًا إليه. كنَّا الشخص ذاته، أنا وذاك الصبي، تحت سيطرة الأب.

في ذلك اليوم، على متن الأُورُونَسي، لِمَ دعوتكِ إلى مقصورتي مع قريبكِ الصغير؟ في أثناء الرحلة كنت أراقبك وخشيت أن تكوني أنت الأخرى عالقةً في موقف ما. لقد أدركت سُهولته، وإلى أين كنت تمضين. بيْد أنني لم أكن على يقين. بدلًا من ذلك، حذَّرت قريبك من البارون. ما لم أدركه تمام الإدراك أو أعرفه في ذلك الأصيل هو أنَّ من كان مهدَّدًا بالخطر هو أنتِ. لقد اخترتُ حماية الطفل الخطأ. لِمَ لَمْ أرَ الخطر؟

أرى حياتي في فلورنسا عبر زجاج متصدِّع يشوِّش سعادة تلك الأيام بسخرية قَدَرِيَّة. كنت بعد ممارستي الحبَّ معه بطرقه المتعدِّدة أرقبه. ضوء الشمس المستطيل النازل من الحائط الشرقي إلى جسده، كلُّ ذلك

الشعر الذي لم أره في جسد رجل من قبل، كأنّه السّاطير[59]، شعرت أنني عايشت ضربًا آخر من الكائنات، نشأ في الغابة. اللفاع الأخضر حول كتفيَّ الإنكليزيين، وأنا أمشي جنبًا إلى جنب مع رائحة الألوان والرائحة الكستنائية لممارسة حبّنا. خِلْتُ أنني كنت أُحَبُّ لأنني تغيَّرت.

كان بين الحين والآخر يجلب بعض اللوحات، شيئًا يابانيًا، أو رسمًا نفيسًا ابتاعه بما يقدَّر بثروة. أخذ سبَّابتي، تلك التي داعبتْه قبل نصف ساعة بشعور حميم، وراح يقودها فوق حدود طَبَق أو جسر أو ظهر قطة، ما زلت أتذكَّر بصورة محدَّدة رسمًا لِحِجْر امرأة ويديها تتشبَّثان بقطة تقاوم. مستخدمًا أصبعي راح يتبع أثر الخطوط وكأنما يرسمها، أصبعي، فرشاته التي يحاول المسح بها في مواجهة الخلود.

سألني عمَّا أفعل حين لا أكون في العمل، وجعلني أصف غرفتي الصغيرة التي لن يزورها. كان فضوليًا إزاء أي مكان آخر أذهب إليه، وما الذي يثير حماستي. كانت هناك مغازلة مبدئية عندما كنت في المدرسة... بيْد أنَّ الأشياء التي كنت أخبره بها بدأت تنفد في الواقع. ثمَّ ذات أصيل تذكَّرت الحدث اللطيف مع كلايف والبساط المزخرف. أخبرته عن اللحظة التي هبطت فيها السلالم الدائرية إلى القاعة الكبرى المستديرة ورأيته يمشط بالفرشاة برفق معطف كلب كان يقف في الأجمة.

كان هوراس يصغي إليَّ نصف إصغاء فقط. ولا بد أنَّه خال في البداية أنني كنت أصف واقعًا، ثم تجمَّد وقال: "أيُّ كلب؟"

كانت القاعدة بيننا، قاعدته، أن لا تكون بيننا معرفة أو أثر خارج المرسم أبعد من ساعاتنا هناك. إن أُلقِي حصًى، فينبغي أن يسقط

(59) إله من آلهة الغابات عند الإغريق.

في الماء بصمت، ومن دون دائرة واحدة مُوسَّعة. في الواقع عندما أكون في العمل قلَّما كنت أراه. كنت أشارك وقت الشاي أشخاصًا آخرين من العاملين، وآخذ غدائي إلى شرفة الحديقة الثانية، فيميل عليَّ ذلك التمثال الضخم الغاضب. كنت أحبُّ أن أبقى دون تشويش، وإن أمكن أقرأ في ساعة فراغي. حدث عندما كنت أسترخي هناك في يوم من أيام الخميس أن بدأت أسمع تنفُّسًا شديد الاهتياج، أحد ما في مكان قريب كان يحاول البكاء أو حتى العواء، إلا أنَّ كل ما كان يمكنه التعبير عنه كان هذا التَّنفُّس المتكرِّر المختلّ. انتصبت واقفة، تبعت الصوت، ووجدت الصبي. لا بدَّ أنَّ أباه عاقبه. حين رآني احمرَّ وجهه وركض مبتعدًا عني وكأنَّني سبَّبت له شيئًا ما. وقطعًا فعلت. لقد كانت تلك قصتي القصيرة عنه والكلب قبل المضاجعة.

في أصيل اليوم التالي شاجرتُ هوراس بشأن خيانته، أخذت أعوي بالطريقة التي لم تتأتَّ لابنه. لم أكن ألهث. لقد هيَّأت غضبي وقد جئت لأجرحه بأيَّة طريقة أستطيعها بسبب ما فعله بالصبي. رأيت حقيقته، مستبدٌّ متخفٌّ في قوته وسلطته المهذَّبتيْن. وعرفت أنه سينسلُّ على ذلك النحو بين الناس طوال حياته، لا يتعلَّم شيئًا. عندما وجدت أنَّ كلماتي لم تجرحه ألقيت ذراعي إلى الخلف ثم صوبه، فضمَّ قبضتي وأمالها نحوي. اخترق المقص الذي كنت أحمله جانب بطني بكل القوة والكُره اللذين اندفعت بهما نحوه. كان سيدَّعي بلا ريب أنه قام وحسب بتحويل فعل الغضب، الجنون. انحنى جسدي إلى نصفين، رأسي وشعري كانا تقريبًا على عقبيَّ، والمقص لا يزال داخلي. كنت صامتة. لم أكن أتحرَّك وأكثر من ذلك كنت أرفض البكاء. كنت مثل الصبي تمامًا. حاول هوراس أن يسحبني إلى الأعلى فتشبثت بساقيَّ. احتجت إلى

أن أبقى منثنِية لكي أكون هدفًا صغيرًا ضده. ارتبت إن كان ثمَّة إثارة فيه مما حدث، ولو أبديت استجابة مختلفة تضمنت بكاءً يائسًا وتشبثًا به لكنَّا حاولنا ممارسة الحُبِّ مرة ثانية، ربَّما، مرَّةً أخيرة، وكأنما لنرسِّخ انتهاءنا من الماضي. كان سيعرف حينها أنَّ الأمر انتهى بفاعلية. ذلك أنه ما كان ليسمح لنفسه بأن يكون في وضع يُكرِهه على الاعتماد على شخص مثلي ثانية، شخص يحمل هذا الرأي الواضح عنه.

"دعيني أضمِّده."

وتخيَّلته يفتح قميصي لينظر إلى الدم في تدفقه النابض الرقيق على بطني الأبيض. نهضت ببطء وخرجت من مرسمه. وقفت في المدخل نصف المضاء. كنت أتعرَّق. نظرت إلى الأسفل وسحبت المقص وما أن فعلت ذلك حتى أضاءت المصابيح الموقَّتة تلقائيًا من حولي، وقد كنت أكثر وحدة حتى في الظلام. وقفت هناك دقيقة أخرى متوقِّعة شيئًا ما. بيْد أنَّه لم يخرج قطُّ.

منذ بضعةَ أسابيع كانت هناك استعدادات في فيلا أورتنسيا احتفالًا بانقلاب الشمس الصَّيفيّ. كان متوقَّعًا حضور ضيوف من المدن المجاورة، إلى جانب فنانين ونقَّاد وأفراد العائلة ومواطنين من فلورنسا، وجميعنا نحن العاملين في الأرشيف أو في الحدائق. كانت بادرة سنوية منه ومن زوجته إزاء المجتمع. إنها تدلُّ على نهاية الموسم. في أثناء شهور الصيف الحارَّة التي تعقب الحفل تعود العائلة إلى أمريكا أو تسافر مجدَّدًا، شاقَّة طريقها عبر الدُّوقيَّات[60] الرُّوسيَّة. لم تكن حرارة الصيف مريحة حتى في الغرف الحجرية العلوية لهذه الفيلا، حتى في حدائقها الظليلة.

(60) الدُّوقيَّة: ولاية صغيرة أميرها دوق.

استغرق الحفل يومين، وكنت أستلقي على فراشي متعجِّبة إن كنت سأذهب إلى الحفل أم لا. هل سأؤذيه وأؤذي نفسي أكثر إذا ما ذهبت أو لم أذهب؟ لقد "ضمَّدت" جرحي – يا لها من كلمة أنيقة! – فوق مغسلة صغيرة بارد ماؤها. لم يكن عملًا صحيحًا ولا حكيمًا وستبقى النَّدبة فيَّ إلى الأبد. كان العشَّاق الذين عرفوني في ما بعد يتوقَّفون أمامها ويتظاهرون بأنها جميلة أو بأنها ليست ذات أهمية. ثم يطلعونني على ندوبهم، لم يكن أيٌّ منها دراميًا كنَدْبتي.

خرجت مبتعدة عن مدخله المظلم ذاك في ڤِيا بانيكال ورحت أبحث عن صيدلي. أذكر أنني وجدت واحدًا ووصفت الجرح كـ"قَطْع عميق."

سأل: "ما مدى خطورته؟"

قلتُ: "عميق. كان حادثًا."

أعطاني شيئًا من عائلة الكبريت، إضافة إلى ضمائد وضواغط ومعقِّم سائل، شيء بالمستوى نفسه الذي كان يستخدم في حرب القِرْم[61]، كما أظن، ليس أفضل من ذلك. لم أخبره بأنها كانت لي بالرَّغم من أنني لا بدَّ بدوت شاحبة، ولعلَّني كنت أترنَّح. شعرت بلا يقيني من كل شيء. كل ما كان لديَّ إيطاليَّتي القويَّة، ولذا ركَّزت في ذلك. وأخذ يستأنف الحديث، لعلَّه كان يودُّ التَّيقُّن إن كنت على ما يرام. نظرت إلى الأسفل إلى نقطة واحدة وكان ثمَّة دم كثيف على تنورتي.

مشيت مسافة طويلة إلى المنزل. مكثت في الفراش معظم ذلك المساء والليلة التي أعقبته. لم أستعمل أيَّ شيء من الدواء. أسقطت الحزمة

(61) حرب قامت بين بريطانيا العظمى وفرنسا وتركيا وسردينيا من جهة والإمبراطورية الروسية من جهة أخرى في شبه جزيرة القِرْم في عام 1853.

على الأرض وحسب. استلقيت على السرير وحسب، وأردت التفكير في كل شيء في الظلام. الشيء الذي مررت به توًا. إن كان ثمَّة مستقبل لي. لم يكن هو جزءًا من الجدل. أحسب أنني هنا صرت نفسي.

في اليوم التالي بالكاد استطعت التَّحرُّك. بيْد أنني أرغمت نفسي على النهوض والوقوف قرب المغسلة التي كان إلى جوارها مرآة ضيِّقة طويلة. سحبت القميص والتنورة التي أصبحت ملتصقة بجسدي إلى أن انكشف الجرح. دهنت بالمرهم الذي أعطانيه الصيدلي، ثم عدت إلى السرير تاركة جلدي مكشوفًا للهواء. رأيت أحلامًا كثيرة. وكان ثمَّة نقاش صاخب مع نفسي. نهضت ونظرت في المرآة في ضوء الأصيل. توقَّف النَّزْف. سأكون على ما يرام. لن أموت مُدانة النفس. وسأذهب إلى حفل انقلاب شمس الصيف الذي لا يزال يبعد يومًا. لن أذهب. سأذهب.

وصلت متأخِّرة، وقد تعمَّدت أن تفوتني كلمات الترحيب. كنت أمشي ببطء والألم يمزِّق جنبي مع كل خطوة. مع ذلك أصغيت وتابعت صوت موسيقى الحجرة[62]. لقد كانوا على الخشبة الصغيرة، (تِياترينو)[63]، "المسرح الصغير" خلف الشرفة الثانية. طالما أحببت هذا الموقع، مكان يلتقي فيه الجمهور والعازفون على قدم المساواة. وراء المجتمعين خلف الأشجار المضاءة تمامًا كانت هناك عازفة بيانو وعازفة تشيلُّلو. وفي الحركة الثالثة وقد اندمجت الآلات كلُّها وانسابت الموسيقى عبر الحديقة مثل ريح مأمورة وحملتنا بين ذراعيها، ابتهجتُ بغتةً. شعرت

(62) نوع من الموسيقى الكلاسيكية، تُؤدَّى بواسطة عدد محدود من العازفين، وقد كانت تُؤدَّى في حجرات داخل القصور.

(63) في الأصل بالإيطالية Teatrino

بالاحتواء وكأنّني أرتدي معطفًا من الموسيقى.

نظرت حولي، إلى العائلات، الموظفين، المشاهير، الذين مُنحوا هذه الهِبة، ثم رأيت هوراس ينصت إلى الموسيقى المتصلة. بدا وكأنه ينعم النظر فيها. كل شيء آخر بدا مختفيًا من أجله. ثم أدركت أنه كان يركّز في عازفة التّشيلّلو، امرأة بدت مرتبطة تمامًا بتقنية فنّها وروحه، ورأيت أن لا شيء كان يمكنه أن يقطع تحديقه. خِلْتُ في البداية أنها كانت فريسته الجنسيَّة. بيد أنَّ هذه، عليَّ أن أعترف، كانت أكثر من ذلك. كان يمكن أن يفتتن هوراس بسهولة بعازفة البيانو التي راحت أصابعها الماهرة تسرع جنبًا إلى جنب مع موسيقى التّشيلّلو وتحمِلها دون أيّة جاذبية أرضية، كان عمل مهندِس بقدر ما كان عمل منوِّم مغناطيسي. كان فنّهما هو هذه المهارة المشتركة المؤلَّفة من أسلاك وبراغٍ وصمغ وأوتار صغيرة وسرعة مكتسبة. هذه الأشياء أرْسَخَتْ في الأرض عازفةَ التّشيلّلو التي تَجُلُّ عن الوصف وهي في ثوبها الأسود الحِسّيّ. وقد جعلتني أشعر برضا عميق بأنها في ملكوت لا يستطيع هوراس بلوغه أبدًا، بكل قوته وثرائه. بمستطاعه أن يغويها ويستأجرها ويفتنها بظرافته. يمكنه أن يأخذها ويرقص حولها، بيْد أنه لن يستطيع بلوغَ مكانها مطلقًا.

في أسفل الصفحة الأخيرة التي كتبَتَها الآنسة لاسْكِتِي قبل أعوام سالفة، أضافت ملحوظة تقول فيها:

أين أنت يا عزيزتي إمِلِي؟ هلَّا أرسلتِ إليَّ عنوانك أو كتبتِ إليَّ؟ لقد كتبت هذه الرسالة في أثناء وجودنا على متن الأُورُونسَي. لأنني كما قلتُ أصبحت أدرك بأنك مثلما كنتُ في صباي، كنتِ تحت تأثير

سحر شخص ما. وحسبت أن بإمكاني إنقاذك. لقد رأيتك مع سَنِل من فرقة جانكُلا وبدا أنك كنت متورِّطة في أمر خطِر.

بيْد أنني لم أعطك الرسالة قطُّ. لقد خشيت... لا أعلم.

كلَّ هذه السنوات وأنا أتعجَّب من أمرك. إن كنتِ قد أصبحت حُرَّة. أعلم أنني كنت لنفسي بعضَ الوقت مُبهمةً ومريرةً إلى أن أنقذتها من تلك الحال الدائرية. "إيْأَسْ صغيرًا ولا تنظر إلى الوراء،[64]" قال رجل أيرلندي. وهذا ما فعلت.

اكتبي إليَّ

برينِتا

بعد عامين على تسلُّمي تلك الرسالة من الآنسة لاسْكِتي، كنت في كولومبيا البريطانية بضعة أيام، وتلقَّيت مكالمة هاتفية في غرفة الفندق. كانت حوالي الواحدة صباحًا.

"مايكل؟ إنها إمِلِي."

حلَّ صمت طويل إلى أن سألتها أين هي. لقد توقَّعت فارقًا في التوقيت، في مدينة أوروبية ما حيث الوقت صباحًا. بيْد أنها قالت أنها تبعد بضعة أميال وحسب في إحدى جزر الخليج. كان جليًّا أنَّها الواحدة صباحًا حيث كانت أيضًا. قالت أنَّها حاولت الاتصال بفنادق عدَّة.

"أيمكنك المجيء؟ رأيت ذاك المقال عنك في (ذي جورجيا ستريت.) أيمكنك المجيء لرؤيتي؟"

---

(64) صمويل بيكت.

"متى؟"

"غدًا؟"

وافقت، حصلت على التفاصيل، وبعد أن أنهت المكالمة استلقيت هناك في الطابق العاشر في فندق (ڤانكوڤر) عاجزًا عن النوم. "اركب العبَّارة من خليج هورسْشُو إلى جزيرة باون". العبَّارة رقم اثنين وثلاثين. سألقاك هناك."

وهكذا فعلتُ كما أخبرتني. لم أرَها منذ خمسة عشر عامًا.

ما سُمِع خِلسةً

كنَّا ما نزال في البحر الأبيض المتوسط، تفصلنا أيام عن إنكلترا. كان من المزمع أن تقدِّم فرقة جانكْلا عرضًا في الأصيل، وفي أثناء الإعادة دعت الفرقة المسافرين إلى منصتها المؤقتة للعرض جنبًا إلى جنب معها. كان أحدهم إمِلي. سرعان ما بدأت تدور حتى أصبحت في وضع أفقي وكأنَّها على وشك الطيران من قبضة سَنِل.

أُقنِع المتطوعون الآخرون مع إمِلي بأن يكونوا الطبقة العليا لهرم بشري. وما أن أصبحوا هناك في القمة حتى بدأ الهرم الحركة بتثاقل على سطح الباخرة مثل كائن ذي أكمام كثيرة. وحين بلغوا درابزين الباخرة بدأ البهالين الذي شكَّلوا الجزء السفلي للهرم بالتمايل يمنة ويسرة مثيرين الذعر في المتطوِّعين في الأعلى الذين شرعوا يصيحون إمَّا خوفًا وإمَّا بشيء من المتعة الغريبة التي اكتشفوها في أنفسهم. ثم انعطف هذا الصرح البشري - وبعضهم لا يزال يصيح - بسرعة بطيئة عائدًا نحونا. بين المتطوعين كانت إمِلي وحدها الهادئة، هي فقط من ظهرت فخورة بأدائها، وحين أُتيح لهم النزول مُنِحت هدية صغيرة. كان ثمَّة جَلَب كثير ورُفِعت فوق كتفي أحد رجال الفرقة. أخذ أصحاب مائدة القط وبينهم السيد دانيَلْز والسيد

غُونِسْكِرا وثلاثتنا نصفِّق بصخب. دنا منها سَنِل الذي كان واقفًا على نحوٍ عَرَضي على كتفي رجل آخر، ووضع سوارًا فضِّيًّا حول معصمها. جفلت حين جرح الإبزيم جلدها وكانت لحظةً حرِجة حين انثنت ركبتاها تقريبًا. رأيت على ذراعها خطًّا بطيئًا من الدَّم. أمسكها سَنِل بيد واحدة ووضع راحة يده الأخرى على جبينها لتهدئتها. أُنزِلا ودهن سَنِل بعض مرهمٍ على جرح معصمها، ورفعتْ لنا ذراعها بشجاعة لنرى السِّوار أو أيًّا كان ذاك الذي على ساعدها. أقامت فرقة جانكْلا هذا اللَّهو في وقت متأخِّر من الأصيل، وعندما انتهى عاد معظم المسافرين إلى مقصوراتهم للاستراحة استعدادًا للعشاء.

بعد ساعات حلَّ المساء. كنت وكاسْيَس على قارب النجاة ذاته الذي كنَّا عليه منذ ليلتين عندما سمعنا أنَّ إمِلِي ستقابل شخصًا ما هنا. جلسنا هناك في الظلام وسمعنا حديثًا متردِّدًا بينها وبين رجل انضم إليها. ثم في لحظة ما قال أنَّ اسمه لوسيس بِريرا. بِريرا المتخفِّي، بِريرا من قسم المخابرات الجنائية لسبب ما كان يتحدَّث إلى قريبتي ويكشف لها هُويَّته!

قالت إمِلِي: "لم أتوقَّع أن تكون أنت."

راجعتُ جميع الأصوات التي سمعتها أو صادف أن سمعتها في أثناء الرحلة. كنت على يقين من أنني لم أسمع صوت الرجل من قبل. لقد بدا الحديث عرضيًّا إلى أن سألته إمِلِي عن حال السجين. ردَّ بِريرا بنفاد صبر هازئًا بقلقها. استأنف، وسألها حتى إن كانت تعرف عن الجرائم التي اقترفها السجين.

وسمعنا إمِلِي تنصرف.

بقي السيد بِريرا هناك، تحتنا مباشرة، يذرع المكان ذهابًا وإيابًا. كان هذا من كبار الضُّبَّاط في قوَّات شرطة كولومبو وكنَّا فوقه فعلًا، قريبَين جدًّا حتى إنه كان باستطاعتنا سماعه يقدح كبريته فينطلق لهبه قبل أن يشعل سيجارته.

ثم عادت إمِلِي. قالت: "أنا آسفة." وشرعا يتحدَّثان ثانيةً.

حين سمعتُ إمِلِي تتحدَّث أوَّل مرَّة بدت متعبة، ناعسة، بالرَّغم من فضولها إزاء وضع نِيمَير. وعندما صار بِريرا نافد الصبر انصرفت مبتعدة. لم تكن ترغب باستئناف الحديث. طالما وجدت هذا فيها، كان ثمَّة حاجز محدَّد لا يمكن اجتيازه مع إمِلِي. كانت مغامِرة، مهذَّبة، بيْد أنها قد تلوذ بالصمت أيضًا وتشيح عنك في ثوانٍ. ولكنَّها رجعت الآن لسبب ما لتعيد حديثها مع بِريرا. هل كان ذلك بدافع التهذيب؟ لقد بدا لي لطفها زائفًا. تذكَّرت تعليق سَنِل سالفًا على الرجل الذي يفترض أن تقابله. "سيكون توَّاقًا إليكِ." ثم، وكأنما استجاب بِريرا لأفكاري، لا بُدَّ أنه تقدَّم قليلًا، أو لمسها، لأنها قالت: "لا، لا." أطلقت صيحة صغيرة.

تمتم قائلًا: "هذا هو السِّوار الذي فزت به اليوم، أليس كذلك؟ دعيني أرى يدك..." كان صوته صارمًا وكأنَّما يبحث عن معلومات لا يعلمها إلَّا هو. "اعْطِني يدكِ."

بدا الأمر وكأننا نستمع إلى برنامج إذاعي في الظلام. سمعناه يقول: "هذا..." كان هناك عراك. شيء ما كان يحدث. لم يقل أيٌّ منهما أيَّ شيء الآن. سمعت لهاثًا في قاربنا وشخص ما وقع. صوت أنثى كان يهمس.

أنا وكاسْيَس لم نتحرَّك. لا أعلم كم مضى من الوقت

ونحن على تلك الحال. كان وقتًا طويلًا. إلى أن توقَّف الهمس وحلَّ الهدوء. صعدنا خارجَيْن من قارب النجاة. جسدٌ كان مستلقيًا هناك، استطعت أن أرى يدَي الرجل تمسكان عنقه وكأنَّ ثمَّة جرح فيه. لا بدَّ أنه كان السيد بِريرا. بدأنا نسير نحوه، ولكن وبينما نحن نقترب انتفض الجسد. تجمَّدنا، ثم انطلقنا نعدو في الظلام.

وصلت إلى مقصورتي وجلست على السرير العلوي أنظر إلى الباب، لا أعرف ما أفعل. كاشيَس وأنا لم نتحدَّث، لم نقل كلمة. لقد عَدَوْنا وحسب. الشخص الوحيد الذي كنت سأتحدَّث إليه عادةً هو إمِلي، ولم أستطع التَّحدُّث إليها. خلت أنَّ سكِّينًا بحوزتها. لعلَّها تركته لتجلب سكِّينًا. توقَّف تفكيري كلُّه ومكثت أنظر إلى الباب. فُتِح. ودخل هَيْستِي ومعه إنفيرنْيو وتولروي وبانْستوك، فاستلقيت على السرير متظاهرًا بالنوم ورحت أستمع إليهم يتحدثون بهدوء، ثم بدأوا يتراهنون.

في مقصورة رام الدِّين جلست على الأرض مع كاشيَس. كان الوقت باكرًا، وكلانا كان يعرف أنه ينبغي لنا أن نخبر رام الدِّين عمَّا رأينا، ذلك أنَّه كان دائمًا الأهدأ والأوضح عمَّا يمكننا فعله. أخبرناه عمَّا سمعناه، وعن انصراف إمِلي ثم عودتها، وعن المشهد مع السيد بِريرا، وعن الجسد الذي رأيناه في ما بعد، واليدين المُمسكتين بالعنق المجروح. وجلس صديقنا هناك ولم يقل شيئًا، ولم يُسْدِ نُصْحًا. لقد كان مغمورًا بالحدث هو الآخر. جلسنا صامتين كما فعلنا بعد واقعة الكلب وهكتور دو سِلفا.

ثم قال رام الدِّين: "قطعًا ينبغي لك أن تتحدَّث إليها."

بيْد أنني كنت قد ذهبت إلى إمِلِي. لم تكد تقدر على بلوغ الباب لإدخالي، وفي لحظات جلست على مقعد واستسلمت للنوم مرَّةً أخرى، جسدها مسترخٍ أمامي. مِلْتُ إلى الأمام وهززتها. قالت أنَّ أحلامًا غريبة أثقلت عليها طوال الليل، لعلَّها تسمَّمت بأكل العشاء.

قلت: "جميعنا أكل الطعام ذاته. لم أتسمَّم."

"هلا أعطيتني شيئًا؟ ماء..."

جلبت إليها بعض الماء وحملتِ الكأس فوق حِجْرِها وحسب.

"كنتِ عند قوارب النجاة، أتذكرين؟"

"متى؟ دعني أنام يا مايكل."

هززتها مرة أخرى.

"ألا تذكرين أنك كنت على سطح الباخرة الليلة الفائتة؟"

"كنت هنا، أليس كذلك؟"

"وقابلتِ شخصًا ما."

تحرَّكت مستديرة على مقعدها.

"أظنُّ أنك فعلتِ شيئًا. ألا تتذكَّرين؟ أتتذكَّرين السيد بِريرا؟"

أسندت نفسها بصعوبة ونظرت إليَّ.

"هل نعرف من هو؟"

مشيت وكاسَيَس إلى المكان الذي رأينا فيه جسد السيد بِريرا آخر مرة. جثونا وبحثنا عن أي أثر للدم، ولكنَّ السطح كان نظيفًا.

عدتُّ إلى حجرتي ومكثت هناك طوال النهار. عقد ثلاثتنا العزم على الاحتفاظ بما عرفنا لأنفسنا. كان هناك بعض الفاكهة وضعه السيد هَيْستِي في الخزانة ليتناوله في أثناء لعب الورق، أكلته حتى أتجنَّب وجبة الغداء على مائدة القط.

لم أعرف إن كان ما رأيته هو ما خِلتُ أنني رأيته. لم يكن ثمَّة أحد أتحدَّث إليه. إذا تحدَّثت إلى السيد دانيَلْز أو الآنسة لاسْكِتي فإنَّ ذلك يعني خيانة معرفتي بما فعلته إمِلِي. فكَّرت في أنَّ خالي كان قاضيًا. لعلَّ بمستطاعه إنقاذ إمِلِي. أو لعلَّنا نستطيع إنقاذها إن لزمنا الصمت. في جزء من الأصيل صعدت إلى السطح (ج) وحدي، ثم عدت ونظرت خارطتي المرسومة لأرى كم تبقَّى لنا من الرحلة. لا بدَّ أنني في وقتٍ ما نمت.

سمعت الجرس يُقرَع إيذانًا بالعشاء، وبعد وقت قصير سمعت طرق رام الدِّين المُشَفَّر على باب مقصورتي وفتحته. أومأ إليَّ وذهبت معه وكاسْيَس. كان هناك عشاء في الهواء الطلق على الموائد ذات المساند، وأكلنا حيث يمكننا أن نكون وحدنا. عندما انصرفنا كان كاسْيَس يحمل كأسًا فيها شيء ما وقد امتلأت إلى حافَّتها. قال:

"أظن أنه كونياك." على سطح التَّنزُّه وجدنا مكانًا هادئًا، وبقينا هناك تحت رذاذ المطر المتقطِّع نشرب محتوى كأس كاسْيَس وكأنَّنا كنَّا نسمِّم أنفسنا.

كان الأفق ضبابيًّا، محجوبًا، ولم نستطع رؤية شيء. ثم توقَّف المطر. كان ذلك يعني أنَّ ثمَّة فرصة لِئَلَّا تُلغَى نزهة السجين الليلية. ظهوره يعني تجديد صغير للنظام لنا نحن الثلاثة. ولذا جلسنا على السطح المهجور في حين أخذ الظلام يزداد حُلْكةً.

كان الحارس الليلي يقوم بدوريَّته، وقف عند الدَّرابزين، نظر إلى الأمواج قرب الباخرة، ثم انصرف. وبعد بعض الوقت أُخرِج السجين.

كان هناك مصباح واحدٌ أو اثنان فقط في هذا الجزء من السطح ولذا لم نكن مرئيِّين. وقف مع الحارسَيْن. كانت يداه ما تزالان في أصفادهما، وكلَّما تحرَّك إلى الأمام كانت السلسلة في قدمه تنزلق بصخب على السطح وراءه. ثم وقف دون حَرَاك ريثما يربطون عنقه بسلسلة السطح الضخمة. فعلوا هذا في الظلام بحكم الإحساس والعادة. سمعناه يقول بهدوء تام: "حرِّرها." وكان علينا أن ننظر بدقة لندرك أنه كان يمسك بخناق أحد الحارسين من زاوية غريبة. انحنى السجين فوق قدميه ساحبًا الحارس معه، فانقلب على جنبه حتى يتمكَّن الحارس من فتح السلسلة المربوطة بالطوق المعدني حول عنقه. وما إن فُتِحت حتى هزَّ رأسه متحرِّرًا منها.

"ألقِ بمفاتيح قدميّ." كان الآن يتحدَّث إلى الحارس الآخر. لا بدَّ أنه كان يعرف أنَّ لدى كل منهما مجموعة مستقلَّة من المفاتيح. تحدَّث مرَّة أخرى بصوت هادئ منح الرجل العاجز قوَّة.

"المفتاح وإلَّا كسرتُ عنقه."

لم يتحرَّك الحارس الآخر ولوى نِيمَيِر جسد الحارس فبقي ساكنًا، ولعلَّه فقد وعيه. كان ثمَّة أنين. بيْد أنه لم يكن ينبعث من الحارس، وإنَّما من الفتاة الصَّمَّاء، ابنته، التي خرجت من الظلام. بدأت الغيوم تركض عابرة القمر، فانعكس مزيد من الضوء على السطح. صفا الأفق. إن كان السجين يأمُلُ الهروب في الظلام فلن يحدث ذلك.

تقدَّمت الفتاة، انحنت فوق الحارس الساكن ونظرت إلى أبيها وهزَّت رأسها. ثم تحدَّثت إلى الحارس الآخر بذلك الصوت المتعسِّر غير المستخدم. "أعطه المفتاح. لقدميه. رجاءً. سيقتله." مال الحارس نحو نِيمَيِر بالمفتاح ولم تتحرَّك هي والسجين عندما كان الرجل يعالج القفل. ثم نهض نِيمَيِر، عيناه تَثِبان وتنظران فوق الدَّرابزين نحو الأفق. حتى تلك اللحظة لا بدَّ أنَّه كان واعيًا بمساحته المُتاحة وحسب، بامتداد الحبل، أمَّا الآن فقد كان هناك إمكانُ الهرب. كانت قدماه حُرَّتين. فقط يداه كانتا مكبَّلتين معًا بالقفل أمامه. ثم خرج الحارس الليلي، رأى كلَّ شيء، وأطلق صافرته. وفجأة أخذ كل شيء يتحرَّك، وامتلأ السطح بالبحَّارة، والحرَّاس الآخرين، والمسافرين. أمسك نِيمَيِر بالفتاة وأخذ يعدو باحثًا عن مخرج. توقَّف عند درابزين مُؤخَّر الباخرة. حسبناه سيقفز، ولكنَّه استدار ونظر إلى الخلف. ولكن لم يقترب منه أحد. زحفنا خارجين من زاويتنا. لم تكن ثمَّة فائدة من الاختباء، لم تكن ثمَّة فائدة من عدم قدرتنا على المشاهدة كما ينبغي.

وقف الجميع هناك لحظةً، وأضواء نابلس أو أنَّها كانت

مارسيليا تلوح في الأفق البعيد. تحرَّك نِيمَيِر إلى الأمام مع أسونتا، وبينما هو يفعل ذلك، إذ بالحشد يتراجع إلى الوراء فتشكَّل طريق ضيِّق، ولم يكن الناس يصيحون، بل يقولون وكأنَّما يشتكون: "الفتاة! اتركها! دعها تذهب!" بيْد أنه لم يتجرَّأ أحد على اعتراض الطريق ومحاصرته بين الحشد، هذا الرجل الحافي المكبَّل ومعه ابنته. وطوال ذلك الوقت لم تصرخ الفتاة. وسط ذلك الغضب النامي بقي وجهها بلا عاطفة، فقط عيناها الكبيرتان كانتا تراقبان كل شيء ونِيمَيِر يعدو عبر هذا النفق الذي أتيح له. "اترك الفتاة!"

ثم أطلق أحدهم النار وأضاءت المصابيح في كل مكان على السطح، على البُرج فوقنا، وفي النوافذ وصالة الطعام، وانسكب هذا الضوء الوافر غير المتوقَّع مثل سائل من السطح إلى البحر. رأينا الفتاة الشاحبة بجلاء. صاح أحدهم، كانت صيحة ملفوظة بدقة: "لا تعطوه المفتاح الأخير." وسمعتُ رام الدِّين بقربي يقول بهدوء جمّ: "أعطوه المفتاح." ذلك أنه كان جليًّا أنَّ السجين كان خطِرًا على الفتاة، على كل شخص، من دون أي مفتاح كان. إن لم يكن ثمَّة أيُّ تعبير على وجه الفتاة، فإنَّ للسجين سِمةً جامحة لم نشهدها في تلك الليالي حينما كنا نراقبه يتمشَّى على السطح. في كل مرَّة يتحرَّك، يتسع الطريق الضَّيِّق للسماح له بالعبور. لقد كان محاصرًا في مساحة الحرِّيَّة المحدودة هذه، ولا مكان ليتجه إليه. ثم توقَّف، أمسك بوجه الفتاة قريبًا منه بيديه الكبيرتين. وبدأ بالعدو ثانيةً، ساحبًا إيَّاها عبر ذلك النفق من الناس. وبغتةً اندفع نحو الدَّرابزين ورفع الفتاة بين ذراعيه ووقف هناك وكأنَّما على وشك أن يقفز من الباخرة إلى البحر المظلم.

ضوء كشَّاف تحرَّك ببطء فوق الشخصين.

كانت هناك ريح تشتد لم ننتبه لها حتى الآن. كنت متشبِّثًا برام الدِّين، لكنَّ كاسْيَس تحرَّك مقتربًا من نِيمَيِر وأسونتا، الفتاة التي طالما أبدى قلقًا عليها، وكان يودُّ حمايتها. على بعد بضع أقدام مني استطعت أن أرى إِملِي. كان الصوت الذي حذَّر الجميع من إعطائه المفتاح قد بدر من السيد غِفْز، عاليًا فوقنا على البرج، وهو محاط بالأضواء. وكان المسدس الذي أطلقه في الهواء موجَّهًا الآن صوب السجين والفتاة بين ذراعيه. كان هو والقبطان إلى جانبه يصيحان بالأوامر إلى الطاقم، واهتزَّت الباخرة وأبطأت. كان باستطاعتنا سماع الموج على هيكلها. لم يتحرَّك شيء. كان هناك بعض أنوار بعيدة وحسب تُبرِز ساحلًا على ميمنة الباخرة.

في تلك اللحظات، والفتاة مرفوعة بين ذراعي أبيها، ظللت أنظر إلى الخلف إلى السيد غِفْز على البرج. لقد كان جليًا أنَّ أيَّ شيء سيحدث الآن سيكون هو من يحدِّده.

صاح: "انزل!" لكنَّ نِيمَيِر رفض. بقي حيث كان. نظر إلى البحر تحته. نظرت الفتاة إلى لا شيء. أبقى غِفز المسدَّس موجَّهًا صوب السجين. كان هناك طلق نار. وكأنَّما كإشارة ارتجَّت الباخرة وبدأت تتحرَّك إلى الأمام ثانية.

كنت أهُمُّ بالالتفات لأنظر إلى نِيمَيِر حينما رأيت إِملِي. كان وجهها ينظر باهتمام إلى شيء ما في الجزء البعيد من السطح. حرَّكت ناظري نحو ذلك الموقع، وبينما أفعل ذلك إذ بي أرى الآنسة لاسْكِتي تقذف شيئًا بيديها في البحر. لو أنني التفتُّ ثانية حتى في ما بعد، لو أنني توقَّفت، لما رأيت هذا.

كان نِيمَيِر ساكنًا تمامًا، وكأنَّه ينتظر العقاب. كانت السلسلة البالغ طولها ثمانية عشر إنشًا التي تربط يديه معًا تتدلّى أمامه. هل أخطأته الرصاصة؟ نظر صوب غِغْز الذي بدا قابضًا ذراعه. هل أخفق المسدس في إطلاق النار؟ لقد اصطدم مسدس غِغْز بالسطح أسفل البرج وأطلق طلقة في الظلام. كان الجميع تقريبًا ينظر إمَّا إلى نِيمَيِر والفتاة وإمَّا إلى البرج. بيْد أنَّ عينيَّ بقيتا مثبَّتتين على الآنسة لاسْكِتِي ورأيتها تستعيد براءتها بسرعة، وكأنَّما كانت أحد المتفرِّجين، فبدا ما رأيته وكأنَّه هلوسة. لعلَّ إشارة يد تقذف شيئًا في البحر لا تعني شيئًا. ما عدا أنَّ إمِلِي أيضًا كانت تراقبها. لعلَّه كان أحد كتبها نصف المقروءة أو لعلَّه كان مسدَّسها.

كان غِغْز يمسك ذراعه المُصابة. وكان نِيمَيِر يحافظ على اتِّزانه فوق درابزين مؤخَّر الباخرة. ثمَّ، ودون أن يحرِّر الفتاة من قبضة يديه المكبَّلتين قفز إلى البحر.

لا بدَّ أنَّ عيني إمِلِي شهدتا ذلك كلَّه بإدراك لما كان يحدث. بيْد أنها لم تقل شيئًا في ما بعد. في غدوِّها ورواحها، بعد قفزتهما تلك إلى حتفهما في محاولتهما الهرب، لم تنبس إمِلِي بكلمة. في الأسابيع السالفة كنت كثيرًا ما أراها تميل نحو أسونتا متحدِّثة إليها أو مصغية، وكنت أرى قريبتي بمعيَّة سَنِل مرارًا وتكرارًا. إلَّا أنَّه مهما كان دور إمِلِي في تلك الواقعة، فقد بقي مسكوتًا عنه خلال معظم حياتنا. هل شهدتُّ شيئًا آخر تحت سطح ما حدث تلك الليلة؟ أكان ذلك جزءًا من خيال صبي متَّقد؟ جُلْتُ في الأنحاء باحثًا عن كاسْيَس ثم اتجهت نحوه، بيْد أنَّ صديقي بدا وقد أسكته ما حدث وانسحب عني وكأني غريب.

أخبرت أحدهم مرَّةً أنَّ هذه الرحلة كانت قصَّة بريئة في شطر صغير من صباي. قصَّة بثلاثة أو أربعة أطفال وحسب في مركزها، في رحلة توحي خارطتها الواضحة ووجهتها الأكيدة بأن لا شيء يثير الخوف أو يستدعي الإيضاح. مكثت سنوات لا أكاد أتذكَّرها.

منصَّة تكسير السفن

قُرابةَ الثانية إلا ربعًا صعدت إلى متن ملكة كابلانو في خليج هورسْشُو، وريثما تغادر العبَّارة ڤانكوڤر صعدت السلالم إلى السطح المشمس. كنت أرتدي سترة ذات قَلَنْسُوَة، وتركت الريح تجلدني كيفما شاءت والعبَّارة تزمجر شاقَّةً طريقها وسط مشهد أزرق من مصابٍّ الأنهار والجبال. كانت عبَّارة صغيرة تحمل لوافت عليها قواعد تحذيرية هنا وهناك تخبرك بما ينبغي وما لا ينبغي لك فعله. هنالك أيضًا لافتة لا تسمح بصعود البهالين إلى العبَّارة، يبدو أنَّ ذلك نتيجة شجار وقع منذ بضعة أشهر. دخلت العبَّارة القناة ومكثتُ هناك في الأعلى تلطمني الريح وأنا أنظر صوب جزيرة بوين. كانت رحلة قصيرة. رسونا بعد عشرين دقيقة، وشرعوا يسمحون للمسافرين الراجلين بالخروج. تعجَّبت كيف ستبدو إمِلِي الآن. بين الحين والآخر كنت أسمع قصصًا عن مغامراتها، ذلك أنها تعلَّقت بمجموعة من الأصدقاء الجامحين في لندن في أثناء إكمالها سنتَيْها المدرسيتين الأخيرتين. لقد ألفينا أنفسنا نتحرَّك في عالمين مختلفين، وكان كلٌّ منا بعيدًا عن الآخر. آخرَ مرَّة التقينا كانت في حفل زواجها من الرجل المدعوِّ دِزْموند، حينما ثملتُ في حجرة الاستقبال ولم أبق طويلًا.

لم أعرف أحدًا وأنا أنزل على السلَّم المعدني المنحدر. لم تكن هناك في استقبالي. انتظرتُ حتى خرجت السيارات من العبَّارة. انقضت خمس دقائق، ولذا بدأت أصعد الشارع.

كانت هناك امرأة وحيدة في الموقف الصغير على الطريق. نفضت نفسها من أوراق الشجرة التي كانت تتكئ عليها. عرفتُ المشية، والإيماءات وهي تتجه بحذر نحوي. ابتسمت إمِلي.

"تعال. السيارة هناك. مرحبًا بك في عُنُق مملكتي. أحبُّ هذه العِبارة. وكأنها جزء من جسد." كانت تحاول أن لا تكون خجلى. بيد أنَّ كلانا كان خجِلًا، ولم نقل شيئًا ونحن نسير نحو السيارة. أدركت أنها ربَّما كانت تراقبني وأنا واقف هناك على المنصَّة أنظر حوالي باحثًا عنها، لتتيقَّن من أنني كنت كما توقَّعت أن تراني.

قادت السيارة سريعًا، وبعد عبورنا خلال البلدة أبطأت السيارة وأوقفتها على كتف الطريق وأطفأت المحرِّك. مالت وقبَّلتني.

"شكرًا على مجيئك."

"الواحدة صباحًا! أتهاتفين الناس دائمًا في الواحدة صباحًا؟"

"دائمًا. كلَّا. كنت أحاول العثور عليك طوال اليوم. جرَّبت قُرابة عشرة فنادق قبل أن أجد مكانك. لا بد أنك كنت خارجًا. خشيت أن ترحل قبل أن يمكننا اللقاء. أأنت على ما يرام؟"

"بلى. جائع. مدهوش من هذا كلِّه."

"يمكننا تناول الطعام في البيت. هناك غداء لنا."

سرنا على طول الطريق ثم انحرفنا إلى طريق ضيِّق باتجاه البحر. كنَّا نتجه إلى أسفل التل، ثم انعطفت إلى مسار أكثر ضيقًا

يُدعى طريق (وانْلِس). في الواقع لم يكن يستحق اسمًا. كان ثمَّة أربعة أو خمسة بيوت ريفية مطلَّة على البحر، وأوقفت السيارة إلى جانب أحدها. بدا مكانًا للعزلة، مع أنَّ أقرب جار يبعد عشرين ياردة. في الداخل، بدا البيت أصغر حجمًا، بيْد أنَّ سطحه كان يطلّ على الماء واللانهاية.

صنعت إمِلِي فطائر، فتحت علبتَي بيرة، وأشارت إليَّ أن أجلس على أحد الكراسي. ثم ألقت بنفسها على الأريكة. وبدأنا نتحدَّث فورًا عن حياتنا، سنواتها مع زوجها في أمريكا الوسطى، ثم أمريكا الجنوبية. كانت مهنته المتنقِّلة كخبير إلكترونيات تعني أنَّ أصدقاءهما يتغيَّرون كلَّ بضعة أعوام. ثم تركته. قالت أنَّ الزواج كان متعقِّلًا، وخرجت منه لأنها أدركت أنه كان "بناءً باردًا جدًّا" لتعيش فيه بقية حياتها. مضت بضع سنين على الانفصال، ولذا بإمكانها التَّحدُّث عمَّا حدث بتحكُّم يسير، راسمةً بيديها في الهواء الظروف التي عاشا تحتها، والأماكن التي عاشا فيها. بدا الأمر وكأنَّ صلة قرابتي البعيدة بإمِلِي جعلتها قادرة على أن تكون على سجيَّتها في الحديث إليّ. وهكذا رسمت حياتها لي وهي تتحدَّث. ثم صمتت وأخذ كلانا ينظر إلى الآخر.

تذكَّرت شيئًا عن إمِلِي في أثناء زواجها. كان الزواج، كما كانت تبدو حفلات الزواج في تلك الأيام، تتويجًا، هدفًا مشتركًا جليًّا. كان دِزْموند وسيمًا وإمِلِي فاتنة. كانت هناك بضعة اعتبارات أخرى للزواج الناجح في تلك الأيام. على أيَّة حال، في مرحلة ما قبل أن أغادر حفل الاستقبال صادف أن لاحظتها. كانت تتكئ على باب وتنظر إلى دِزْموند. كان ثمَّة بعدٌ في نظرتها، وكأنَّ ما تفعله الآن كان شيئًا ينبغي لها أن تفعله. ثم ما لبثت أن عادت إلى روح الاحتفال. من ذا الذي يتذكَّر

تلك الثواني القليلة في حفل الزواج؟ ولكن ذلك ما أفكِّر فيه دومًا كلَّما تذكَّرت زواجها، أنه ربَّما كان هروبًا من الفوضى، تمامًا كما حدث في زمن مضى حينما هربت من أب متردِّد سريع الغضب عبر إرسالها إلى مدرسة في بلاد أخرى. وإذن كانت هناك تلك النظرة في وجهها. وكأنها كانت تفكِّر في جدارة شيء ابتاعته أو مُنِحت إيَّاه وحسب.

وهكذا واصلت النظر إلى إمِلِي، هذه المرأة التي كانت ضربًا من الجمال الطاغي في صباي. مع أنني عرفتها أيضًا هادئة وحذِرة، حتى إن أبدت في بعض الأحيان حسَّ إنسان مغامِر. بيْد أنَّ قصص حياتها الزَّوجيَّة بأوضاعها المتعدِّدة، وشؤون القلب التي كانت، بدت نسخة مألوفة من حياة قريبتي حينما كانت على ظهر الأُورُونسَي.

هل أصبحت المرأة الراشدة التي صارت إليها بسبب ما حدث في تلك الرحلة؟ لم أعرف. لن أعرف أبدًا إلى أيِّ حدٍّ غيَّرتها تلك الرحلة. فكَّرت في ذلك في نفسي وحسب في تلك اللحظة في بيت إمِلِي الريفي في إحدى جزر الخليج حيث تقطن وحيدة وبدت تخبِّئ نفسها بعيًدا.

أخيرًا سألتُ: "أتذكرين أوقاتنا على ظهر الأُورُونسَي، الباخرة التي ركبناها؟"

لم نتحدَّث عن الرحلة قطُّ. لقد بتُّ أعتقد أنها دفنت وجودَ ما حدث تلك الليلة قرب قارب النجاة أو أنكرته بصدق. حسبما يمكنني القول، بدا أنَّ الرحلة لإمِلِي كانت مجرَّد ثلاثة أسابيع قادت إلى حياة زاخرة في إنكلترا. بدا غريبًا كم عنى لها ذلك كلُّه القليل.

"أوه بلى." صاحت وكأنما حُثَّت ومُنِحت اسمًا لكي تتذكَّر. ثم

أضافت قائلة: "أذكر أنك كنت (ياكا)[65] حقيقيًا، شيطانًا حقيقيًّا."

قلت: "كنت صغيرًا وحسب." نظرت إليَّ شزرًا وهي تفحصني. استطعت أن أرى أنها بدأت تقترب من التَّذكُّر الآن، ترى لمحة بضعة أحداث.

"أتذكَّر أنك سبَّبت الكثير من المتاعب. كان في جعبة فلافيا الكثير حقًّا. يا إلهي! فلافيا برِنْز. أتعجَّب إن كانت ما تزال على قيد الحياة...."

قلت: "أعتقد أنها تقيم في ألمانيا."

"آآآآه..." سحبت نَفَسًا. كانت تفكِّر عميقًا في نفسها.

جلسنا في غرفة معيشتها المغطَّاة جدرانها بخشب الصنوبر إلى أن حلَّ الظلام. كانت بين الحين والآخر تلتفت لتنظر إلى العبَّارات تروح وتجيء بين (سْنَغ كوف) وخليج هورسْشُو. ستُطلَق أنَّة طويلة واحدة في منتصف القناة. في هذا الحين كانت هي الأجسام الوحيدة المضاءة التي تتحرَّك في الظلمة الرمادية المُزرقَّة. قالت أنها حين تصحو في السادسة ترى عبَّارة الفجر تنزلق عبر الأفق. أدركت أنَّ هذا أصبح عالم إمِلِي، مشهدٌ في كلِّ يوم من أيامها وكلِّ مساء من أمْسِيَتِها وكلِّ ليلة من لياليها.

قالت: "تعال. لنخرجْ ونمشِ."

وهكذا بدأنا نصعد الطريق المنحدر الذي قدنا السيارة عليه منذ ساعات، وأخذنا نمشي فوق الأوراق المضطربة.

"كيف انتهى بكِ المطاف هنا؟ لم تقولي. متى جئت إلى كندا؟"

---

(65) في الأصل بالسِّنهالية yakka

"منذ ما يناهز ثلاثة أعوام. عندما انتهى الزواج أتيت إلى هنا وابتعت هذا البيت الريفي."

"ألم تفكِّري في الاتصال بي قطُّ؟"

"أوه يا مايكل، عالمك... عالمي."

"حسنًا، ها قد التقينا الآن."

"أجل."

"وإذن تعيشين وحدك."

"طالما كنتَ فضوليًّا. أجل، أقابل شخصًا ما. ماذا أستطيع أن أقول... إنه يعاني حياة شاقَّة."

أتذكَّر أنها كثيرًا ما تواجه مشكلات وتعرف أناسًا مجازفين. كان ثمَّة انحراف ممتد لِسِمَتها هذه. تذكَّرت حينما أتت إلى إنكلترا لتصبح طالبة مدرسة داخلية في مدرسة (تشلتنهام ليْدِز). كنت أراها في أثناء العُطَل، حين كانت ما تزال جزءًا من المجتمع السّريلانكي في لندن، وكان ثمَّة حبيبٌ لها يحوم حواليها. كان ثمَّة مظهرٌ من الفوضى في أصدقائها الجُدُد. وفي إحدى عطل نهاية الأسبوع في عامها الدراسي الأخير تسلَّلت من بوَّابة المدرسة وصعدت فوق مقعد دراجة نارية لأحد أصدقائها وانطلقت بين جنبات (غلوسسترشاير). في الحادث الذي وقع كُسِرت ذراعها، وعلى الإثر طُرِدت من المدرسة. ولذلك لم تعد جزءًا جديرًا بالثقة تمامًا في ذلك المجتمع الآسيوي المتماسك. وفي نهاية المطاف هجرت ذلك كلَّه بالزواج من دِزْموند. لقد كان حفل زواج سريعًا، فقد عُرض عليه منصب للعمل في الخارج كان ينتظره وسرعان ما غادرا. ثم حين انتهى زواجها في نهاية المطاف قرَّرت إمِلي لسببٍ حزينٍ ما أن تنفي نفسها في هذه الجزيرة الهادئة على الساحل

الغربي الكندي.

لا تبدو حياة حقيقية تمامًا مقارنة بما تخيَّلته وإيَّاها حينما كنَّا صغارًا. ما زلت أحتفظ بذكريات عنَّا ونحن نقود دراجتينا ويضربنا المطر الموسمي، أو عندما تجلس إِمِلي متقاطعة الساقين على سرير وتتحدَّث عن تلك المدرسة في الهند، ويداها النحيلتان البنِّيَّتان تلوِّحان لي في أثناء رقصنا.

فكَّرت في هذه اللحظات وأنا أسير إلى جانبها.

"كم ستمكث هنا في الغرب؟"

قلت: "يومًا آخر فقط. سأطير في الغد."

"أين؟ إلى أين؟"

انتابني حرج. "إلى هونولولو، في الحقيقة."

قالتها بحزن: "هون-و-لو-لوا!"

"أنا آسف."

"لا بأس. لا بأس. شكرًا على مجيئك يا مايكل."

قلت: "لقد ساعدتني مرَّة. أتذكرين؟"

لم تقل قريبتي شيئًا. سواء تذكَّرت ذلك الصباح في مقصورتها أم لم تتذكَّر. في كلتا الحالين بقيت صامتة وتركت الأمر هكذا.

"هل من شيء يمكنني أن أفعله لك؟" سألتُ ونظرت إليَّ بابتسامة تعترف بأنَّ هذه ليست بالحياة التي توقَّعتْها أو اختارتها.

"لا شيء يا مايكل. لن تجعلني أفهم هذا كلَّه. لا أظن أنه بمستطاعك أن تحبَّني لتمنحني الأمان."

انحنينا تحت أغصان شجر الأرز، عدنا على السلالم الخشبية ودخلنا البيت عبر الباب الأخضر. كان كلانا متعبًا، بيْد أننا

أردنا أن نبقى مستيقظَين. ذهبنا إلى أرضية بيتها غير المسقوفة.

"من دون العبَّارات لكنتُ ضعت. لن يكون هناك وقت أبدًا..."

صمتت برهة.

"لقد مات، أتعلم؟"

"مَن؟"

"أبي."

"آسف."

"أردت فقط أن أخبر شخصًا كان يعرفه... يعرف كيف كان. كان يفترض أن أطير عائدة لحضور جنازته. بيْد أنني لم أعد أنتمي إلى هناك. أنا مثلك."

"أخال أننا لا ننتمي إلى أيٍّ مكان."

"أتذكره؟ ألا تذكره أبدًا؟"

"بلى. لم يكن أمامك من شيء تفعلينه. أتذكَّر حدَّة طبعه. لكنه كان يحبُّك."

"لقد كنت خائفة طوال طفولتي. كانت آخر مرَّة رأيته عندما غادرت وأنا مراهقة..."

"أتذكَّر أنك سردت لي كوابيسك."

بدأت تشيح بوجهها، كأنما أرادت أن تفكِّر في الأمر وحدها الآن. كانت تشيح ولكنني لم أشأ أن أدعها تترك الماضي وشأنه. لذلك حاولت التَّحدُّث ثانية عن أيامنا على ظهر الباخرة، عمَّا حدث حين أوشكت الرحلة على الانتهاء.

"على الأُورُونسَي، أتعتقدين أنك وجدت نفسك بطريقة ما في

تلك الفتاة التي اقتربتِ منها؟ ابنة السجين. هي الأخرى كانت محاصرة بحياة أبيها."

"ذلك ممكن. بيْد أنني أظن أنني أردت مساعدتها وحسب. تعرف."

"تلك الليلة عندما كنتِ إلى جانب قارب النجاة مع الضابط المتخفّي – بِريرا – استرقتُ السمع إليكما. لقد سمعتُ ما حدث."

"حقًّا؟ لِمَ لَمْ تخبرني؟"

"أخبرتك. ذهبت إليك في صباح اليوم التالي. لم تستطيعي تذكُّر شيء. بدوت ثمِلة، نصف نائمة."

"كان يفترض أن أحاول الحصول على شيء منه... لهما. بيْد أنني كنت مشوَّشة."

"لقد قُتِل الرجل تلك الليلة. أكانت السكين بحوزتك؟"

كانت صامتة.

"لم يكن ثمَّة شخص آخر هناك."

كان كلٌّ منا قريبًا من الآخر، كنَّا متكوِّرَيْن في معطفيْنا. كنت أسمع أمواج الشاطئ في الظلام.

قالت: "بلى، كان هناك شخص ما، كانت هناك الابنة، أسونتا، وسَنِل كان قريبًا. كانا يحمياني..."

"إذن أكانا يحملان السِّكين؟ هل أعطياك إيَّاها؟"

قالت: "لا أعلم. تلك هي المسألة. لست متيقِّنة مما حدث. إنه فعل دنيء، أليس كذلك؟" رفعت ذقنها.

انتظرتها أن تقول المزيد.

"لقد بردتُّ. لندخل."

ولكن ما إن دخلنا حتى بدت وَجِلة.

"ما الذي كانا يريدان أن تأخذيه من الرجل الذي قُتل؟ من بِريرا؟"

قامت من الأريكة واتجهت إلى الثلاجة، فتحتها، وقفت هناك لحظة، ثم عادت لا تحمل شيئًا. بات جليًّا أنها كانت متوتِّرة.

"كان هناك في الظاهر مفتاحان فقط في الباخرة يفتحان قفل سلسلة السجين. الجندي الإنكليزي غِفْز كان يحمل واحدًا. السيد بِريرا يحمل الآخر. ارتاب سَنِل في أنَّ الرجل الذي تبيَّن أنه بِريرا كان مهتمًّا بي، فسألني أن أرتِّب للقائه قريبًا من قارب النجاة. في ذلك الحين، حتمًا، كان سَنِل يعرف أنني سأفعل أيَّ شيء لأجله. لقد كان يستعبدني. أحسب أنني كنت طُعْمًا."

"ومن كان؟ ظننت أنه ما من أحد كان يعرف من يكون الرجل المتخفِّي وهو يتنقَّل في الباخرة."

"كان شخصًا لم يتحدَّث إلى أحد قطُّ. كان خيَّاطَك الجالس إلى مائدة القط، غُونِسْكِرا."

"بيْد أنه لم يكن يتكلَّم قطّ. لم يكن يستطيع الكلام. وقد سمعت رجلًا يتحدَّث إليك عند قارب النجاة."

"بطريقة ما اكتشف سَنِل أنه كان الرجل المتخفِّي. لقد صادفه يتحدَّث إلى الضابط الإنكليزي. وإذن كان بإمكانه الكلام."

"حسبت أنني أستطيع إنقاذك،" كتبت الآنسة لاسْكِتي في مكان ما من رسالتها إليَّ. "بيْد أنني لقيت إِمِلي مرَّاتٍ عدَّة مع رجل فرقة جانكْلا. وبدت علاقتها به مثقلة ومحفوفة بالأخطار."

بمرور الأعوام، يكون للشظايا المحيِّرة والزوايا المفقودة من

القصص معنًى أكثر جلاءً حينما تُرى في ضوء جديد، مكان مختلف. تذكَّرت كيف تحدَّث السيد نِفل عن فصل البقايا عن السفن المفكَّكة في منصَّة تكسير السفن لمنحها دورًا وغرضا جديدَيْن. ولذا ما عدتُّ أجد نفسي مع إمِلي على جزيرة بوين، بل داخل تلك الأحداث في الماضي محاولًا استعادة ذلك النهار حينما كانت قريبتي جزءًا من ألعاب فرقة سيرك ومُنِحت سِوارًا وجُرِح معصمها. كنت أتذكَّر أيضًا ذلك الرجل الصامت الذي كان يرتدي اللِّفاع الأحمر حول عنقه، الرجل الذي خِلناه خيَّاطًا، وكيف أننا لم نره عند مائدة القط في الأيام الأخيرة من الرحلة.

قلت: "أتدرين ما الذي أتذكَّره عن السيد غُونِسْكِرا؟ أتذكَّر كم كان لطيفًا. ذلك اليوم الذي أُصبتِ فيه برضَّة قرب عينك عندما أتيتِ إلى مائدتنا، قلتِ أنَّ عصا مَضرَب الريشة ضربتك. ومدَّ هو يده ليلمسها. لعلَّه تخيَّل إلى أي حدٍّ أُصبتِ، وأنه لم يكن حادثًا على الإطلاق، وإنما شخص ما تسبَّب فيه، لعلَّه كان سَنِل حينما طلب إليك أن تفعلي ما يريد. ظننتِ أنَّ غُونِسكِرا كان منجذبًا إليك، ولكن لعلَّه كان قلقًا عليك وحسب."

"تلك الليلة عند قارب النجاة – لا يسعني التذكُّر الآن – أظنُّ أنه اقترب نحوي وأمسك بيدي. بدا خطِرًا. وسَنِل وأسونتا تقدَّما بغتة... لنتوقَّف الآن. أرجوك يا مايكل، لا أستطيع فعل هذا. حسنًا؟"

"لعلَّه لم يهاجمك. أظنُّ أنه كان يودُّ أن يعاين جرح معصمك. لا بدَّ أنه رأى سَنِل يضع السِّوار على يدك بعد واقعة الهرم، جارحًا جلدك، ثم دهنه بشيء ما. في الواقع كان هو من أراد حمايتك. ولكنه

قُتِل."

لم تقُل إمِلي شيئًا.

"حينما لم أتمكَّن من إيقاظك في صباح اليوم التالي أخذت أهزُّك، وقلت أنك شعرت بأنك مسمومة. لعلَّهم أخذوا شيئًا من حديقة السيد دانيَلْز لتخديرك أو إرباكك. كي لا تتذكَّري. كانت هناك سموم كما تعلمين."

"في تلك الحديقة الجميلة؟"

أطرقت إمِلي ناظرةً إلى يديها. تحرَّكت بغتة وحدَّقت إليَّ، وكأن كلَّ ما آمنت به، كلَّ موضعٍ مكينٍ على مرِّ السنين لم يكن إلا كذِبًا. قالت بهدوء: "لقد بقيت معتقدةً أنني أنا من قتله، لعلَّني فعلت."

قلت: "ظننت وكاسْيَس أنك قتلتِه، لقد رأينا الجسد. بيْد أنني لا أظنُّ أنك أنت من قتله."

مالت إلى الأمام على الأريكة وغطَّت وجهها بيديها. بقيت على تلك الحال لحظةً. راقبتها ولم أقل شيئًا.

"شكرًا لك."

"ولكنك كنت تساعدينهما على الهرب. ونتيجة لذلك فارق نِيمَير والفتاة الحياة."

"ربَّما."

"ماذا تقصدين بربَّما؟"

"فقط ربَّما."

غضبتُ فجأة. "الفتاة، أسونتا، كانت بانتظارها حياة بأكملها. لقد كانت طفلة."

"في السابعة عشرة. كنت في السابعة عشرة أيضًا. جميعنا

أصبح راشدًا قبل الأوان. ألا تفكّر في ذلك مطلقًا؟"

"حتّى إنها لم تصرخ."

"لم تستطع. كان المفتاح في فمها. هناك وضعته. بعد أن أُخِذ من بِريرا. ذلك ما كانا يحتاجان إليه للهرب."

صحوت وأنا على الأريكة السرير، وكانت صالة المعيشة الخالية من الستائر مفعمة بالنور. كانت إمِلِي جالسة على الكرسي ترقبني وكأنما تشهد ما أصبحتُ عليه بعد مرور السنوات، تعدِّل حكمها على الفتى العاصي الذي عاش بقربها فترة من الزمن في صباه. في لحظة ما في الليلة الفائتة أخبرتني بأنَّها قرأت كتبي، وأنَّها كلَّما تصفحتها تقضي وقتها في ربط الأحداث بعضها ببعض. ربط حدث خيالي بالقصة الأصلية التي وقعت في حضورها، أو حدث في حديقة ما كان جليًّا أنها حديقة خالي المجاورة للطريق العام. لقد بدَّل كلانا الأماكن. لم تعد هي محطَّ اهتمام المتيَّمين المهووسين. لم أعد أنا عند مائدة القط. بيْد أنَّ إمِلِي لمَّا تزل لي ذلك الوجه البعيد المنال.

ثمَّة كاتب ما، لا أستطيع تذكُّره، تحدَّث واصفًا شخصًا بأنَّ له "هِبَة مُريكة." ريبتها إزاء دفئها، هكذا كانت إمِلِي دائمًا لي. إنك تثق بها ولكنها لا تثق بنفسها. لقد كانت "لطيفة"، بيْد أنها لم تكن لترى نفسها كذلك. لم تتَّزن هذه السمات بطريقة ما بعد، أو يوافق بعضُها بعضًا.

جلست هناك، شعرها مرفوع وكانت تعانق ركبتيها. كان وجهها في نور الصباح جميلًا على نحوٍ عطوف. ماذا يعني ذلك؟ أَخالُ أنه يعني أنه بمستطاعي قراءة كل مظاهر جمالها الآن. كانت مطمئنَّة،

عَكَس وجهُها نفسَها أكثر. وقد فهمتُ كيف انطوت الجوانب المظلمة داخل سماحة النفس تلك. تلك الجوانب لم تنكر عليها أُلفَتها. لقد أدركتُ أنَّ الشخص الذي لم أقدر على إبعاده معظم حياتي قطُّ كان إمِلِي، بالرَّغم من اختفائنا وانفصالنا.

قالت: "أمامك عبَّارة تلحق بها."

"أجل."

"تعرف الآن أين أقيم، تعال لتراني."

"سأفعل."

المفتاح في فَمِه

أقلَّتني إمِلِي بسيارتها إلى الميناء وسرت نحو العبَّارة مع المسافرين الآخرين. قالت لي وداعًا في السيارة، ولكنها لم تخرج منها، بالرَّغم من أنَّ السيارة بقيت هناك ولا بدَّ أنها أخذت تراقبني وأنا أتقدَّم عبر الزجاج الأمامي الذي حجبها عني. صعدت الطابقين إلى السطح العلوي ونظرت إلى الخلف إلى الجزيرة، بيوتها الريفية المبعثرة على التل، وعند رصيف الميناء وقفت السيارة الحمراء التي تحملها بداخلها. تمايلت العبَّارة وانطلقنا. كان الجو باردًا، ولكنني بقيت هناك في السطح العلوي. رحلةٌ في عبَّارة استغرقت عشرين دقيقة بدت كأنها صدًى، كأنها أغنية قصيرة من الماضي، مثلما كانت قريبتي إمِلِي لي في هذا اليوم الأخير وهذي الليلة الأخيرة.

كان لي مرَّة صديق "تحرَّك" قلبه إثر حدث صادم رفض الاعتراف به. بعد سنوات قليلة فقط حين فحصه طبيبه من اعتلال طفيف، اكتُشِف هذا التَّغيُّر الجسدي. وقد سألتُ نفسي حينها عندما أخبرني بذلك، كم منَّا له قلب تحرَّك عن موضعه إلى زاوية مختلفة أصغر بمقدار ملّيمتر أو حتى أقل من المكان الذي كان فيه، إعادةُ وضعٍ مجهولة لنا! إمِلِي. أنا. ربما حتى كاسَيَس. كيف زاغت

مشاعرنا بدلًا من أن تواجه الآخرين مباشرة منذ ذلك الحين، فأفضت بنا إلى جهل سهل أو في بعض الأحوال إلى اكتفاء ذاتي بارد الدَّم يؤذينا؟ أهذا ما تَرَكَنا غير متيقِّنين بعْد عند مائدة من موائد القط، ننظر إلى الوراء، ننظر إلى الوراء، باحثين عن أولئك الذين ارتحلنا معهم أو تشكَّلنا بهم، حتى الآن، في زمننا؟

ثم فكَّرت أوَّل مرَّة منذ سنوات في قلب رام الدِّين الرَّاجف المتقلِّب الذي كان واعيًا به واعتنى به أيَّما اعتناء في أثناء الرحلة، وقد عامل نفسه مثل شخص في حاضنة، في حين كنتُ وكاسْيَس نعدو حوله مرِحَيْن مُجازفَيْن. لقد مضى زمن طويل جدًّا على تلك الرحلة وعلى تلك الأصائل معه في مِلْ هِلْ. ولكن، كان رام الدِّين، الفتى غير الجامح هو الذي لم تُكتَب له الحياة. وإذن ما الذي كان الأفضل لنا جميعًا، أهو الجهل أم الحذر كحذره إزاء قلوبنا؟

كنت لا أزال على سطح العبَّارة العلوي أنظر إلى الخلف من مؤخَّرها إلى الجزيرة الخضراء. متخيِّلًا إِمِلي وهي تشقُّ طريقها عائدة إلى بيتها الجديد بعيدًا جدًّا عن المكان الذي وُلدت فيه. كوخ صغير على ساحل معتدل المناخ تتشاطره أحيانًا مع رجل. لقد رحلت بعد كل هذه الأعوام إلى جزيرة أخرى. بيْد أنَّ الجزيرة يمكنها أن تحبسك بقدر ما يمكنها أن تحميك. قالت: "لا أظن أنه باستطاعتك أن تحبَّني لتحميني."

وبعد ذلك، من هذه الزاوية والمنظور البارد، تخيَّلت الاثنين، نِيمَير وابنته، في ظلمة الماء – هذا الرجل الذي ما زال في نظرنا خطِرًا وغير جدير بالغفران، الذي سيبقى إلى الأبد: (ماغْوِيتش)[66] وابنته –

(66) شخصية في رواية "آمال عظيمة" لتشارلز ديكنز.

يصارعان الماء المتلاطم بصخب وهو يجيش من مروحة الباخرة التي خلَّفتهما هناك. ليس باستطاعة أحدهما أن يرى الآخر، وبسبب البرودة لا يكاد يحسُّ بها بين ذراعيه. والتنفُّس... الوقت يكاد ينفد فيخرجان إلى السطح إلى الجو المظلم ويستنشقان كل شيء داخلهما، يتوقان إلى مزيد من الهواء. كل ما يستطيع فعله هو ألا يفلتها بعد، ليس بإمكان ابنته أن ترى، إنها بالكاد تشعر بأصابعه المحزوزة. بيْد أنهما في الهواء الآن، على السطح، على صفحة الأبيض المتوسط، لمحة من قمر، لمحة ضوء على الشاطئ البعيد.

يمسك نِيمَيِر بوجهها بين يديه المكبَّلتين، كما فعل في تلك الثانية الأخيرة على درابزين الباخرة إشارة إلى رحيلهما. يضع فمه في فمها فتفتحه، وبلسانها تدفع المفتاح الذي عضَّت عليه بين أسنانها الأمامية وتُودِعه فمَه. يواجهان مشقَّة في تشبُّث أحدهما بالآخر، جسداهما يتقلَّبان، وفي ذلك اليَمِّ المظلم كلِّه، يبدو المفتاح شيئًا صغيرًا ودقيقًا جدًّا لنقله من يد إلى أخرى. لأنَّ التيار كان قويًّا ويهدِّد بسحب كلٍّ منهما بعيدًا عن الآخر، سيأخذ المفتاح بنفسه من فمها ويحاول فتح القفل. والآن يترك الفتاة، يتركها تذهب عن السطح وتغوص مع المفتاح، وحيدة، مركِّزًا فقط في فتح القفل بأصابعه التي تجمَّدت من البرد. هذه هي اللحظة التي سيظل فيها أو لا يظل سجينًا إلى الأبد.

لقد قيل لها أن لا تنتظره. فقد ضحَّت بما يكفي. إن استطاع أبوها تحرير نفسه فسيتبعها ويجدها أينما كانت. الموانئ التاريخية تحيط بهما. إنه، على أيَّة حال، البحر الداخلي العظيم الذي اكتُشِف وسُكِن فيه منذ قرون خلت، حيث السفن تبحر مهتدية بالنجوم، أو بالمعابد فوق الخلجان الناتئة حين يكون الوقت نهارًا. (بيرايوس)،

قرطاج، القوقاز. كل مدن إيجه الساحلية هذه، كانت بوّابات القبائل التي ارتحلت إلى هناك قادمة من الصحارى أو سبحت إلى الشاطئ عندما حطّمت الرياح العاتية سفنها في عاصفة هوجاء. تمضي أسونتا بعيدًا. لقد قضت أسابيع في صورة شخص أرعبه الماء. والآن، كلُّ ذلك الشباب المكبوت يدفعها قُدُمًا. تأوي إلى جزيرة ما تخبِّئها إلى أن يُعثَر عليها. وإذن ما تسبح نحوه الآن ليس إلا مكانًا ما – إحدى تلك المدن التي تشكّلت في الأساس بسبب وجودها على دلتا أو مدٍّ آمِن – لتصنع حياة جديدة. كما نفعل نحن أيضًا عندما نبلغ اليابسة.

يطفو نِيمَيِر مرة أخرى طلبًا لمزيد من الهواء، وفي الظلام، بالرَّغم من ريح الليل، يسمع الاتجاه الذي تسبح إليه ابنته. يرى الأُورُونسَي تضيء مثل دبوس طويل، بعيدًا، متجهة صوب مضيق جبل طارق. ثم يغطس ثانية، ولمَّا يتحرَّر بعد من قيده الذي يصعب إيجاد فتحته الصغيرة الدقيقة بالمفتاح في هذه المياه المظلمة وفي شدَّة الصدى والأنين الآتيين من محرِّكات الباخرة المغادرة.

رسالة إلى كاسْيَس

معظم حياتي عرفت أنه لم يكن هناك من شيء يمكنني أن أمنحه كاسْيَس سيكون ذا قيمة له. وطوال هذه الأعوام لم أفكِّر جادًّا في الاتصال به. شيء ما في علاقتنا اكتمل في أثناء تلك الأيام الإحدى والعشرين على ظهر الباخرة. لم أشعر بالحاجة (إلا إلى فضول طفيف) إلى معرفته أكثر. كان طريق كاسْيَس واضحًا، على الأقل حسبما أعرف. لقد عرفت حتى آنذاك أنه سيكون كائنًا مستقلًّا غير مدين بشيء. كانت لفتته الخارجية الوحيدة، بعيدًا عن رفقتنا، التي كان من الجليّ أنها كانت مؤقتة، هي قلقه على تلك الفتاة. وعندما اختفت أسوتنا في البحر رأيت صديقي، وكأنما أحرقه واقع الراشدين، ينسحب بعيدًا.

فنَّان بيدين محروقتين. ما كانت حياته بعد ذلك؟ لا بدَّ أنَّ السنين الأخيرة من مراهقته كانت فترة لم يستطع خلالها الاعتماد على أيِّ أحد ولم يثق بشيء. من اليسير أن تكون شخصًا كهذا وأنت راشد، حينما تستطيع الحياة معتمدًا على نفسك. بيْد أنني أظنُّ أنَّ كاسْيَس في تلك الليلة على متن الباخرة فقد ما تبقَّى من طفولته. أتذكَّره واقفًا هناك إلى الأبد، ما عاد بقربنا، باحثًا في الأمواج اللَّاصفة الغامقة الزُّرقة.

أعلم أنني لولا ما تلقَّيته من طيب رام الدِّين المُطَمئِن ما كنت فكَّرت في التَّقدُّم نحو كاسْيَس الآن. لقد غدا قوَّة عدائية في المشهد الفني. ثمَّة تهكُّم يسير فيه. بيْد أنَّ ذلك لا يهم. لقد كان فتًى في الثانية عشرة واتخذ الخطوة ليحمي شخصًا برأفة طفولية. بالرَّغم من فوضاه الطبيعية تقريبًا ودَّ الاعتناء بالفتاة. أمر عجيب. لقد ودَّ أن يحمي ابنة نِيمَيِر كما ودَّ رام الدِّين أن يحمي هِثَر كيْف. ما الذي جعلنا نحن الثلاثة نرغب في حماية آخرين بدا أنهم كانوا أقلَّ أمانًا منَّا؟

فكَّرت في أنني لو وجدت عنوانًا، شيئًا مثل "رحلة المائِنا"، فربما استطعت الاتصال به أينما كان. ذلك أنه لن يعرفني باسمي الحقيقي. لمَّا كنت قادرًا على الاتصال بالآنسة لاسْكِتِي في موطنها الحالي من خلال لقبي، فلعلِّي أستطيع الاتصال به أيضًا. لا فكرة لديَّ إن كان كاسْيَس يقرأ، أم أنه يحتقر القراءة. على أيِّ حال، هذه القصَّة له. للصديق الآخر في صباي.

الوصول

انزلقنا نحو إنكلترا في الظلام. بعد كل الوقت الذي قضيناه في البحر، لم نكن قادرين على أن نشهد دخولنا إلى المدينة. كان هناك مركب قبطان وحسب يومض ضوؤه الأزرق بانتظارنا عند مدخل مصبِّ البحر، ويقودنا طَوَالَ شاطئ مظلم مجهول صوب التّيْمز.

كانت هناك رائحة اليابسة المباغتة. حين أنار الفجر أخيرًا كلَّ ما كان حولنا بدا المكان متواضعًا. لم نرَ ضفاف نهر خضراء ولا مدنًا ذائعة الصّيت ولا جسورًا ممتدَّة كبيرة يمكنها أن تفتح قوسيها لتتيح لنا الدخول. كل شيء عبرنا أمامه بدا بقايا زمن صناعي آخر؛ الأرصفة، صهاريج الملاحة، المداخل إلى القنوات المعمَّقة المجرى. مررنا بناقلات نفط وعوَّامات راسية. بحثنا عن الأطلال المنذرة التي درسنا عنها في درس التاريخ في كولومبو التي تبعد آلاف الأميال. رأينا بُرجًا. ثم أصبحنا في مكان يضج بالأسماء: (ساوث إند)، (تشابمان ساندز)، (بليث ساندز)، (لاور هوب)، (شورنميد).

أطلقت باخرتنا أربع صافرات قصيرة، توقَّفت، ثم صافرة أخرى، وبدأنا نرسو برفق في ميناء تِيلبْري. الأُورُونسَي، التي كانت أسابيعَ مثل نظام عظيم حولنا، استراحت أخيرًا. بعيدًا في النهر،

عميقًا في الداخل من هذا الجزء الشرقي من التّيْمز كانت (غرينويتش)، (ريتشموند)، و(هِنِلي). بيْد أننا وقفنا الآن، وتوقَّفت المحرِّكات.

ما أن بلغت أسفل مِعْبَر الباخرة حتى فقدت مرأى كاسْيَس ورام الدِّين. بضع ثوان انقضت وافترقنا، ضيَّع بعضُنا بعضًا لم تكن ثمَّة نظرة أخيرة أو حتى إدراك أنَّ هذا ما حصل. وبعد البحار الشاسعة كلِّها لم يكن بإمكاننا أن نجد بعضنا بعضًا ثانيةً في مبنى المحطة غير المصبوغ ذاك على ضفاف التّيْمز. بدلًا من ذلك، أخذنا نشقُّ طريقنا بارتباك وسط الحشد الكبير، غير متيقِّنين من أي مكان كنَّا نمضي إليه.

قبيل بضع ساعات بسطتُ أول سروال طويل لي وارتديته. وضعت جوربين ملآ حذائي. وهكذا رحت أسير على نحو أخرق ونحن نهبط المنحدر العريض إلى رصيف الميناء. كنت أحاول العثور على مَن تكون أمي. لم تتبقَّ هناك أيَّة ذكرى أكيدة عمَّا يكون شكلها. لديَّ صورة واحدة ولكنها كانت في قعر حقيبتي الصغيرة.

الآن فقط أحاول تخيُّل ذلك الصباح في تِيلبْرِي من وجهة نظر أمي وهي تبحث عن الابن الذي تركته في كولومبو منذ أربع أو خمس سنين خلت، محاوِلةً تخيُّل كيف يبدو، وقد أُرسِلت إليها ربَّما صورة حديثة له بالأبيض والأسود لتعينها على معرفة صبي في الحادية عشرة بين حشود المسافرين الخارجين من الباخرة. لا بدَّ أنها كانت لحظة مفعمة بالأمل أو مرعبة، ملأى بالإمكانات. كيف سيتصرَّف نحوها؟ فتى مهذَّب ولكنه منعزل، أم شخص توَّاق إلى الحنان. أحسب أنني أرى نفسي رؤية أفضل عبر عينيها وعبر حاجاتها وهي تبحث بين الحشد، كما كنت أفعل، عن شيء لا يدري أيٌّ منَّا أنه يبحث عنه، وكأنَّما الآخر كان عارضًا كرقم انتُزِع من دلو، وسيصبح شريكًا حميمًا

في العقد القادم، وحتى بقيَّة حياتنا.

"مِايكل؟"

سمعتُ "مايكل"، وكان صوتًا يخشى أن يكون مخطئًا. التفتُّ ولم أر شخصًا أعرفه. امرأة وضعت يدها على كتفي وقالت: "مايكل." لمست قميصي القطني وقالت: "لا بد أنك تشعر بالبرد يا مايكل." أتذكَّر أنها قالت اسمي مرَّات عديدة. كنت في البداية أنظر إلى يديها وثوبها فحسب، وحينما رأيت وجهها عرفت أنه كان وجهها.

وضعت حقيبتي على الأرض وعانقتها. كان صحيحًا أنني كنت أحسُّ بالبرد. لقد كنت قلقًا في تلك اللحظة من أن أضيع إلى الأبد. ولكن الآن، بسبب ما قالت، أحسست بالبرد. وضعت ذراعيَّ حولها ويداي كانتا تضغطان ظهرها العريض. ابتعدت ونظرت إليَّ مبتسمة، ثم تقدَّمت وشدَّتني بقوة إليها. استطعت أن أرى جزءًا من العالم العابر إلى جانبها، كان الأشخاص يندفعون وبالكاد يرونني وأنا بين ذراعي أمي، والحقيبة المستعارة بكل ما أملك كانت إلى جواري.

ثم رأيت إمِلي تخطو بثوبها الأبيض، توقَّفت، التفتت لتنظر إليَّ. كان الأمر وكأنَّ كل شيء قد توقَّف وعاد إلى الوراء لحظة. منحني وجهها ابتسامةً حذِرة. ثم عادت ووضعت يديها، يديها الدافئتين على يديَّ اللتين كانتا على ظهر أمي. لمسٌ حنون، ثم ضغطٌ عميق كأنَّه نوعٌ من إشارة. ثم مضت مبتعدة.

خِلْت أنها قالت شيئًا.

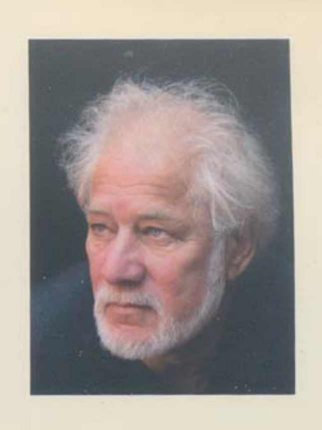
سألتُ أمي: "ماذا قالت إمِلي؟"

"حان الوقت للذهاب إلى المدرسة، أظن."

من مسافة، قبل أن تختفي في العالم، لوَّحت إمِلي.

ملحوظة الكاتب

مع أنَّ "مائدة القط" تتَّخذ في بعض الأحيان أسلوب المذكّرات والسيرة الذاتية ومواقعهما، إلا أنَّها رواية متخيَّلة، بدءًا من القبطان، والطاقم، وسائر المسافرين بالباخرة، وانتهاءً بالسَّارد. ولمَّا كانت هناك باخرة يُطلَق عليها "أورونسي" (ثمَّة في الواقع سفن عديدة باسم أورونسي)، فإنَّ الباخرة المذكورة في الرواية هي إحالة متخيَّلة.



مايكل أونداتجي، روائي وشاعر ومُحرّر كندي من أصول سِرلانكية. حازت روايته «المريض الإنجليزي» جائزة مان بوكر عام 1992 وجائزة مان بوكر الذهبيّة عام 2018. له عدّة روايات، منها «مائدة القطّ» و «ضوء الحرب»، بالإضافة إلى مجموعات شعرية هي «قاشر القرفة»، «حب دنيوي»، و«أتعلّم خدعة بالمدية».



زوينة آل توية، مترجمة عمانية، صدر لها مجموعة قصصية عام 2005. ترجمت إلى العربية رواية «بارتلبي النساخ» للكاتب الأمريكي هِرمَن ملفل عام 2010، ورواية «ما رأيكم في شكلي الآن» للناشئة للكاتبة الأسترالية رندة عبد الفتاح عام 2012.

مائدة القطّ

في مطلع الخمسينيات، يركب صبيٌّ في الحادية عشرة من عمره باخرةً تنطلق من سريلانكا ذاهبةً إلى بريطانيا، تشق في طريقها البحر الأحمر وقناة السويس، ويشهد الصبيّ ميناء عدن، وأبها، وجدّة، وبورسعيد. يجلس في أوقات الطعام إلى «مائدة القطّ» – هي أبعد الموائد عن مائدة القبطان، ويجلس إليها أيضًا مجموعة من «الكبار» ذوي الشخصيّات الغريبة، وصبيّان: كاسْيَس ورام الدّين. يُغامر الصّبيان على ظهر الباخرة أحرارًا مثل زئبق سائل، يعرفون عن كثب الأغنياء واللصوص، والعلماء والمتوحّدين، ويتعقّبون السّجين الذي لا يُسمح له بالخروج إلّا منتصف الليل معرّضين أنفسهم لخطر لا يُدركون مداه. رحلةٌ من العواصف والشّموس ستبقى في خيالهم طوال حياتهم، سيشكّون في حدوثها، لكن الشخصيات الغريبة التي عاشروها علّمَتهم أمورًا ستُشكّل شخصياتهم إلى الأبد، فقد ركبوا الباخرة أطفالًا، وترجّلوا عنها ناضجين.

«عجيبة... وجه جديد للأدب السّاحر...»
سان فرانسسكو كرونكل

«فاتنة.. فعلها مرّة أخرى على غرار تُحفته (المريض الإنجليزي)»
نيويورك تايمز بوك ريفيو

«أن تقبض حقًا على لحظة مُعاشَة هو إنجاز الفنّ الصّادق، إنها مُتعةٌ نادرة... لو كانت كلّ رواية لأونداتجي هي وردة، فهذه أضوعها شذًا.»
كلير مسعود

Photo by Peter Clarkson on Unsplash / Cover Design by Mohamed Khalil


ISBN 978-9948-37-969-0
9 789948 379690

